



جامعة القديس

طرابلس - لبنان

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مرحلة الدراسات العليا

قسم الدراسات الإسلامية

مكتبات مصر وبلاد الشام

في عصر المماليك

(١٢٥٠-١٥١٧م) = (٦٤٨-٩٢٣هـ)

\* رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي \*

إعداد الطالب

منذر حميدي الحسين

إشراف الأستاذ الدكتور

عمار محمد النهار

١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م

## ﴿ إهداء ﴾

إليك يا من خلقتني، وهديتني هذا العمل خالصاً لوجهك الكريم .  
ثم إليك يا سيدي يا رسول الله يا معلم الناس الخير، والرحمة، والإخلاص.  
ثم إلى والدي الذي، أسأل الله أن يغفر له، ويرحمه، ويسكنه فسيح جنّاته، حميدي عبيد  
الحسين.  
وإلى ينبوع الحب، والعطف، والحنان، الصافي، إلى من يكون الهناء كله بقربها، والدي.  
وإلى أخوتي، الذين وقفوا بجاني بكلّ إخلاص: عبد، أحمد، عبيد، خليل.  
وإلى جميع أصدقائي المخلصين لي.  
أهدي هذا العمل المتواضع ، وأسأل الله القبول .

## ﴿كلمة شكر﴾

قبل أن أضع القلم من يدي أقول:

قد تقصّر الكلمات وقد يعجز اللسان، لكنّها كلمة ولا بدّ أني قائلها:

أستاذي الذي أكرّ له كلّ احترام،

أستاذي الذي أخذ على عاتقه مسؤولية الإشراف.

أستاذي الذي ترك كل شيء وسافر معي .

والذي صبر معي وعليّ، وطوّق عنقي بالمساعدة، ومنح هذا البحث من وقته وجهده على كثرة

مشاغله، وأخلص له بدافع حبه للعلم، وتفانيه فيه حتّى ظهر هذا المظهر، شكراً جزيلاً:

أستاذي في قسم التاريخ.

الدكتور: عمّار محمّد النهار

## جدول المحتويات

المقدمة.....	خطأ! الإشارة المرجعية غير معرفة.
أسباب اختيار البحث وأهميته.....	١٣
إشكالات البحث.....	١٤
أهداف البحث.....	١٥
منهج البحث.....	١٦
التعريف بأهم مصادر البحث ومراجعته.....	١٧
الفصل الأول: الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية.....	٢٦
أولاً: الحياة السياسية.....	٢٧
١. نشأة المماليك.....	٢٧
٢. الظروف التي سبقت استلام المماليك الحكم وانتصارهم على الصليبيين.....	٣٠
٣. استلام شجرة الدرّ للسلطنة.....	٣٢
٤. استلام عزّ الدين أيبك للسلطنة.....	٣٤
٥. استلام المظفر قطز للسلطنة.....	٣٧
٦. معركة عين جالوت.....	٣٨
ثانياً: الحياة الاقتصادية.....	٤٤
١. الزراعة.....	٤٤
٢. الصناعة.....	٤٩
٣. التجارة الداخلية.....	٥٢
٤. التجارة الخارجية.....	٥٤
٥. موارد ونفقات الدولة.....	٥٧

٦٠	.....	ثالثاً: الحياة الاجتماعية
٧١	.....	رابعاً: الحياة الفكرية في عصر المماليك
٧٢	.....	١. التدريس و المؤسسات العلمية في عصر المماليك
٧٤	.....	٢. الكتاتيب
٧٥	.....	٣. النشاط الديني
٧٧	.....	٤. التصوف
٨٠	.....	الفصل الثاني: التطور التاريخي للمكتبات عبر العصور
٨١	.....	أولاً: المكتبات اليونانية
٨٣	.....	ثانياً: مكتبات بلاد ما بين النهرين
٨٦	.....	ثالثاً: المكتبات الرومانية
٨٩	.....	رابعاً: مكتبات وادي النيل
٩٢	.....	خامساً: مكتبات بلاد الشام
٩٤	.....	سادساً: المكتبات الفاطمية
٩٩	.....	الفصل الثالث: المكتبات المملوكية
١٠٠	.....	أولاً: عوامل ازدهار المكتبات في العصر المملوكية
١٠٦	.....	ثانياً: المكتبات المملوكية
١٠٦	.....	١. مكتبات مصر في العصر المملوكي
		آ- المكتبات
		الخاصة..... ٨٨
		ب- مكتبات المساجد والجوامع.....
		٩٤.....

ج- مكتبات المدارس...

٩٨.....

د- مكتب

١١٤..... البيمارستانات

هـ- مكتبات الخوانق والربط

١١٦..... والزوايا

و- مكتبات الترب

١١٩..... والقباب

٢. مكتبات بلاد الشام في العصر المملوكي ..... ١٤٦

آ- المكتبات

١٢٢..... الخاصة

ب- مكتبات المساجد

١٢٦..... والجوامع

ج- مكتبات

١٣٠..... المدارس

د- مكتبات

١٤٦..... البيمارستانات

هـ- مكتبات

الخوانق.....١٤٧

و- مكتبات

الترب.....١٤٨

ز- مكتبات

الربط.....١٥٠

١٨٣ ..... الفصل الرابع: نظام المكتبات في عصر المماليك

١٨٤ ..... أولاً: التزويد سياسته ومصادره

١٨٥ ..... ١. الشراء

١٩٠ ..... ٢. النسخ

١٩٩ ..... ٣. الوقف

٢٠٥ ..... ٤. الإهداء

ثانياً: الإجراءات الفنية (التسجيل، السجلات، الجرد، الفهرسة، الفهارس، التنضيد،

٢٠٦ ..... التصنيف)

٢٢٠ ..... ثالثاً: التجليد والترميم

٢٢٤ ..... رابعاً: مواعيد فتح المكتبات

٢٢٧ ..... خامساً: الخدمات المكتبية ( الاطلاع الداخلي - الإعارة الخارجية )

٢٣٩ ..... الفصل الخامس: البنية التحتية والنظام الإداري للمكتبات

٢٤٠ ..... أولاً: الموقع ومواصفاته

٢٤٥ ..... ثانياً: الأثاث والأدوات الخاصة بحفظ الكتب

٢٥٠	.....	ثالثاً: إيرادات المكتبة
٢٥٧	.....	رابعاً: العاملون في المكتبة
٢٦٨	.....	الفصل السادس: تدهور أوضاع المكتبات
٢٦٩	.....	أولاً: العوامل الطبيعية
٢٧٠	.....	ثانياً: العوامل البشرية
٢٧٧	.....	ثالثاً: الدولة العثمانية و تأثيرها على تدهور أوضاع المكتبات في العصر المملوكي
٢٧٩	.....	الخاتمة
٢٨١	.....	قائمة المصادر والمراجع
٢٨١	.....	أولاً: قائمة المصادر
٢٩٣	.....	ثانياً: قائمة المراجع
٣٠١	.....	ثالثاً: قائمة الوثائق والمجلات والمخطوطات
٣٠٢	.....	الملاحق
٣٠٣	.....	الملحق (١)
٣٠٦	.....	الملحق (٢)



## المقدمة

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألاّ إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران، الآية : ١٠٢).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء، الآية: ١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَفُؤُلُوا قَوْلًا سَدِيدًا \* يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب ، الآيتان : ٧٠ . ٧١).

يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت ولك الحمد بعد الرضى، أما بعد:

فبعد تدهور الأسرة الأيوبية في مصر وبلاد الشام عقب وفاة صلاح الدين الأيوبي، قيض الله لديار المسلمين حكّاماً على دراية كبيرة بأمور السياسة وشؤون الإدارة وفنون الحرب وهم المماليك، الذين كانوا رقيقاً لدى الأيوبيين.

وفي أخطر الظروف التي ألمت بديار المسلمين حملوا راية الجهاد، ليدافعوا عن الأرض العربية والإسلامية، وحقّقوا أعظم الانتصارات في القرن السابع الهجري = الثالث عشر الميلادي ، حيث استطاع المماليك أن يهزموا الجيوش الصليبيّة في الحملة السابعة على مصر، وأن يردّوا سيل المغول العارم بهزيمتهم في عين جالوت.

واستطاع المماليك تثبيت أقدامهم في المشرق العربي من خلال ما حققوه من انتصارات رائعة، حتى أنّ بعض الممالك والدويلات الأوربية بادرت إلى كسب ودّ سلاطين المماليك. ولم يقتصر دور المماليك على الأمور السياسيّة والعسكريّة والدفاع عن الأرض الإسلاميّة، بل شهدت فترة حكمهم وخاصّةً في مصر وبلاد الشام نشاطاً علمياً وثقافياً متعدّد التوجهات، ساعدت عليه عدّة عوامل منها الازدهار الاقتصادي الذي عاشته البلاد في ذلك العصر، والذي حقق لها الأمن والأمان، ومنها أيضاً إحياء الخلافة العباسيّة في القاهرة بعد سقوطها في بغداد على يد هولاكو عام (٦٥٦هـ = ١٢٥٨م)، وقد تمثل هذا النشاط فيما شُيّد من مؤسّسات تعليميّة وتربويّة.

ولأنّ الكتاب يعدّ جزءاً لا يتجزأ من العمليّة التعليميّة التي لا تقام إلّا به، فقد حرص المماليك على توفير المكتبات داخل كلّ مؤسّسة، فكانت هناك مكتبات المساجد والمدارس والبيمارستانات ومؤسّسات الصوفيّة مروراً بالمكتبات الخاصّة، حتى وصل الأمر إلى إقامة مكتبات في التراب والمقابر، وقد وُفّر لها أولو الأمر من السلاطين والأمراء والعلماء جميع مقوّمات الخدمات والأنشطة من موارد ماديّة وبشريّة ومن نظم وإجراءات فنيّة وإداريّة. وبعد أن شمرّت عن ساعد الجدّ، بدأت العمل معتمداً على المصادر والمراجع المتوفرة في المكتبة الوطنيّة وغيرها من المكتبات، وعلى الكتب المطبوعة والمؤلّفات المخطوطة.

وأشير إلى أني جعلت هذا البحث في ستّة فصول:

الفصل الأوّل: يتحدث عن أصول المماليك، ونشأتهم، والظروف التي ساعدت على استلامهم الحكم، وانتصارهم على الصليبيين، وانتصارهم على المغول، ونقلهم للخلافة إلى مصر بعد تدمير بغداد على يد المغول.

ثمّ ذكرت لمحة عن الحياة الاقتصاديّة من زراعة وصناعة وتجارة داخلية وخارجية وموارد ونفقات الدولة، وعن الحياة الاجتماعيّة حيث تمّ إلقاء الضوء على طبقات المجتمع، ومكانة

المرأة، والحديث عن الحياة الفكرية من حيث النشاط العلمي وكيفية التعليم، وتمّ الحديث بشكل خاص عن الحركة الصوفية التي كبر شأنها في ظل الحكم المملوكي.

أمّا الفصل الثاني: فتحدثتُ فيه عن المكتبات القديمة وهي المكتبات اليونانية، ومكتبات بلاد ما بين النهرين، والمكتبات الرومانية، ومكتبات وادي النيل، ومكتبات بلاد الشام، ومكتبات العصر الفاطمي، ولم يتمّ الحديث عن المكتبات في عصر الأيوبيين بوصفها مكتبات منفصلة عن المكتبات في العصر المملوكي، وذلك لأنّ معظم المكتبات في عصر الأيوبيين استمرت في تأدية عملها في العصر المملوكي، وتمّ الحديث عنها في العصر المملوكي مع التلميح إلى أنّها من منشآت الأيوبيين.

والفصل الثالث: للحديث عن عوامل ازدهار المكتبات في العصر المملوكي، وبعدها الحديث عن مكتبات مصر في عصر المماليك تبعاً للمؤسسات التي كانت تابعة لها، وهي المكتبات الخاصّة، ومكتبات المساجد والجوامع، ومكتبات المدارس، ومكتبات البيمارستانات، ومكتبات الخوانق والربط والزوايا والتراب والمداخن والقباب، ثمّ الحديث عن مكتبات بلاد الشام. وأمّا الفصل الرابع: فتحدثتُ فيه عن عملية تزويد المكتبات من شراء ووقف وإهداء ونسخ، وتحدثتُ عن الإجراءات الفنية مثل عملية التسجيل والفهرسة والجرد والسجلات والتصنيف والتنضيد، ثمّ الحديث عن التجليد وعملية ترميم الكتب، ومواعيد فتح المكتبات وإغلاقها، وعملية الإعارة سواء كانت داخلية أم خارجية.

وأما الفصل الخامس: فيتّم الحديث فيه عن الموقع الذي أختير للمكتبة التي تكون عادةً ضمن المؤسسة، والحديث عن تجهيزات المكتبة، وأدوات حفظ الكتب، والمحافظة عليها، وما يدخل إلى المكتبة من أموال وما يخرج منها من مصاريف، وبعدها تحدّثتُ عن العاملين في المكتبة لإدارة أمورها على اتّم وجه.

الفصل السادس: وهو مخصّص للكلام عن تدهور أوضاع المكتبات وضياع الكتب وأسباب هذا الضياع، ودور العثمانيين في ضياع الكتب أثناء دخولهم إلى بلاد الشام ومصر. وفي الخاتمة تمّ الحديث عن أهمّ ماتوصل إليه البحث من نتائج.

## أسباب اختيار البحث وأهميته

إنّ من الأسباب التي دفعتني لاختيار هذا الموضوع لتقديمه لنيل درجة الماجستير في «جامعة الجنان» ما يلي:

- إغفال معظم الذين كتبوا عن تاريخ المكتبات هذه الفترة، وإسقاطها من حساباتهم، مع أهمية الدور الذي لعبته هذه المكتبات، إبان الفترة الزمنية -موضوع الدراسة- والتي امتدت أكثر من قرنين ونصف القرن.

- أشار بعض المؤرخين إلى هذه الفترة إشاراتٍ عابرةً، مفادها خلوّ عصر سلاطين المماليك من هذا النشاط المكتبي، لأنّه في زعمهم كان عصر إنحطاط وتأخر.

- أمّا مؤرّخو المكتبات في مصر فقد تجاوز معظمهم عصر المماليك في مؤلفاتهم، وربّما سبب الإحجام عن الخوض في هذا الميدان هو تلك الفكرة السائدة عن المظالم التي ارتكبتها بعض سلاطين المماليك، لكنّ هذا لا يبرّر إسقاط الصفحات المشرقة للنهضة المكتبية في عصر سلاطين المماليك التي لا زالت ثمارها حتّى يومنا هذا.

- أهمية عصر المماليك في التاريخ الإسلامي وخاصةً في مصر، وبلاد الشام، والحجاز، واليمن، وانعكاسه على عصرنا الحالي ثقافياً، وفكرياً، وأخلاقياً، حيث أنّ المدارس والحمامات، والقيساريات، والجوامع، والمساجد، والأسواق، في هذه البلدان جلّها مملوكية.

- الرغبة في دراسة أحد الميزات التي اتّسم بها عصر المماليك على كثرتها.

- الكم الهائل من المؤلفات التي وصلت إلينا، حيث أنّ العديد من مكتبات

العالم تحتفظ بمخطوطات ترجع إلى العصر المملوكي.

## إشكالات البحث

كلنا يعلم أنّ المغول حين هاجموا بلدان العالم الإسلامي العربي عاثوا فيها فساداً، وكانوا يعتدون على الكتب بوسائل شتى، إمّا بالإحراق، وإمّا بالإتلاف، وإمّا بالإغراق، أو باستخدامها كجدران لإسطبلات خيولهم، أو بسرقتها وأخذها إلى بلدانهم.

وما يهّمنا هنا أنّ دولة المماليك قد نشأت قبل تلك الهجمات المغوليّة، وخلاها، فكيف واجه العلماء والمفكّرون والمؤلّفون الذين عاشوا آنذاك في بلاد الشام ومصر وغيرهما تلك الهجمات التي أوضحتنا خطرهما على الكتب والمكتبات؟ وهل استطاعوا تدارك ما فُقد منها؟ وهل انطلقوا إلى نهضة جديدة مشكلين مكتباتٍ غيرها؟

## أهداف البحث

- تدارك قلّة الدراسات المختصّة في المكتبات في عصر المماليك.
- معرفة مدى انتشار المكتبات وأنواعها في ذلك العصر.
- دراسة نظم المكتبات في عصر المماليك.
- الوقوف على مصير الكتب والمكتبات في أواخر عصر المماليك.
- الدور الذي لعبته المكتبات في الحياة العلمية في عصر المماليك.

## منهج البحث

تناول هذا البحث دراسة النشاط الفكري، والعلمي في بلاد الشام ومصر في عصر المماليك، وقد تمّ الاعتماد على منهج البحث التاريخي في هذه الدراسة، الذي يقوم أساساً على جمع المعلومات والبيانات ذات الصلة بالموضوع، ومن مصادره الأصلية التي أرّخت لذلك العصر، وتشتمل على كتب التاريخ، والتراجم، والسير، والطبقات، وكتب الرحلات، مع التركيز على كلّ ماله صلة بالمكتبات، ومواردها، ونظمها، وخدماتها، هذا بالإضافة إلى المراجع الحديثة التي تعرّضت لتاريخ الكتب، والمكتبات.

وقد تمّ اتباع الطريقة الوصفية، والطريقة الإنشائية، التي تعدّ ضرورية كي يكون الموضوع أكثر حيويةً ونبضاً، من خلال استخدام لغةٍ عربيةٍ فصحةٍ واضحةٍ سهلةٍ، على ألا يكون ذلك على حساب الحقائق التاريخية.

أمّا فيما يتعلق بالصعوبات التي ستواجهه البحث فقد يكون هناك صعوبات، ولكن بإذن الله تعالى سيتم تخطيها قدر الإمكان، ولكن جلّ من لا يخطئ والكمال لله عزّ وجلّ.



## التعريف بأهمّ مصادر البحث ومراجعته

اهتمّ العرب والمسلمون بالتاريخ كثيراً، وذلك لشغفهم بمعرفة مصائر الأمم السالفة، فدونوه بعناية قلّ أن تساويهم فيها أمةٌ من الأمم، فلا عجب أن نرى كثرةً في المؤلفات التاريخية، فمن يقصد المكتبة العربية الإسلامية يجد فيها ما يثلج صدره من مئات المؤلفات، متعددة الموضوعات والاختصاصات.

وتحدّد طبيعة كلّ بحث من الأبحاث التاريخية نوعية مصادره، فالموضوع العام له مصادره، والموضوع الخاص له مصادره، وبما أنّ موضوع بحثي حضاري فكري، فإنني اضطررت إلى الرجوع إلى أنواعٍ كثيرةٍ من المصادر، من كتب التاريخ العام والخاص، وكتب التراجم والطبقات، والسير والوفيات، التي تناولت علماء الدين واللغة والأدب، وتراجم المؤرخين والجغرافيين وغيرهم، وهذا أدّى إلى تنوع مصادر البحث وتعددتها، مما يجعل من الصعوبة بمكان تناولها جميعاً بالتعريف، وسأحاول هنا الإشارة إلى أهمها.

من أهمّ مصادر البحث كتب التراجم التي تناولت ذكر العلماء وأخبارهم وإنجازاتهم، فقد جاءت في الدرجة الأولى من حيث الاستفادة منها، ومنها كتاب صلاح الدين خليل الصفدي (ت ٥٧٦٤هـ = ١٣٦٢م) «أعيان العصر وأعوان النصر» وكتاب «الوافي بالوفيات»، وكتاب ابن شاکر الكتبي (ت ٥٧٦٤هـ = ١٣٦٢م) «فوات الوفيات»، ومصنف ابن خلكان (ت ٦٨١هـ = ١٢٨٢م) «وفيات الأعيان»، ومن أهمّ كتب التراجم هذه «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» للإمام أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ = ١٤٤٨م)، وهو أوسع قاموس في تراجم أعيان القرن الثامن الهجري = الرابع عشر الميلادي وعلمائها، أطال في كثير منها واستفاض، فكان بما حواه من التفاصيل مصدراً أساسياً لكلّ باحث في تاريخ العصر المملوكي.

ومن أهم الكتب التي تمّ الاستفادة منه كتاب «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ = ١٤٩٧م)، الذي يعدّ من أغنى كتب التراجم في العالم الإسلامي، وقد رتبته على حروف المعجم، وأيضاً من كتبه المهمة في التراجم كتاب «التبر المسبوك في ذيل السلوك».

وكتاب «الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة» للنجم الغزيّ، وهو أشهر ما ألف في تراجم القرن العاشر الهجري، وقد بناه الغزيّ على ثلاث طبقات، الأولى: من سنة (٩٠١هـ = ١٤٩٥م) حتى سنة (٩٣٣هـ = ١٥٢٧م)، والثانية حتى سنة (٩٦٦هـ = ١٥٥٩م)، والثالثة حتى سنة (١٠٠٠هـ = ١٥٩٢م) وافتتح الثانية بترجمة جدّه، والثالثة بأبيه، وافتتح تراجم كلّ طبقة بالمحمدين، ثمّ جرى على حروف المعجم، وفرغ منه يوم ٦ / ذي الحجة (١٠٣٣هـ = ١٦٢٤م)، ثمّ أتبعه بذيل سماه «لطف السمر وقطف الثمر في أعيان الثلث الأوّل من القرن الحادي عشر».

وكتاب «شذرات الذهب في أخبار من ذهب»، ألفه الفقيه والمؤرخ ابن العماد الحنبليّ (١٠٣٢-١٠٨٩هـ) = (١٦٢٣-١٦٧٨م)، حيث أرخ ابن العماد في كتابه الألف سنة الأولى من الإسلام، مبتدئاً بالسنة الأولى للهجرة فالثانية فالثالثة وهكذا، مبيناً في كلّ سنة أهمّ أحداثها، منبهاً إلى من توفي في هذه السنة من الأعلام، والمحدثين منهم خاصّةً، مع ذكر طرف من ترجمته، وكتاب «المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي» ليوסף بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ = ١٤٦٩م) ترجم فيه لأكثر من ثلاثة آلاف من الرجال ومشاهير العلماء، والأمراء، والسلاطين، الذين عاشوا في مصر في عصر دولة المماليك.

ومن المصادر التي رصدت الحياة الفكرية في صعيد مصر وأفادت البحث كثيراً كتاب «الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد» لكمال الدين أبي الفضل

جعفر بن ثعلب بن جعفر الإدفويّ الشافعيّ (ت ٧٤٨هـ=١٣٤٧م)، وهو كتاب خاص بتراجم علماء صعيد مصر ومفكره، وكتاب «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» لمحمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ=١٨٣٤م).

اعتمد البحث كذلك على مجموعة من المصادر المتخصصة بتراجم رجال الطبقات، ووفّر ذلك عليّ جهداً كبيراً لتخصّص كلّ منها بطبقةٍ معينةٍ من العلماء، مثل كتب طبقات أصحاب المذاهب الفقهية، كـ«طبقات الشافعية» لأبي بكر بن أحمد بن محمد المعروف بابن قاضي شهبة (ت ٨٥١هـ=١٤٤٨م)، وهو كتاب مهم في طبقات المذهب، بدأه بعصر الإمام الشافعي، ووصل به إلى عام (٨٤٠هـ=١٤٣٦م)، وجاءت التراجم فيه مختصرة ووافية، ومن المصادر الأخرى كتاب «طبقات الشافعية» لعبد الوهاب بن علي السبكي (ت ٧٧١هـ=١٣٦٩م)، وكتاب «الجواهر المضية في طبقات الحنفية» لعبد القادر بن أبي الوفاء محمد بن أبي الوفاء القرشي (ت ٧٧٥هـ=١٣٧٣م).

ومن المصادر التي أثرت البحث كتاب «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» للإمام عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ=١٥٠٥م)، إذ أودع فيه صفوة الكتب التي سبقته في هذا الشأن، وزاد عليها ما انتقاه من كتب الأدب، والتاريخ، والتراجم، ومعاجم الشيوخ، فعُدّ هذا الكتاب أشمل كتاب في هذا الفن، وكذلك ما ورد في تراجم الأطباء في كتاب ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ=١٢٦٩م) «عيون الأنبياء في طبقات الأطباء».

وتمت الاستفادة من كتاب «تذكرة الحفاظ» للإمام الحافظ أبي عبد الله شمس الدين محمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ=١٣٤٨م)، وكتابه «تاريخ الإسلام» وهو من أوسع التواريخ العامّة، حيث يتناول التاريخ الإسلامي من بدء الهجرة النبوية حتّى سنة (٧٠٠هـ=١٣٠٠م) مع ذكر وفياتها، وكتاب «سير أعلام النبلاء»، وأيضاً كتاب «العبر في خبر من غبر».

وتّم الاعتماد على مجموعة من المصادر الهامة مثل «ذيول العبر» للذهبي ومحمد بن علي الحسيني (ت ٧٦٥هـ = ١٣٧١م)، و«تاريخ ابن الفرات» لناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي ابن الفرات وهو في علوم التاريخ، وكتاب «عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان» لمحمد بن أحمد العيني (ت ٨٥٥هـ = ١٤٥١م)، وكتاب «نقد الطالب لزغل المناصب» لشمس الدين محمد بن طولون.

ومن الكتب التي كان لها صدى واضح في هذا البحث كتب السير الشخصية، حيث حوت تفاصيل دقيقة قد لا نجد مثلها في غيرها من الكتب، فكان أصحابها شهود عيان على إنجازات ذلك العصر، مثل «تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه» لابن حبيب، وكتاب «السيف المهند في سيرة الملك المؤيد» لبدر الدين العيني، وهو كتاب في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي تاسع سلاطين دولة المماليك في مصر والشام.

ومن المصادر التي أثرت البحث كثيراً الموسوعات المنتشرة في ذلك العصر، ويأتي في مقدمتها موسوعة النويري (ت ٧٣٣هـ = ١٣٣٢م) «نهاية الأرب في فنون الأدب»، كما حوت موسوعة القلقشندي (ت ٨٢١هـ = ١٤١٨م) «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» على تفاصيل مهمة ووافية في المجالات الإدارية والجغرافية والاقتصادية والفكرية، تضاف إليها الوثائق الواردة فيها، وهنا تكمن أهميتها الخاصة، فكانت من أهم المصادر المعتمد عليها، ومنها كتاب «لسان العرب» لابن منظور محمد بن مكرم (٧١١هـ = ١٣١١م)، وهو موسوعة في اللغة والنحو والصرف والأخبار والأدب والفقه ويعد من أكبر المعاجم التي وصلت إلينا من العصر المملوكي.

ومن المصادر الأخرى موسوعة «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لابن فضل الله العمري أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ = ١٣٤٨م)، وكتاب «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» للمولى مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي الشهير بالملّا كاتب الجلبي

والمعروف بجاجي خليفة (١٠١٧هـ = ١٠٦٧هـ)، فهذا الكتاب كأنه توثيق للكتب والمؤلفات حتى مُنتصف القرن السابع عشر الميلادي.

وكان لكتب الرحلات نصيب جيد في البحث، فكان أصحابها شهود عيان على ما شاهدوا وما وصفوا، فجاءت معلوماتهم صادقة ومؤيدة ومطابقة لما ورد في كتب ذلك العصر، وقد نسج هؤلاء في معلوماتهم نسيجاً متكاملًا بتعاقب مجيئهم إلى مصر وبلاد الشام، ومن الرحالة الذين تمّ الاستفادة منهم في هذا البحث: كتاب رحلة ابن بطوطة (ت ٧٧٧هـ = ١٣٧٥م) وقيل (٧٧٩هـ = ١٣٧٧م)، وكتاب «تاج المفرق في تحلية علماء المشرق» لخالد البلوي توفي بعد (٧٣٧هـ = ١٢٣٦م)، وكانا شاهدي عيانٍ على الأحوال في النصف الأوّل من القرن الثامن الهجري = الرابع عشر الميلادي.

ومن الكتب التي اعتمد عليها البحث كتب النقد الاجتماعي، وأهمها كتاب تاج الدين السبكي (ت ٧٧١هـ = ١٣٦٩م) «معيد النعم ومبيد النقم»، وكتاب «المدخل» لابن الحاج أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري المالكي الفاسي (ت ٧٣٧هـ = ١٣٣٦م)، وكتاب أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ (٧٦٦-٨٤٥هـ) = (١٣٦٥-١٤٤٢م)، «إغاثة الأمة بكشف الغمّة»، واشتملت على وصف للأحوال السياسية والاجتماعية والدينية والفكرية المنحرفة في عصرهم، مع تقديم هؤلاء للنصائح والحلول لتدارك السلبيات حتى يصل المجتمع إلى حالٍ اسمي، فأظهرت هذه المؤلفات وجهاً للمجتمع قلّ أن نشاهده في غيرها.

ومن أهم المصادر التي اعتمد عليها البحث كتاب «المواعظ والاعتبار» المعروف بـ«بخطط المقرئ»، وهو بإجماع الباحثين أهمّ كتاب في تاريخ مصر وجغرافيتها وطبوغرافية عاصمتها في العصر الإسلامي، قدم فيه المقرئ خلاصة جهوده العلمية العظيمة التي أضافها إلى جهود المؤرخين الذين سبقوه في الوضع لخطط مصر وقاهرتهما، وكان بحق العمود الفقري

لبحثي في الحياة الفكرية، ولولاه لتضاعف الجهد المبذول أضعافاً كثيرة، حيث قدم فيه المقرئ عرضاً شاملاً لتاريخ مصر منذ الفتح الإسلامي لها حتى القرن التاسع الهجري = الخامس عشر الميلادي، وضمّنه تفصيلات عن المؤسسات الدينية والعلمية ليست في أيّ مصدر آخر، ويضاف إلى كتابه هذا كتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» الذي أوقفه على التاريخ المملوكي، مقدّماً له بذكر أخبار الأيوبيين، فدوّن حوادث كلّ عام في فصل مستقل، وختم الحوادث بتراجم الوفيات، وهو مصدرٌ أساسيٌّ للباحثين في التاريخ المملوكي، ومن الكتب التي تمّ استخدامها في البحث للمقرئ كتاب «درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة» الذي ذكر فيه أعيان عصره.

ومن الكتب التي أغنت البحث بشكل كبير كتاب «الدارس في تاريخ المدارس» للمؤلف عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (ت ٩٢٧هـ = ١٥٢١م)، الذي يعدّ من مفاخر الدمشقيين في خدمة بلدهم، يأتي في الأهمية بعد تاريخ ابن عساكر، وقد رتبّ في فصوله حسب حروف المعجم، وأول فصوله: دور القرآن والحديث وهي (٢٦) داراً، ثمّ مدارس الشافعية وهي (٦٠) مدرسة، ثمّ مدارس الحنفية وهي (٥١) مدرسة، ثمّ المالكية وهي أربع مدارس فقط، ثمّ الحنبلية وهي (١١) مدرسة، وأتبع ذلك بذكر مدارس الطب وهي ثلاث مدارس، ثمّ الخوانق وهي (٢٧) خانقاه، ثمّ الرباطات وهي (٢٠) رباطاً، ثمّ الزوايا وهي (٢٥) زاوية، ثمّ الترب وهي (٧٨) تربة، ومنهجه فيه أنّه يذكر اسم المدرسة وبانيها، ثمّ يترجم له، ثمّ يصف المدرسة ويذكر أوقافها ويترجم لكلّ من درّس فيها حتى القرن العاشر.

وكتاب «منادمة الأطلال ومسامرة الخيال» للشيخ عبد القادر بدران، وهو كتاب تراثي، سياحي، فكري، غني بمادته العلمية، متفرد بموضوعه، ترجم وأرّخ ووصف صروح دمشق العمرانية، والعلمية، والفكرية، والثقافية، والخيرية، منذ القرن الخامس الهجري، ورصد الحركة

الفكرية بها، فقد وصف أشهر المساجد، ودور القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والدور التي جمعت بينهما بأن معاً، ومدارس الفقه الإسلامي بمذاهبه الأربعة، ومدارس الطب والصحة، وخوانق الصوفية، والربط، والزوايا، والمقابر، والأنهار، والأبواب، ذاكراً كل ما يتعلق بها من اسم مُنشئها وترجمته، وواقفها، وما أوقفه عليها من بساتين، وغلال، ومحلات، وجراية (رواتب ومصاريف) على شيوخها وطلاب العلم فيها، مهما عظمت أو قلت، مع ذكر شروط الواقف، وشروط الشيخ الناظر عليها، أو المسؤول عنها، واسماء مدرّسيها، ومن طلب العلم بها.

ومن مصادر البحث كتاب «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» ليوסף بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ = ١٤٦٩م)، واشتمل على تاريخ مصر منذ عام (٢٠هـ = ٦٤٠م) إلى عام (٨٧٢هـ = ١٤٥٧م)، فضم عدداً كبيراً من التراجم، والأخبار، الأدبية، والاجتماعية، والاقتصادية، ويوازي كتب ابن تغري بردي في الأهمية مصنف محمد بن أحمد بن إياس (ت نحو ٩٣٠هـ = ١٥٢٣م) «بدائع الزهور في وقائع الدهور»، ويحتل هذا الكتاب أهمية خاصة فيما يتعلق بتاريخ مصر منذ بدء التاريخ إلى عام (٩٢٨هـ = ١٥٢٢م)، ولاسيما التاريخ المملوكي، فظهر وكأنه صورة ناطقة عما كان يجري، حيث يسرد فيه ابن إياس الأخبار على طريقة الحوليات يوماً بعد يوم، وقد كان أميراً من أصل شركسي، وكان حفيد الأمير إياس الفخر الظاهري الذي كان من أمراء السلطان الظاهر سيف الدين برقوق، وأبوه كان على اتصال بالأمراء وموظفي الدولة المصرية، وكان قد عاش بعد فترة مؤرخي مصر الكبار مثل المقريزي والنويري وابن تغري بردي وبيبرس الدوادار وغيرهم، ولذلك كان مطلعاً على معلومات كثيرة ومهمة حصلت في عصره وقبل عصره.

ومن الكتب التي أغنت البحث بشكل كبير كتاب «البداية والنهاية» وهو عمل موسوعي تاريخي ضخيم، ألفه ابن كثير اسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤هـ = ١٣٧٢م)،

وهو عبارة عن عرض للتاريخ منذ بدء الخلق إلى نهايته يبدأ ببداية خلق السماوات والأرض والملائكة إلى خلق آدم، ثم يتطرق إلى قصص الأنبياء مختصراً ثم التفصيل في الأحداث التاريخية منذ مبعث النبي ﷺ حتى سنة (٧٦٧هـ = ١٣٦٥م) بطريقة التبويب على السنوات، وتبدأ السنة بقوله: «تمّ دخلت سنة»، ثم يسرد الأحداث التاريخية فيها، ثم يذكر أبرز من توفوا في هذه السنة، أمّا جزء النهاية ففيه علامات الساعة بالتفصيل لغاية يوم الحساب.

وكتاب «الانتصار لواسطة عقد الأمصار» لابن دقاق صارم الدين إبراهيم بن أيدير العلائي (ت ٨٠٩هـ = ١٤٠٦م)، وهو مؤرخ الديار المصرية ولد بمصر سنة (٧٤٥هـ = ١٣٤٥م)، من أصول مملوكية وكان جده أحد الأمراء في أيام محمد بن قلاوون، وقد بدء المؤلف كتابه بمدينة الفسطاط وقد أخذت حيزاً كبيراً من كتابه، وينتقل المؤلف بعد ذلك الى مدن الوجه القبلي بادئاً بمدينة الجيزة، وفي كل مدينة يذكر القرى التابعة لها وخططها، ومقدار ضرائبها ومساحتها.

و«ذيل مرآة الزمان» للشيخ قطب الدين موسى بن محمد اليونيني (ت ٧٢٦هـ = ١٣٢٦م)، وهو من نوادر كتب التاريخ والتراجم الجلييلة، نهج فيه منهج مؤرخي العهد المملوكي عامة، وهو أن يذكر في فاتحة كل سنة اسم الخليفة، والسلطان، وحدود مملكته، واسماء كبار أمرائه وعماله، مع تسمية الأمراء القائمين على أهم عواصم الإسلام، والملوك القائمين في أقاليم الأرض، ثم يشرع في ذكر الحوادث سنة فسنة، ويختتم كل سنة بذكر من توفي فيها من الأعلام.

ومن المصادر التي استعان بها البحث «مقدمة ابن خلدون» صاحب المدرسة التاريخية الواسعة، وكان قد أمضى شطراً من حياته في مصر والشام.



واستفاد البحث كذلك من مؤلفات الإمام السيوطي الكثيرة، وأخصّ منها «حسن المحاضرة»، الذي جمع فيه أخباراً عن كلّ ما يتعلق بمصر وقاهرته، وما ميزه عن غيره من المؤلفات تخصيصه أبحاثاً مستقلة عن مشاهير العلماء المصريين في كلّ علم وفن خلال العصور حتى عصره، وإن كان ذلك بإيجاز، وعلى وجه السرعة، فإنّه أعطى فكرةً مهمّةً عن العلوم المنتشرة في مصر، وعن علمائها وتخصصاتهم.

ومن أهمّ مراجع البحث: «دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط» ليوסף العش، وهو كتاب يتحدث عن المكتبات في العراق والشام ومصر في العصور الوسطى، وكتابا سعيد عبد الفتاح عاشور «المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك»، و«العصر المماليكي في مصر والشام».

ولمحمود رزق سليم كتاب «عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي»، وكتاب «تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام» لمحمد سهيل طقوش.

وكذلك توجد مراجع تحدثت عن موضوع معين مثل كتاب «العلاقات الاقتصادية بين المشرق والغرب في العصور الوسطى» لعادل زيتون، و«العلوم العملية في العصور الإسلامية» لعمر رضا كحالة، ويضاف إلى هذه الكتب الملحق الذي أرفقه محمد أمين بكتاب «تذكرة النبيه» لابن حبيب، فكانت الفائدة عظيمة من هذه الكتب.

## الفصل الأول: الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية

## أولاً: الحياة السياسية

### نشأة المماليك

المملوك: «عَبْدُ مَمْلَكَةٍ وَمَمْلَكَةٌ وَمَمْلِكَةٌ - الأخريرة عن ابن الأعرابي - إذا مُلِكَ ولم يُمَلِّكْ، أبواه وفي التهذيب الذي سُيِّ ولم يُمَلِّكْ أبواه - ابن سيده - ونحن عبيدُ مَمْلَكَةٍ لا قِنِّ أي أننا سُبيْنَا ولم نُملِّكْ قبلُ، ويقال هم عبيدُ مَمْلَكَةٍ وهو أن يُغَلَّبَ عليهم ويُستعبدوا وهم أحرار، والعَبْدُ القنُّ الذي مُلِكَ هو وأبواه، ويقال القنُّ المُشْتَرَى»<sup>(١)</sup>.

والمملوك جمعه مماليك، اسم مفعول مشتق من الفعل العربي «ملك»، ولم يلبث اللفظ أن اتخذ له معنى اصطلاحياً خاصاً في التاريخ الإسلامي، حيث أصبح يدلّ على الرقيق البيض، وكانوا يصبحون رقيقاً بثلاث طرق وهي: ١ - أسرى حرب. ٢ - عن طريق الشراء من التجار الذين يجلبونهم إلى العالم الإسلامي. ٣ - الهدايا التي كان يؤدّيها ولاة أقاليم بلاد ما وراء النهر على شكل رقيق إلى الخليفة<sup>(٢)</sup>.

وكان نشوء المماليك قبل ظهور دولتهم بأمَدٍ كبير، حيث كان الخلفاء العباسيون هم أوّل من استخدم المماليك، أو ما يسمّى بالرقيق البيض، وخاصّةً منذ عهد الخليفة المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ) = (٨١٣ - ٨٣٣م)، بعد أن بدأوا يخشون من ازدياد نفوذ الفرس، فلجأوا إلى الإكثار من شراء المماليك الترك ليعتمدوا عليهم في دعم نفوذهم وسلطاتهم<sup>(٣)</sup>.

---

(١) لسان العرب: أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفيقي المصري، الناشر: دار صادر، بيروت، ط٦ (١٤١٧هـ = ١٩٩٧م)، ج١٠، ص٤٩٣.

(٢) العصر المماليكي في مصر والشام: سعيد عبد الفتاح عاشور، الناشر: دار النهضة العربية، القاهرة، ط٢ (١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م)، ص١. تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام: محمد سهيل طقوش، الناشر: دار النفائس، بيروت، ط٣، (١٤٣١هـ = ٢٠١٠م)، ص١٦.

(٣) العصر المماليكي: عاشور، ص١.

وقد كان الخليفة العباسي المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ) = (٨٣٣ - ٨٤٣م) هو أول خليفة اعتمد على العنصر التركي بشكل أساسي، نظراً لمقدرتهم القتالية المميزة، ويقول ابن تغري بردي: «اعتنى المعتصم باقتناء الترك فبعث إلى سمرقند وفرغانة والنواحي لشرايهم وبذل فيهم الأموال وألبسهم أنواع الدجاج ومناطق الذهب وأمعن في شرايهم حتى بلغت عدتهم ثمانية آلاف مملوك وعشرة آلاف، وهو الأشهر ولأجلهم بنى مدينة سامرا»<sup>(١)</sup>.

وقد كانت مصر من هذه الولايات التي شهدت هذا الازدياد لعنصر المماليك، حتى تملكوا البلاد، فأحمد بن طولون كان مملوكاً تركياً آل إلى الخليفة المأمون، وعندما طمع بالاستقلال بمصر رأى أن يدعم استقلاله بقوة ضاربة من المماليك الديلمية والأتراك<sup>(٢)</sup>، ويقول المقرئزي: «وبلغت عدتهم زياد أربعة وعشرين ألف غلاماً تركياً، وأربعين ألف أسوداً وسبعة آلاف حر مرتزق» وذلك في عهد أحمد بن طولون<sup>(٣)</sup>.

وبعد ظهور الدولة الأخشيدية يقول ابن تغري بردي في مصر في عهد محمد بن طنج الأخشيدي سنة (٣٢٣هـ = ٩٣٥م): «وبلغت عدة مماليكه ثمانية آلاف مملوك... وتحرسه بالنوبة عندما ينام كل يوم ألف مملوك»<sup>(٤)</sup>.

---

(١) النجوم الزاهر في ملوك مصر والقاهرة: جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (٨٧٤هـ = ١٤٦٩م)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١ (١٤١٣هـ = ١٩٩٢م)، ج٢، ص٢٨٥.

(٢) العصر المماليكي: عاشور، ص٢.

(٣) خطط المقرئزي: المقرئزي، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، الناشر: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، (١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م)، مج١، ص٢٥٣.

(٤) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج٣، ص٢٩٤.

وعندما قامت الدولة الفاطمية كانت قد اعتمدت على المغاربة والسودان في جيوشها، ولكن الخلفاء الأواخر حذو حذوا من سبقهم في الاعتماد على المماليك منذ عهد الخليفة المستنصر فصاعداً<sup>(١)</sup>.

وفي عهد الأيوبيين أصبح هناك تغييرٌ كبيرٌ لتاريخ المماليك في البلاد العربية، حيث جلب الأيوبيون المماليك بأعدادٍ كبيرةٍ من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفجاق وآسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ما وراء النهر، فكانوا خليطاً من الأتراك والشراكس والروم والروس والأكراد، وكذلك أقلية من مختلف أوربة، وذلك بسبب انقسام البيت الأيوبي، حيث أكثروا في شرائهم وتدريبهم ليكونوا سنداً لهم<sup>(٢)</sup>.

وينقسم المماليك إلى قسمين: ١- مماليك بحرية: وهم من قام الملك الصالح نجم الدين أيوب بشرائهم بشكل كبير وفضلهم على الأكراد، وسمّاهم بالبحرية، وقام بإسكائهم في جزيرة الروضة في النيل<sup>(٣)</sup>. ٢- ومماليك البرجية: «وكان الملك المنصور قد أفرد من مماليكه ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك من الأمراء والجراكسة، وجعلهم بالقلعة وسمّاهم بالبرجية» كما يقول ابن تغري بردي<sup>(٤)</sup>.

(١) العصر المماليكي: عاشور، ص ٢.

(٢) العصر المماليكي: عاشور، ص ٣- ٤. جوانب من حركة التأليف التاريخي في العصر المملوكي: خليل الأحمد الحسين، أشرف: محمود زعرور، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة دمشق، (١٤٢٨ - ١٤٢٩هـ) = (٢٠٠٧ - ٢٠٠٨م)، ص ٢٠.

(٣) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٩٤.

(٤) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٧٩. السلوك لمعرفة دول الملوك: أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئزي(٧٦٦-٨٤٥هـ) = (١٣٦٥ - ١٤٤٢م)، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، الناشر: مطبعة التأليف والترجمة والنشر، مصر، ط ٢ (١٣٧٦هـ = ١٩٥٧م)، عدة محققين، ج ١، ق ٣، ص ٧٥٦.

ولقد ازداد نفوذ المماليك حتى أنهم وقفوا إلى جانب الملك الصالح أيّوب ضد العادل الثاني، فدبروا له مؤامرة وخلعوه<sup>(١)</sup>، كما ازداد نفوذ المماليك في عهد الملك الصالح أيّوب، فعبثوا في مصالح البلاد والعباد حتى قال عنه الشاعر:

الصالح المرتضى أيّوب أكثر من ترك بدولته يا شر محبوب  
قد أخذ الله أيّوباً بفعلته فالناس قد أصبحوا في ضرّ

### الظروف التي سبقت استلام المماليك الحكم وانتصارهم على الصليبيين

كانت الظروف قد مهدت لاستلام المماليك حيث ظهر خطر التتار والصليبيين، فقد خرج «لويس التاسع» ملك فرنسا على رأس حملة صليبية كبرى قاصداً مصر، واستطاع دخول دمياط ويقول المقرئزي: «وكان شيئاً لا يحيط به الوصف»<sup>(٢)</sup>، وقد كان الملك الصالح أيّوب في هذه الأثناء على فراش الموت، وكان ينظم شؤون الدفاع، وعندما أراد الصليبيون الزحف من دمياط إلى الجنوب توفي الملك الصالح سنة (٦٤٧هـ = ١٢٤٩م)<sup>(٣)</sup>، ولقد قامت أرملة شجرة الدرّ بإخفاء أمر موته، وقامت هي بتدبير أمور المملكة، وأرسلت تستدعي ابنه توران شاه من حصن كيفا، وقد كانت الكتب تخرج وعليها علامة السلطان، والأمراء يحضرون كلّ يوم، وكانت تقول إنّ السلطان مريض، والأدوية والطعام تدخل إلى غرفته كما لو كان حيّاً<sup>(٤)</sup>، ولكن مع ذلك تسرب خبر موت الملك الصالح إلى لويس التاسع، فأسرع لتوجيه ضربته قبل أن يستطيع المسلمون أن يعيدوا استعداداتهم، فعبر بحر آشوم، واندفعت قوات الصليبيين لدخول

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج ١، ق ٢، ص ٢٩٣ - ٣٩.

(٢) بدائع الزهور في وقائع الدهور: محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، تحقيق: محمد مصطفى، الناشر: الهيئة المصرية

العامة للكتاب، القاهرة، ط ٣ (١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م)، ج ١، ق ٢، ص ٢٦٩.

(٣) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ١، ص ٥٨٨. العصر المماليكي: عاشور، ص ٦ - ٧.

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج ١، ق ٢، ص ٣٣٩.

(٥) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج ١، ق ٢، ص ٣٤٣ - ٣٤٤.

المنصورة، واستطاعوا دخولها بقيادة «روبرت هي أرتوا» أخو لويس التاسع، «فانهزم الناس يميناً وشمالاً»<sup>(١)</sup>.

وفي هذه اللحظة المحرجة ظهر دور المماليك الذين استطاعوا أن يتصدوا للصليبيين، وهي الفئة التي تعرف بالبحرية والجمدارية، وذلك بعد دخول الصليبيين في أزقة المنصورة الضيقة، وكان من ضمن هؤلاء المماليك الظاهر بيبرس البندقداري، واستطاعوا أن يهزموا الصليبيين، حيث قتل منهم نحو ألف وخمسمائة، وبعدها استمر المماليك بملاحقتهم، ووقع أغلبية الجيش الصليبي بين أسيرٍ وقتيل، ومن ضمن الأسرى لويس التاسع الذي سجن بدار فخر الدين إبراهيم<sup>(٢)</sup>.

وبعد الانتصار في موقعة المنصورة وصل المعظم توران شاه ابن الصالح أيوب إلى مصر، ولكنه جمع بين سوء الخلق والجهل بشؤون الحكم والسياسة، وقد كان سيئ التدبير والسلوك ذا هوج وخفة<sup>(٣)</sup>، ولقد عادى المماليك البحرية ويقول ابن تغري بردي عنه: «إذا سكر يجمع الشموع ويضرب رؤوسها بالسيف فيقطعها ويقول كذا أفعل بالبحرية يعني ممالك أبيه الذين كان جعلهم بقلعة البحر بجزيرة الروضة ثم يسمي ممالك أبيه بأسمائهم وأهائهم وقدّم الأزدال

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج ١، ق ٢، ص ٣٤٣ - ٣٥٠.

(٢) خطط المقرئزي: المقرئزي: مج ١، ص ٦٠٢ - ٦٠٣. السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج ١، ق ٢، ص ٣٥٠.

(٣) العصر المالكي: عاشور، ص ٩.

وأبعد الأمثال»<sup>(١)</sup>، وأصبح الأمر والنهي لأصحابه الذين قدموا معه، فنفرت قلوب المماليك البحرية منه<sup>(٢)</sup>.

وكذلك بعث إلى زوجة أبيه شجرة الدرّ يهددها وهي بالقدس، ويطلب منها المال والجواهر فخافت منه، وقامت بمراسلة المماليك واتفقوا على قتله<sup>(٣)</sup>، وعند نزوله بفارسكور سنة (٦٤٨هـ = ١٢٥٠م)، تقدم إليه أحد المماليك وهو بيبرس البندقدار، وضربه بالسيف فتلقاها بيده فقطعت أصابعه، ثمّ احتفى بالبرج الخشبي الذي نصب له بفارسكور فدخل عليه المماليك بالسيوف ففر إلى أعلى البرج، فأضرموا النار في البرج، ثمّ فر إلى البحر ورموه بالسهام، ولحقوا به وقتلوه بالسيوف، وهكذا مات بالنار والماء والحديد<sup>(٤)</sup>، وبذلك أنتهى حكم الأيوبيين في مصر لتبدأ حقبة جديدة في حياة مصر وهي المعروفة بعصر المماليك.

### استلام شجرة الدرّ للسلطنة

غدا المماليك بعد مقتل توران شاه أصحاب الكلمة الأولى والأخيرة، وأختار المماليك شجرة الدرّ لتكون هي السلطان على البلاد، «وكانت تركية الجنس، وقيل بل أرمنية، اشتراها الملك الصالح نجم الدين أيّوب، وحطت عنده حيث كان لا يفارقها سفيراً ولا حضراً، وولدت منه ابناً اسمه خليل مات وهو صغير، وهذه المرأة شجرة الدرّ، هي أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك»، ولذلك هي قريبة من ناحية النشأة والأصل من المماليك<sup>(٥)</sup>.

---

(١) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج٦، ص٣٢٨ - ٣٣٠. السلوك لمعرفة دول الملوك: المقريزي، ج١، ق٢، ص٣٥٨ - ٣٥٩.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقريزي ج١، ق٢، ص٣٥٩.

(٣) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج٦، ص٣٢٩.

(٤) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج٦، ص٣٢٩. السلوك لمعرفة دول الملوك: المقريزي، ج١، ق٢، ص٣٥٩.

(٥) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقريزي، ج١، ق٢، ص٣٦١.



وكانت أول الصعوبات التي واجهت شجرة الدرّ هي الصليبيون الموجودون في دمياط، فقامت بإرسال الأمير حسام الدين محمد للتفاوض معهم، فتم الاتفاق على إطلاق سراح الملك لويس التاسع وجميع أسرى الصليبيين منذ عهد الملك العادل الأيوبي، مقابل خروجهم من دمياط ودفع ثمانمائة ألف دينار، يدفع نصفها عاجلاً، والنصف الآخر بعد ذلك، وبذلك كانت مدّة استيلاء الصليبيين على دمياط أحد عشر شهراً وتسعة أيام<sup>(١)</sup>.

وكان يُدعى لها في الخطبة بعد الخليفة، وكانت تخرج المراسيم والمناشير باسمها، ونقش اسمها على السكّة والنقود، وخلعت على الأمراء وأرباب الدولة، وأنفقت فيهم الأموال وفي سائر العسكر وغيرها، ولكنّ كلّ ذلك لم يشفع لها بأن تبقى في الحكم، حيث رفض الأمراء القيمرية في الشام وجمال الدين بن يغمور نائب السلطنة أن يخلفوا يمين الولاء والطاعة للسلطنة، وكتب الأمراء القيمرية من دمشق إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب يحثوه على المسير إليهم، وقد قدم واستلم دمشق، وعندما سمعت دار الخلافة ببغداد بتسلم امرأة الحكم، بعث الخليفة المستعصم بالله من بغداد كتاباً إلى مصر ويقول فيه «إن كانت الرجال قد عدت عندكم، فأعلمونا حتّى نسير إليكم رجلاً»<sup>(٢)</sup> وللخروج من هذا المأزق اتفقت الأمراء والمماليك البحرية على استلام عز الدين أيك مقدم العسكر السلطنة بعد زواجه من شجرة الدرّ<sup>(٣)</sup>، ويقول ابن تغري بردي «وتشوق إلى السلطنة عدّة أمراء فخيف من شرهم ومال الناس إلى أيك المذكور، وهو من أواسط الأمراء، ولم يكن من أعيانهم غير أنّه كان معروفاً بالسداد وملازمة الصلاة ولا يشرب الخمر وعنده كرم وسعة صدر ولين جانب، وقالوا

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج ١، ق ٢، ص ٣٦٢ - ٣٦٣.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج ١، ق ٢، ص ٣٦٦ - ٣٦٨. العصر المماليكي: عاشور، ص ١٢ - ١٤.

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج ١، ق ٢، ص ٣٦٩. بدائع الزهور: ابن إياس، ج ١، ق ٢، ص ٢٨٧.

أيضاً: هذا متى أردنا صرفه أمكننا ذلك لعدم شوكته وكونه من أواسط الأمراء»<sup>(١)</sup>، ولعلّ هذه الأمور دفعتهم إلى اختياره.

### استلام عزّ الدين أيّك للسلطنة

عندما استلم أيّك الحكم كانت أمور البلاد غير مستقرة، فالأيوبيّين في الشام يتطلعون لإعادة مصر لحكمهم، وخطر المماليك البحرية في مصر قد عظم، فقد كان الأيوبيون يجمعون قواهم للتوجه إلى مصر والقضاء على دولة المماليك، وأمّا المماليك البحرية فعزّ عليهم أن يتسلم السلطنة مملوك غير بحري، فثاروا عليه بعد خمسة أيام من تسلّمه الحكم وقالوا: «لابد لنا من سلطان يكون من بني أيّوب يجمع الكلّ على طاعته»<sup>(٢)</sup>، واختاروا أن يُسلّطوا صبيّاً عليهم من بني أيّوب يكون له اسم السلطنة شكلياً، وهم يدبرونه كيفما شاءوا، فوقع الاختيار على الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك الناصر<sup>(٣)</sup>.

وفي أثناء هذه الأحداث وصلهم خبر خروج الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام وحلب، وهذا الأمر جمع المماليك، واستطاعوا أن يهزموا الملك الناصر صلاح الدين يوسف سنة (٦٤٩هـ = ١٢٥١م)<sup>(٤)</sup>، وكان قبل ذلك قد حاول عزّ الدين أيّك التقرب من لويس التاسع، الذي كان موجوداً في عكا يُراقب الموقف فأطلق سراح بعض أسرى الصليبيين الفرنسيين، وأمر بهدم جميع أبراج دمياط لكي لا يستطيعوا أن يتخذوها قاعدةً مرّةً أخرى لهم يهددون من خلالها داخل البلاد المصرية<sup>(٥)</sup>.

(١) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج٧، ص٤ - ٥.

(٢) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج٧، ص٥. بدائع الزهور: ابن أياس، ج١، ق١، ص٢٨٩.

(٣) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج٧، ص٥.

(٤) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج٧، ص٦.

(٥) العصر المماليكي: عاشور، ص١٧.

وبعد أن أحست الخلافة العباسية بخطر التتار، أرسلت رسولاً إلى الملك الناصر يوسف تطلب منه الصلح مع أيك، وأن يتفقا على حرب التتار<sup>(١)</sup>، وبسبب هذا الصلح الذي تمّ سنة (٦٥١هـ = ١٢٥٣م) تمّ الاتفاق على أنّ حدود مصر تمتد إلى الأردن بما فيها غزّة والقدس ونابلس والساحل، أمّا ما هو تحت يد الملك الناصر يوسف فيتحدد بما وراء ذلك من بلاد الشام، وأن يطلق المعزّ جميع من أسره من أصحاب الملك الناصر<sup>(٢)</sup>.

وبعد ذلك ثارت عليه الأعراب في الصعيد، وذلك لأصل المماليك، حيث أنّهم كانوا يرون أنّهم غير أحرار ويقولون «بأنّا أحقّ بالملك من المماليك وقد كفى أنّا خدمنا بني أيّوب، وهم خوارج خرجوا على البلاد»، واتصلوا بالملك الناصر صاحب دمشق يستحثوه للقدوم إلى مصر، وترأسهم شخص اسمه حصن الدين بن ثعلب، ولكن السلطان المعز استطاع القضاء على ثورتهم، وقد قتل الكثير منهم وقبض على زعيمهم حصن الدين بن ثعلب<sup>(٣)</sup>.

ولم يبق أمام السلطان المعزّ سوى المماليك البحرية وقائدهم فارس الدين أقطاي الجمدار، وكان قد زاد أمره والثقت عليه المماليك البحرية، وكانت نفسه تحدّثه بالملك وكان أصحابه يسمونه بالملك الجواد، وقد تزوج أقطاي بنت الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماة، وقد تحدّث مع الملك المعزّ أيك أنّه يريد أن يسكنها في القلعة، لكونها من بنات الملوك ولا يليق بها السكن بالبلد، فعرف السلطان المعزّ بخطر أقطاي فأراد قتله<sup>(٤)</sup>، بالإضافة إلى أنّ هذا الزواج يقربه من الأيوبيين أعداء المعزّ أيك التقليديين، فقام الملك المعزّ باستدعائه إلى

---

(١) طبقات الشافية الكبرى: السبكي: تحقيق: محمود محمد- عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: هجر للطباعة، ط٢ (١٤١٣هـ = ١٩٩٢م) ج١، ص٢٦٩.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئ، ج١، ق٢، ص٣٨٥-٣٨٦.

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئ، ج١، ق٢، ص٣٨٦-٣٨٧.

(٤) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج٧، ص١٠.

القلعة لاستشارته ببعض الأمور، وكان قد جهز لقتله وعندما حضر قام بقتله<sup>(١)</sup>، وحاول أتباعه أن يتحركوا لإنقاذه ولكن لم يستطيعوا، فقد وقفوا تحت أسوار القلعة في محاولة يائسة ولكن السلطان ألقى برأسه إليهم، فعرفوا أنّ الدور آتٍ إليهم فقررروا الفرار، وأغلق عليهم السلطان أبواب القاهرة، فأحرقوا باب القراطين الذي عرف بعد ذلك باسم الباب المحروق، واستطاعوا الفرار إلى الشام، وكان بينهم بيبرس البندقدار وقلاوون وسنقر الأشقر وغيرهم<sup>(٢)</sup>، وبعدها قبض على من بقي منهم وقتل بعضهم وأسر باقيهم وأخذ أموالهم وأملاكهم، ونودي في القاهرة ومصر بتهديد من أخفى أحداً من البحرية<sup>(٣)</sup>.

وبعد هروب المماليك البحرية إلى الشام كانوا يثيرون المتاعب له، حتى أنّهم أتصلوا بالملك الناصر يوسف وأغروه لغزو مصر من جديد، وفعلاً ساء الموقف بين الناصر يوسف والمعزّ أيك سنة (٦٥٤هـ = ١٢٥٦م)، ولكن الأمر انتهى بالصلح بين الطرفين بفضل وساطة الخليفة العباسي<sup>(٤)</sup>.

وكانت نهاية الملك المعزّ على يد زوجته شجرة الدرّ التي كانت شديدة الغيرة، وذلك بعد زواجه من بنت الملك الرحيم صاحب الموصل، فقامت شجرة الدرّ بقتله في الحمام، وأعانها على ذلك جماعة من الخدّام وكان ذلك سنة (٦٥٥هـ = ١٢٥٧م)<sup>(٥)</sup>.

---

(١) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج٧، ص ١١.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج١، ق٢، ص ٣٩٠. العصر المماليكي: عاشور، ص ٢٠.

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج١، ق٢، ص ٣٩٢.

(٤) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج٧، ص ١١. السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج١، ق٢، ص ٣٩٢.

(٥) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج٧، ص ١٢.

## استلام المظفر قطز للسلطنة

وبعد مقتل السلطان المعزّ أيبك اتفق الأمراء على تولية ابنه نور الدين عليّ الذي تلقب بالمنصور، وكان عمره عندما استلم الحكم خمسة عشر سنة<sup>(١)</sup>، ولم يستطع أن يجابه المشاكل التي واجهته، وقام الأمير قطز وسنجر الغتمي وبهادر وغيرهم من الأمراء المعزّية بالقبض على أتابك العسكر سنجر الحلبي، وأنزلوه إلى الجب بالقلعة، وذلك بسبب طمعه بالسلطنة<sup>(٢)</sup>، وقد أثّرت إشاعات أنّ السلطان المنصور ينيو عزل نائبه الأمير قطز مع بقية المماليك المعزّية، ولكن تمّ التوسط من قبل بعض الأمراء بين الطرفين حتى صلح الأمر بينهما<sup>(٣)</sup>، وبذلك بقيت مصر في فترة اضطرابات وقلق، وقد تعرّضت لخطر من قبل المماليك البحرية الذين قد فروا إلى الشام، حيث أنّهم لم ينسوا أن المنصور هو ابن المعزّ أيبك الذي قتلهم، وأنّ قطز كان أحد الأمراء الذين قتلوا أقطاي<sup>(٤)</sup>.

وكانت العلاقات قد ساءت بين البحرية وبين الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق، فخرجوا على الملك المغيث صاحب الكرك وأقنعوه بأخذ السلطة في مصر، فخرج عليهم عسكر مصر بقيادة سيف الدين قطز والتقوا بالصالحية وانتصر عليهم، ولكنهم أقنعوا المغيث مرةً أخرى للتوجه إلى مصر فخرج في (٦٥٦هـ = ١٢٥٨م) وكان جنود الكرك بقيادة المغيث، أمّا أمر المماليك البحرية فيرجع إلى بيبرس البندقدار، فخرجت عساكر مصر واستطاعت هزيمتهم مرةً أخرى<sup>(٥)</sup>.

(١) العصر المماليكي: عاشور، ص ٢٣. النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣٧.

(٢) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣٨.

(٣) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣٩.

(٤) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ٧، ص ٤٠ - ٤١.

(٥) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ٧، ص ٤١.

وبعدھا خاف منهم الملك الناصر صاحب دمشق وحلب وبدأ يطاردھم<sup>(١)</sup>، وبعد هذا بدأ خطر المغول يلوح بالأفق على بلاد الشام ومصر.

### معركة عين جالوت

ساعدت الظروف إلى تسلّم قطز السلطة، وذلك عندما تمّ التأكد من توجّه التتار إلى بلاد الشام، وكان الملك المنصور صبيّاً لا يحسن التدبير في مثل هذه الأوضاع الصعبة، ولا بدّ من وجود ملك قوي يستطيع تدبير أمر التتار وإعلان الجهاد، فقام قطز بجمع الأعيان والأمراء، وعندما شرح للأعيان والأمراء هذا الأمر صاح الجميع «ليست لها غيرك»، فقام بخلع الملك المنصور واعتقاله مع أمّه ووضعهما بالدور السلطانية من قلعة الجبل وكان ذلك سنة (٦٥٧هـ = ١٢٥٩م)، وكان قطز قد قام بتحليف الناس لنفسه وتمّ له ذلك واستلم حكم مصر، وكانت مدّة حكم المنصور سنتين وسبعة أشهر واثنين وعشرين يوماً<sup>(٢)</sup>.

وكان سقوط الخلافة الإسلامية في بغداد على يد التتار، هزّة عنيفة هزّت العالم الإسلامي، وكان حكام المسلمين وأمراءهم في العالم الإسلامي يعملون حساباً لليوم المرتقب، لأنّهم كانوا يعلمون أنّ المغول سوف يغزّونهم، فعملوا على استرضائهم، وهكذا أسرع أهالي الحلة والكوفة وواسط في العراق إلى استقبال جند هولاءكو «وأقاموا الأفراح ابتهاجاً بقدمهم»<sup>(٣)</sup>.

ولم يكن حكام الشام أحسن حالاً منهم، حيث أرسل الملك الناصر يوسف صاحب دمشق ابنه الملك العزيز محمد إلى هولاءكو ملك التتر ومعه التحف «لعلّمه بعجزه عن ملتقى

(١) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج٧، ص٤٢.

(٢) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج٧، ص٥٢.

(٣) العصر المالكي: عاشور، ص٢٨.

التتار»<sup>(١)</sup>، ولكن هذا العمل لم ينتقد بني أيّوب، حيث توجه المغول إلى ميفارقين في ديار بكر وسيطروا عليها، وقاموا بتقطيع جسد حاكمها الكامل محمد الأيوبيّ، وحملوا رأسه على حربةٍ ليطاف بها في جميع أنحاء بلاد الشام<sup>(٢)</sup>.

أمّا أمر الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق فلم يشفع له إرسال ابنه إلى هولاءكو، بحجة أنّه أرسل ابنه ولم يحضر شخصياً فهي إهانة لهولاءكو<sup>(٣)</sup>، فقام الملك الناصر يوسف الأيوبيّ بالاستنجد بالمماليك بمصر، فوعده بالمساعدة<sup>(٤)</sup>.

ولابدّ من ذكر أثر مهم في هذا الغزو، هو أنّ زوجة هولاءكو وأمه كانتا مسيحيّتان، ووجدت بعض القوى الصليبية في الشرق الأدنى وفي الغرب الأوربي فرصةً لتحريض هولاءكو على المسلمين، وأتصل ملك أرمينيا الصغرى بهولاءكو، ورسم معه الخطة لغزو بلاد الشام والسيطرة على القدس للمسيحيين<sup>(٥)</sup>.

وبعد توجه هولاءكو إلى الشام سيطر على حرّان، وعلى البلاد الجزرية سنة (٦٥٨هـ = ١٢٦٠م)، ودخل حلب بعد قتال وعمل بها السيف والنهب<sup>(٦)</sup>، وعندما سمع باقي أمراء الشام

---

(١) المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ أبي الفداء: أبو الفداء اسماعيل بن علي (٦٧٢ - ٧٣٢هـ) =

(١٢٧٣ - ١٣٣٢م)، الناشر دار الكتاب اللبناني، بيروت، مج ٢، ج ٦، ص ١٠٢ - ١٠٣.

(٢) تاريخ أبي الفداء: أبي الفداء، مج ٢، ج ٦، ص ١١٠.

(٣) العصر المماليكي: عاشور، ص ٢٩.

(٤) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ٧، ص ٦٨.

(٥) العصر المماليكي: عاشور، ص ٣٠.

(٦) تاريخ أبي الفداء: مج ٢، ج ٦، ص ١٠٦.

ما فعله التتار بجلب بدؤوا بالاستسلام، وفر الملك الناصر يوسف من دمشق إلى غزّة<sup>(١)</sup>،  
وبعدها كان من السهل السيطرة على دمشق سنة (٦٥٨هـ = ١٢٦٠م)<sup>(٢)</sup>.

وبعد دمشق لا بدّ من التوجه إلى مصر التي كان يحكمها المظفر قطز الذي وصفه ابن  
تغري بردي بقوله: «وكان بطلاً شجاعاً مقداماً حازماً حسن التدبير يرجع إلى دين الإسلام  
وخيرّ وله اليد البيضاء في جهاد التتار فعوّض الله شبابه بالجنّة ورضى عنه»<sup>(٣)</sup>.

وكان المغول قد بعثوا الرسل بالتهديد والإنذار والاتعاظ بما حصل بالأمرء والملوك من  
قبله، ولكن ردّ المظفر قطز كان أقسى حيث أنّه جمع الأمرء وانفقوا على قتال التتار، وقتل  
الرسل، وقد كانوا خمسة، عُلق أحدهم بسوق الخيل تحت قلعة الجبل، والثاني بظاهر باب زويلة،  
والثالث بباب النصر، والرابع بالريدانية، وعُلق رؤوسهم بباب زويلة، أمّا الخامس فكان صبي  
جعل من جملة مماليكه، ونودي في القاهرة ومصر وسائر إقليم مصر بالجهاد في سبيل الله<sup>(٤)</sup>،  
وكانت الممالك البحرية الذين فرّوا إلى الشام قد انضموا إلى قطز وانفقوا على قتال التتار، وكان  
لهم دوراً بارزاً في قتال التتار، حتّى أنّ بيبرس البندقدار صفع أحد الأمرء وهو الأمير زين الدين  
الحافظي عندما حاول أضعاف عزيمة المسلمين والناصر عن قتال التتار وقال له بيبرس: «أنتم  
سبب هلاك المسلمين»<sup>(٥)</sup>، وبذلك توحدت كلمة المماليك.

وفي الوقت الذي كان فيه المسلمون مستعدين لقتال المغول بقيادة الممالك كانت  
التصدع قد أصاب التتار، حيث أنّ منكوخان خاقان المغول قد توفي سنة (٦٥٧هـ =

(١) تاريخ أبي الفداء: مج ٢، ج ٦، ص ١٠٦.

(٢) تاريخ أبي الفداء، مج ٢، ج ٦، ص ١١١.

(٣) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ٧، ص ٧٨.

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٧ - ٤٢٩.

(٥) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج ١، ق ٢، ص ٤١٩.



١٢٥٩م)، مما أثار النزاع بين أخوته على اقتسام إمبراطوريته الواسعة، مما اضطر هولاء لترك جيوشه في الشام بقيادة كتبغا والعودة إلى قراقورم حاضرهم، ومعه جزء من جيوشه<sup>(١)</sup>.

وبدأ الزحف الإسلامي بقيادة المظفر قطز، وصار الجيش حتى وصل الصالحية، وعندما تقاعس الأمراء جمعهم المظفر قطز وخاطبهم قائلاً: «يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني ومن لم يختار ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين»، فوافقه الأمراء وتابعوا الزحف<sup>(٢)</sup>، وكانت مقدمة الجيش بقيادة الأمير بيبرس البندقدارى، الذي استطاع دخول غزة مما أعاد روح الأمل لمقاومة المغول<sup>(٣)</sup>.

وقد قام المماليك بمسألة الصليبيين لكي لا يفتحوا جبهة أخرى عليهم، حيث أرسلوا إلى حكام عكا يستأذنونهم بالسماح لهم بالعبور، فوافقوا على ذلك<sup>(٤)</sup>، وبذلك أظهر المماليك حنكة عالية في أمور الحرب.

وقد سار المسلمون حتى وصلوا إلى قرية عين جالوت، وهي بين بيسان و نابلس، وقام قطز بإخفاء معظم الجيش بين الأحرش والأشجار، وترك مقدمة الجيش بقيادة بيبرس البندقدارى تقاتل وحدها، فالتقى الجيشان قرب قرية عين جالوت في سنة (٦٥٨هـ = ١٢٦٠م)، وقد تراجع جيش المسلمين، فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته عن رأسه وصرخ

(١) العصر المماليكي في مصر والشام: عاشور، ص ٣٢.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ١، ق ٢، ص ٤٢٩.

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ١، ق ٢، ص ٤٣٠.

(٤) العصر المماليكي في مصر والشام: عاشور، ص ٣٣-٣٤.

بأعلى صوته: «وا إسلاماه ثلاث مرات يا لله انصر عبدك قطز على التتار»، فرفع بتلك الصيحة من عزيمة الجند وانتصر بهذه المعركة، وقتل قائد جيش التتار كتبغا<sup>(١)</sup>.

وكانت نهاية القائد المظفر قطز على يد بيبرس البندقداري، وكان قطز قد وعده بحلب ولكنه تراجع عن ذلك، وبينما كانت مصر تجهز نفسها للاحتفال بالجيش الذي هزم التتار، وعند عودة المظفر قطز من دمشق إلى مصر، وفي الطريق عند الصالحية أراد الصيد، فخرج معه بيبرس وبعض الأمراء وكانوا قد اتفقوا على قتله، وعند الابتعاد عن الجيش طلب منه بيبرس البندقداري امرأة من السبي، فأجابه لذلك، فأمسك بيديه واجتمع الأمراء وقتلوه وحُمل إلى القاهرة<sup>(٢)</sup>، واستلم بعده الظاهر بيبرس البندقداري السلطة.

وقد كان هناك عدّة نتائج لانتصار المماليك في معركة عين جالوت:

١- إيقاف المدّ المغولي وحماية المصريين مما حلّ بمن سبقهم.

٢- إنقاذ بلاد الشام وطرد المغول منها.

٣- توحيد بلاد الشام ومصر.

٤- كان المماليك بحاجة ماسّة إلى ما يساعدهم على تثبيت حكمهم، ف جاء انتصارهم في عين جالوت فرصة سانحة لتثبيت هذا الحكم، ولتكون قلوب الناس معهم، والظهور بمظهر الحامي للبلاد الإسلامية<sup>(٣)</sup>.

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج ١، ق ٢، ص ٤٣٠ - ٤٣١. النجوم الزاهرة: ج ٧، ص ٧٢ - ٧٣.

(٢) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ٧، ص ٧٧ - ٧٨. السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئ، ج ١، ق ٢، ص ٤٣٦.

(٣) العصر المماليكي: عاشور، ص ٣٦.

وبعد تسلم الظاهر بيبرس السلطة بمصر قدم إلى مصر شخص أسود اللون مع جماعة من العرب واسمه أحمد، وقالوا إنّه ابن الإمام الظاهر بالله محمد ابن الإمام الناصر، وقد خرج من دار الخلافة ببغداد بعد دخول التتر<sup>(١)</sup>، وقد عقد الظاهر اجتماعاً، وكان من بين المجتمعين الشيخ عزّ الدين عبد العزيز بن عبد السلام، والقاضي تاج الدين عبد الوهاب بن خلف المعروف بابن بنت الأعزّ، فشهد من كان معه من العرب أنّ هذا الشخص من البيت العباسي، وعم المستعصم، وسمعت شهادتهم ولقب بالمستنصر بالله<sup>(٢)</sup>، وبذلك استطاع المماليك أن يضيفوا الطابع الشرعي على حكمهم، وقد استمرت الخلافة الإسلامية في القاهرة طول عصر المماليك، وبعد معركة الريدانية وهزيمة المماليك انتقل آخر خليفة إسلامي من البيت العباسي وهو المتوكلّ على الله (٩١٤ - ٩٢٣ هـ) = (١٥٠٨ - ١٥١٧ م) إلى القسطنطينية، وقيل أنّه أقهر على التنازل عن الخلافة للسلطان سليم الأوّل، وبذلك انتقلت الخلافة من البيت العباسي إلى آل عثمان، وكذلك قيل أنّ السلطان سليم الأوّل نفاه إلى مكان بعيد عن استانبول، وضيّق عليه الخناق<sup>(٣)</sup>، وبمعركة الريدانية انتهى حكم المماليك ليبدأ حكم العثمانيين.

---

(١) تاريخ أبي الفداء: أبي الفداء، مج ٢، ج ٦، ص ١٢١.

(٢) تاريخ أبي الفداء: أبي الفداء، مج ٢، ج ٦، ص ١٢١. النجوم الزاهرة ابن تغري بردي ج ٧، ص ١٠٧.

(٣) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي: محمود رزق سليم، الناشر: مكتبة الأداب بالجماميز، القاهرة، ط ٢ (١٣٨٠ هـ = ١٩٦٢) مج ١، ج ١، ق ٢، ص ٤٥ - ٤٧.

## ثانياً: الحياة الاقتصادية

### الزراعة

اهتمّ سلاطين المماليك بالزراعة اهتماماً كبيراً، فقاموا بالعديد من الإصلاحات لتطوير الزراعة، وتأمين حاجات الشعب، ومن هذه العناية ببناء الجسور والترع والقناطر ومقاييس للنيل، والجسور تقسم إلى قسمين:

١- الجسور السلطانية: وهي الجسور العامة والجامعة للبلاد، وهي التي تعمّر في كلّ عام، ونفقاتها على الديوان السلطاني<sup>(١)</sup>.

٢- وجسور بلدية: وهي الخاصة ببلد دون بلد، يقوم بعمارتها المقطعون بالبلاد من الأمراء والأجناد وغيرهم، ويكون بناؤها من أموال البلاد الجارية في إقطاعهم، وكذلك تُخصّص لها ضرائب خاصة بما كلّ سنة<sup>(٢)</sup>.

ومن الجسور التي بناها المماليك، الجسر الذي أقامه الظاهر برقوق على نهر الأردن، في طريق دمشق، بطول مئة وعشرين ذراعاً في عرض عشرين ذراعاً<sup>(٣)</sup>، ويقول المقرئ عن السلطان محمد: «حفر خليج الإسكندرية من بحر فوة في مدّة أربعين يوماً، عمل فيها فوق المائة ألف رجل من أهل النواحي، فاستجدّ عليه عدّة سواقي، وبساتين في أراضي كانت سباخاً، فصارت مزارع قصب السكر والسمسم، وعمّرت هناك الناصرية»، ويقول أيضاً: «واستمرّت الماء طول السنة بخليج الإسكندرية، وأنشأ الميدان تحت القلعة، وأجرى له المياه،

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشا: أحمد بن علي القلقشندي، تحقيق: نبيل خالد الخطيب، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ (١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م)، ج ٣، ص ٥١٥.

(٢) صبح الأعشى: القلقشندي، ج ٣، ص ٥١٦.

(٣) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ١١، ص ٢٣٨.

وغرس فيه النخل والأشجار»<sup>(١)</sup>، وبلغت البساتين بجزيرة الفيل أكثر من مئة وخمسين بستاناً، وذلك بعد أن كانت نحو العشرين بستاناً<sup>(٢)</sup>، وحفر الخليج الناصري خارج القاهرة حتى وصل إلى سرياقوس، فقام بتعمير عدّة قناطر على هذا الخليج، ومنها قنطرة بقمّة عند الميدان، أنشأها الفخر ناظر الجيش، وقنطرة قدادار والي القاهرة، ووسع ذلك من البساتين في تلك المنطقة<sup>(٣)</sup>.

وقام المماليك بقياس الأرض ومسحها والذي يسمّى بالروك، ولقد اشتهر في عصر المماليك الروك الحسامي، الذي قام به حسام الدين لاجين سنة (٦٩٧هـ = ١٢٩٧م)<sup>(٤)</sup>، والروك الناصري الذي أجراه الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧١٥هـ = ١٣١٥م)<sup>(٥)</sup>، وهذا المعرفة ما حصل على الأرض من تغيرات سواءً إيجابية أو سلبية، كأن تكون وسائل الري تحسنت وبذلك يزداد الخراج<sup>(٦)</sup>،

ويمكن أن نقسم الأراضي الزراعية حسب جودتها في الإنتاج:

١- الباق: وهي خير الأراضي تصلح لزراعة القمح والكتان.

٢- ري الشراقي: وهي تتبع الباق في الجودة والإنتاج، وهي تكون ظمئة في السنة ومستريحة ثمّ رويت.

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج ٢، ق ٢، ص ٣٨.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج ٢، ق ٢، ص ٥٣٩.

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج ٢، ق ٢، ص ٥٣٩.

(٤) صبح الأعشى: القلقشندي، ج ٣، ص ٥٠٠.

(٥) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج ٢، ق ١، ص ١٥٠.

(٦) العصر المماليكي: عاشور، ص ٢٨٤.

٣- البروبية أو البرايب: وهي الأرض التي تعبت من تكرار زراعة القمح والشعير، ويجب ان تستريح بزراعة غير هذه الأنواع.

٤- البقماهة: وهي التي متى زرعت بالقمح يكون إنتاجها رقيق وأسود اللون.

٥- الشتونية: وهي أثر ما روي وبار في السنة الماضية.

٦- شوشمس السلايح: وهي عبارة عما روي وبار فحرث وعطل، وهو يجري مجرى الباق وري الشراقي.

٧- البرش النقاء: وهي كل أرض خلت من أثر ما زرع فيها للسنة الماضية لا شاغل لها عن قبول ما تودعه من أصناف المزروعات.

٨- الوسخ المزروع: الأرض التي تفلح وموجود فيها الوسخ، ويطلع زرعها مختلط بالوسخ.

٩- الوسخ الغالب: وهي الأرض التي تباع مراعي للبهائم نتيجة الوسخ.

١٠- الخرس: وهو عبارة عن فساد الأرض وهي مرعى للدواب.

١١- الشراقي: وهي الأرض المرتفعة فلا تصل إليها المياه.

١٢- المستبحر: وهي أرض واطئة يدخل إليها الماء فلا يجد مصرفاً له فلا تزرع.

١٣- السباخ: وهي أرض غلب عليها الملح وهي أسوء الأرضين<sup>(١)</sup>.

وهناك ثلاث وسائل للري وهي: الشادوف، والساقية، والراحة عند طلوع النيل<sup>(١)</sup>.

---

(١) صحح الأعشى: القلقشندي، ج ٣، ص ٥١٧-٥١٩.

وكذلك يمكن تقسيم الأراضي في مصر إلى سبعة أقسام بحسب الملكية:

١- قسم خاص بالسلطان.

٢- قسم أقطع للأمراء والأجناد.

٣- قسم للأوقاف الإسلامية وجهات البرّ وذريّة الواقفين.

٤- أرض أعطيت لرجل ملكاً شخصياً مقابل قيامه بخدمة زاوية أو مسجد.

٥- قسم صار ملكاً شخصياً يباع ويشترى ويوهب.

٦- قسم للمراعي.

٧- الأراضي القاحلة.

أما في بلاد الشام فتقسم إلى أربع أقسام:

١- أراضي الخراج: وهي بقيت بيد أهلها المسيحيين مقابل العشر.

٢- أراضي الملك: وهي ملك للمسلمين يدفعون عنها الرسوم.

٣- الإقطاعات: وهي أراضي أقطعت للقادة من قبل السلاطين والأمراء، مقابل دفع عدد من

المسلمين أوقات الحروب وتجهيزهم.

---

(١) مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة: إبراهيم علي طرخان. الناشر: مكتبة النهضة المصرية، القاهرة

(١٣٧٩هـ = ١٩٦٠م)، ص ٢٣٩.

٤- أراضي الوقف: وكانت تدفع الرسوم للدولة، وهي توقف للإنفاق على المساجد والمدارس وغيرها<sup>(١)</sup>.

وأما أنواع الزراعات فهي عديدة من حبوب وبقوليات وأشجار مثمرة وذلك حسب المناخ<sup>(٢)</sup>، ولكن مع ذلك بقي الفلاح في حياة صعبة، هو يتعب والإنتاج من نصيب السلاطين والأمراء ومماليكهم وعند حدوث الأزمات المائية والزراعية يتعرض كثير من أهل القرى للموت والتشرد وترك أوطانهم، وقد قال المقرئ في ذلك: «ولا عجب فإن الغلال معظمها لأهل الدولة أو الجاه وأرباب السيوف الذين تزايدت في اللذات رغباتهم، فلما ذُهي أهل الريف بكثرة المغارم وتنوع المظالم اختلّت أحوالهم، وتمزقوا كلّ ممزق وجلوا عن أوطانهم، فقلّت مجابي البلاد ومتحصلها، لقلّة ما يزرع بها ولخلوّ أهلها ورحيلهم عنها لشدة الوطأة من الولاة عليهم وعلى من بقي منهم»<sup>(٣)</sup>، وقد كان قسم من هذه الضرائب يصرف في مشاريع الري، والمسح السنوي للأراضي الزراعية، وشق الترع، وتقديم القروض، وتوظيف المهندسين لمراقبة شبكات الري وإصلاحها<sup>(٤)</sup>.

وقد كان بمصر أنواع متعددة من الحيوانات كالبعال، والحمير، والجواميس، والماعز، والغزلان، والأرنب، وكذلك هناك أنواع كثيرة من الطيور ومنها الكركي، والإوز، والدجاج،

---

(١) تاريخ المماليك: عمار محمد النهار، الناشر: جامعة دمشق، (١٤٣٤-١٤٣٥هـ) = (٢٠١٣-٢٠١٤م)، ص ٣٠٥-٣٠٧.

(٢) جوانب من حركة التأليف التاريخي في العصر المملوكي: خليل الأحمد الحسين، أشراف: محمود زعرور، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة دمشق، (١٤٢٨-١٤٢٩هـ) = (٢٠٠٧-٢٠٠٨م)، ص ٦٠.

(٣) إغائة الأمة بكشف الغمة: المقرئ، الناشر: لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، (١٣٥٩هـ = ١٩٤٠م)، ص ٤٤.

(٤) الحياة الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي: عامر نجيب موسى ناصر، الناشر: دار الشرق، عمان، ط ١ (١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م)، ص ٢٠٢.



والحمّام، والنعام<sup>(١)</sup>، وقد عمل الناصر محمد بن قلاوون: «في القلعة حوش الغنم وحوش البقر وحوش المعزى وجاير الإوز» كما قال المقرئزي<sup>(٢)</sup>، وقد اهتمّ المماليك بإنشاء الإسطبلات التي كان أغلبها شمالي القاهرة، واهتمّوا بتربية الخيول، أمّا الأغنام فكان لها اهتمام كبير، فقد قام بتربيتها الفلاحون وخاصة في الصعيد، أمّا الأبقار فتستخدم في الأعمال الزراعية المختلفة وفي إنتاج الألبان<sup>(٣)</sup>.

### الصناعة

يقول ابن خلدون في مقدمته عن الصناعة: «إنّ الصناعات منها البسيط ومنها المركّب، والبسيط هو الذي يختصّ بالضروريات والمركّب هو الذي يكون للكماليات»<sup>(٤)</sup>، ويقول أيضاً: «وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصناعات للتأنق فيها حينئذ، واستحادة ما يطلب منها، حيث تتوفر دواعي الترف والثروة»<sup>(٥)</sup>.

ولقد ازدهرت الصناعة في عصر المماليك، وذلك يعود إلى توفّر المواد الأولية للصناعة، وكذلك الحالة المعنوية التي كان يشعر بها الصانع إذا علم أنّه سيحني ثمن أتعابه في النهاية، وكذلك المستهلك لديه القدرة على شراء متطلباته الأساسية والكمالية، وقد ساعد هذا على

---

(١) مسالك الأبصار في ممالك الأبصار: شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت ٥٧٤٩هـ = ١٣٤٨م)، تحقيق: أحمد عبد الله الشاذلي، الناشر: المجمع الثقافي، أبو ظبي (١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م)، السفر الثالث، ص ٤٢١. جوانب من حركة التأليف التاريخي: خليل الأحمد الحسين، ص ٦١.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج ٢، ق ٢، ص ٥٣٨.

(٣) الحياة الاقتصادية: ناصر، ص ٢٦٩ - ٢٧٢.

(٤) مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨هـ) = (١٣٣٢ - ١٤٠٦م)، تحقيق: خليل شحادة، الناشر: دار الفكر، ط ٢ (١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م)، ص ٥٠١.

(٥) مقدمة ابن خلدون: ص ٥٠٢.

ارتقاء الصناع وعملهم<sup>(١)</sup>، «حتى غدت مصنوعات ذلك العصر إنتاجاً فنياً رائعاً، تزدان به متاحف العالم اليوم، وتكفي الإشارة إلى الأقمشة الفاخرة المصنوعة من الحرير والصوف والكتان والقطن»<sup>(٢)</sup>.

وقد خضع جميع الصناع إلى نظام النقابات، الذي كان سائداً بين أفراد كلِّ حرفة<sup>(٣)</sup>، ومن هذه الصناعات، الصناعات النسيجية بنوعيتها: نسيج الكتان ونسيج الحرير، وقد عرفت بعض الأقمشة باسم المدينة التي تشتهر بها، مثل الثياب الشطويّة نسبة لمدينة شطا، والقماش الديقي نسبة لمدينة دبيق، واشتهرت تنيس بصناعة القماش الرقيق، الذي سمي بالقصب ومنه تتم صناعة عمائم الرجال وملابس النساء، وقماش الفستيان نسبة إلى الفسطاط، وكذلك مهرت مصر في صناعة الخيام والفساطيط، وقد اشتهر بيت المقدس بالمنسوجات القطنية والحريرية، وفي طرابلس كان ٤٠٠٠ عامل يعملون في صناعة الحرير، وقد اشتهرت مدينة صور بصناعة الثياب، وكذلك صفد التي عُرفت بثيابها الصفدية، وكذلك عُرفت مدينة صفد بصناعة الحصر، أما دمشق فعُرفت بالصناعات القطنية، وظهرت صناعة الثياب القطنية في سمرين وحلب وبعليك<sup>(٤)</sup>.

---

(١) تاريخ المماليك: عمار النهار، ص ٣٣٦.

(٢) الأيوبيون والمماليك في مصر والشام: سعيد عبد الفتاح عاشور، الناشر دار النهضة العربية، القاهرة، (١٤١٦هـ = ١٩٩٦م)، ص ٣١٢.

(٣) المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك: سعيد عبد الفتاح عاشور، الناشر: دار النهضة العربية، القاهرة (١٤١٢هـ = ١٩٩٢م)، ص ٤٣.

(٤) تاريخ المماليك: عمار النهار، ص ٣٣٨. العصر المماليكي: عاشور ص ٢٩١ - ٢٩٢.

ومن الصناعات المعروفة آنذاك صناعة السفن، التي احتلت مكانة بارزة في النشاط الصناعي، واهتمّ المماليك بصناعة السفن لحماية السواحل في مصر والشام، فأقام الظاهر بيبرس داراً لصناعة السفن في الروضة والإسكندرية ودمياط، وكان هناك سوق للسلاح<sup>(١)</sup>.

وانتشرت صناعة تكفيت البرونز والنحاس بالذهب والفضة<sup>(٢)</sup>، وكانت صناعة النحاس المكفت أكثر شهرةً، ويقول المقريري في ذلك: «فلا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدّة قطع نحاس مكفت»<sup>(٣)</sup>، واشتهرت صناعة الزجاج، وقد وصلت هذه الصناعة إلى أوج أزدهارها بين القرنين السادس والتاسع للهجرة = الثاني عشر والخامس عشر للميلاد في مصر والشام<sup>(٤)</sup>، وكذلك عرفت صناعة الأواني والصناعات الخشبية من أبواب والدكك والمشربيات<sup>(٥)</sup>.

وكذلك عرفوا صناعة الأغذية، ومنها الصناعات الحيوانية والنباتية، ومن الصناعات الحيوانية معامل لحضانة الدجاج وتسريع إنتاج البيض، وإنتاج الفراريج، وكذلك صناعة الأجبان والألبان والعسل<sup>(٦)</sup>، واشتهرت مصر والشام في صناعة السكر، حيث كان يوجد في سمهود من مصر سبعة عشر مركزاً لعصر القصب<sup>(٧)</sup>، وقد استخدم في صناعة الحلويات، وكانت له أسواق مثل سوق الحلاويين<sup>(٨)</sup>.

---

(١) العصر المماليكي: عاشور، ص ٢٨٩ - ٢٩١.

(٢) الأيوبيين والمماليك في مصر والشام: عاشور، ص ٢١٣.

(٣) خطط المقريري: المقريري، مج ٣، ص ٣٤٧.

(٤) تاريخ المماليك: عمار النهار، ص ٣٣٩.

(٥) الأيوبيين والمماليك في مصر والشام: عاشور، ص ٣١٣.

(٦) تاريخ المماليك: عمار النهار، ص ٣٤٢.

(٧) تاريخ المماليك: عمار النهار، ص ٣٤٢.

(٨) خطط المقريري: المقريري، مج ٣، ص ٣٣٠.

ووجد في دمشق وصور مطابخ للسكر استمرت حتى أواخر العصر المملوكي<sup>(١)</sup>، وفي دمشق صناعات أخرى مثل صناعة قمر الدين من المشمش وتجفيف التين والعنب والمشمش، وصناعة المربيات.. إلخ، وعرف بيت المقدس بصناعة زيت الزيتون والصابون<sup>(٢)</sup>.

### التجارة الداخلية

نشطت القوافل في مصر من ناحية وفي دمشق وحلب والقدس وغزة من ناحية أخرى، ولقد اشتهرت المدن الكبرى في مصر والشام بأسواقها الحافلة بالبضائع<sup>(٣)</sup>، ويشهد على ذلك قول ابن بطوطة الذي زار الديار المصرية: «والأسواق متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مصر، ومن مصر إلى مدينة أسوان من الصعيد»<sup>(٤)</sup>، ولقد ذكر المقرئ الكثير من الأسواق في مصر، ومنها سوق الشماعين وسوق الصنادقيين وسوق الكتبيين... إلخ<sup>(٥)</sup>، وكذلك انتشرت الأسواق في إخميم وفي مدينة أسنا<sup>(٦)</sup>.

وقد ذكر ابن شداد في دمشق أكثر من مئة سوق داخل دمشق وخارجها ومنها: سوق البزورين وسوق الخواصين، وهم صانعو السلاسل، وسوق الصرف ومعظم أصحابه من اليهود

(١) تاريخ المماليك: عمار النهار، ص ٣٤٢.

(٢) تاريخ المماليك: عمار النهار، ص ٣٤٢.

(٣) الأيوبيين والمماليك في مصر والشام، عاشور، ص ٣١٥.

(٤) رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار: شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، تحقيق: عبد الهادي التازي، الناشر: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية

(٥١٧هـ = ١٩٩٧م)، مج ١، ص ٢٠١.

(٥) خطط المقرئ: مج ٣، ص ٣١٥ - ٣٥٤.

(٦) الانتصار لواسطة عقد الأمصار: إبراهيم بن محمد بن أيدير العلائي الشهير بأبن دقماق، الناشر: المكتبة التجارية، بيروت، ج ٥، ص ٢٥ - ٣٤.

وغيرها الكثير<sup>(١)</sup>، وكذلك وجدت الأسواق في القدس ومنها سوق العطارين، وسوق الخضر... إلخ<sup>(٢)</sup>، وقد كانت هذه الأسواق تزاقب للنظر في المكاييل والموازين وسائر المقادير والتحذير من الغش في الطعام والشراب، وأن تعرف الأسعار وغيرها من أمور المراقبة، للحفاظ على النظام بهذه الأسواق وعدم الاستغلال، وهو ما يعرف بنظام الحسبة<sup>(٣)</sup>، وقد كان لكل سوق شيخ يكون صلة الوصل بين التجار والحكام<sup>(٤)</sup>.

لكن هذه الحالة القوية من التجارة الداخلية كانت تشوبها في بعض الأوقات بعض الأمور التي تعكّرها، مثل إذا أصاب الزراعة والصناعة أيّ أمر يضرّ بهنّ يُعكس على التجارة لأنّها تقوم عليهما، وكذلك ما تقوم به السلطة، مثل طرح كميات كبيرة من البضائع على التجار أو العامة بأسعار مضاعفة، وكذلك عدم تقيد التجار بالأسعار المحددة<sup>(٥)</sup>.

## التجارة الخارجية

هناك عدة عوامل ساعدت على نشاط التجارة الخارجية أهمّها:

---

(١) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي (ت ٦٦٥هـ=١٢٦٧م)، تحقيق: إبراهيم الزبيق، الناشر: مؤسسة الرسالة، (١٤١٨هـ = ١٩٩٧م)، بيروت، مج ١، ص ٦٦ - ٧٥، تاريخ المماليك: عمار النهار، ص ٣٤٩.

(٢) تاريخ المماليك، عمار النهار، ص ٣٤٩.

(٣) صبح الأعشى: مج ١١، ص ٩٦.

(٤) تاريخ المكتبات، عمار النهار، ص ٣٤٩.

(٥) تاريخ المكتبات، عمار النهار، ص ٣٥٣ - ٣٥٤.

١- قطع طرق التجارة بين المشرق والمغرب منذ القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، بسبب حركة التتار التوسعية<sup>(١)</sup>.

٢- الموقع الجغرافي الممتاز لبلاد الشام ومصر بين دول العالم القديم، وامتلاك المماليك سواحل واسعة في البحر المتوسط والبحر الأحمر<sup>(٢)</sup>.

٣- تنشيط التجارة وتأمين مسالكها، وإنشاء المؤسسات اللازمة للتجارة والتجارة، كالفنادق والخانات والوكالات والقياسر والأسواق وغيرها<sup>(٣)</sup>.

٤- حرص المماليك على التودد إلى قوى البحر الأحمر من ناحية، وإلى التجار الأوربيين وغير الأوربيين ممن يعمل بالتجارة من ناحية أخرى، مثل ما قام به السلطان محمد بن قلاوون مع الملك يوسف بن عمر ملك اليمن حيث قام بمسالمته ومعاهدته على التحالف والمودة<sup>(٤)</sup>.

٥- عقد الكثير من المعاهدات والاتفاقيات التجارية، لتسهيل وتيسير عملية التجارة، ومن أهم هذه الاتفاقيات الاتفاقيات التي حصلت بين بيزنطة والملك المنصور سنة (٦٨٠هـ = ١٢٨١م)، والاتفاق مع إمارة طرابلس سنة (٦٨٠هـ = ١٢٨١م)<sup>(٥)</sup>.

---

(١) الأيوبيين والمماليك في مصر والشام، عاشور، ص ٣١٣. السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئ، ج ٤، ق ١، ص ٢٦.

(٢) تاريخ المماليك: النهار، ص ٣٥٨ - ٣٥٩.

(٣) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٣، ص ٢٨٦ - ٣٥٤. الأيوبيين والمماليك في مصر والشام: عاشور، ص ٣١٤.

(٤) الأيوبيين والمماليك في مصر والشام: عاشور، ص ٣١٤. تاريخ المماليك: عمار النهار، ص ٣٦٠.

(٥) تاريخ ابن الفرت: قاصد الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات، تحقيق: قسطنطين زريق، الناشر: المطبعة الأمريكية، بيروت ( ١٣٦١هـ = ١٩٤٢م)، مج ٧، ص ٢٠٥ - ٢٢٩ - ٢٣٠.

ولكن مع هذا ساءت الأوضاع التجارية في بعض الفترات، نتيجة الأوضاع السياسية، حيث أنّ العلاقات ساءت جداً بين السلطان الأشرف خليل والبندقية بعد تحرير عكا، وذلك لأنها فقدت أحياءها وامتيازاتها التجارية، التي كانت تتمتع بها من بين المدن الصليبية طوال قرنين من الزمن، وقام كلّ طرف بأسر التجار الذين عنده من البلد الآخر، ومما زاد الأمر سوءاً هو مرسوم البابا نقولا الرابع الذي هدد فيه بالحرمان الكنسي لكلّ من يتاجر مع المسلمين وخاصة المماليك، ولكن سرعان ما رفض البنادقة هذا المرسوم، وعقدوا اتفاق مع السلطان الأشرف<sup>(١)</sup>.

ولم يقتصر دور مصر والشام على كونهما محطتين للسلع والمتاجرة بين الشرق والغرب، أمّا شاركتنا في عملية التجارة من بيع وشراء، فمن صادراتهما الشبّ والسكر والنطرون والبلسم والقطن والزجاج والمنسوجات القطنية والكتانية والبخور والحديد والعمّور والفلفل والتوابل وغير ذلك<sup>(٢)</sup>.

وأما الواردات فكانت الأجواخ والفراء الفاخر والنحاس والفضّة والقصدير والرصاص والذهب والحلي وطيور الصيد والمرجان والكستاء والخشب<sup>(٣)</sup>.

وكان من الطبيعي أن تفرض السلطة المملوكية مكوساً يختلف باختلاف الظروف والأحوال، ومن ثمّ تختم هذه البضائع بأختامٍ للاستدلال على أنّها دفعت المكس<sup>(٤)</sup>، وقد كان التجار يخضعون لإشراف المحتسب، لمراقبة عملهم والتزامهم بالوصايا الموكلة إليهم، وكيفية

---

(١) العلاقات الاقتصادية بين المشرق والغرب في العصور الوسطى: عادل زيتون، الناشر، دار دمشق للطباعة والنشر، دمشق، ط ١ (١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م)، ص ١٧٨ - ١٩٨.

(٢) العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب: عادل زيتون، ص ١٨٨. تاريخ المماليك، النهار، ص ٣٧٠.

(٣) جوانب من حركة التأليف التاريخي: خليل الأحمد الحسين، ص ٦٥.

(٤) العصر المماليكي: عاشور، ص ٣٠٥.

معاملتهم مع الناس، والنظر في الأقوات والأطعمة والكشف عما يقع فيها من غش<sup>(١)</sup>، ولكن سرعان ما دفع سلاطين المماليك الجراكسة إلى اتباع سياسة احتكارية، فقاموا باحتكار تجارة التوابل والبخور، حتى أنه وصل سعره أضعاف ثمنه في موطنه الأصلي<sup>(٢)</sup>، وقد بلغ أوج هذا الاحتكار في عهد السلطان الأشرف برسباي (٨٢٥ - ٨٤١هـ) = (١٤٢٢ - ١٤٣٨ م) حيث يقول المقرئزي سنة (٨٣٩هـ = ١٤٣٥ م) عن الأشرف برسباي: «طرح على التجار بالقاهرة ودمشق ألف حمل فلفل بمائة ألف دينار، حساباً عن كلِّ حمل مائة دينار، نزل بهم منها بلاء لا يوصف»<sup>(٣)</sup>.

### موارد ونفقات الدولة

لقد أنشئ في عصر المماليك ديوان النظر، الذي كان من مهامه المحافظة على الموازنة بين موارد الدولة ونفقاتها، وذلك حسب مصلحة البلاد العامة<sup>(٤)</sup>، وقد قسّمها القلقشندي إلى موارد شرعية (دورية)، وموارد غير شرعية (غير دورية) وأما الموارد الشرعية فهي:

- ١- الخراج أو ضريبة الأرض: وهي التي تفرض سنوياً على الأرض المزروعة، ويكون المقدار بحسب نوع الزراعة وكمية الإنتاج.

٢- المعادن الثمينة: وهي ثلاثة معادن أساسية: الزمرد والشبّ والنطرون.

---

(١) مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة: إبراهيم علي طرخان، الناشر: مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (١٣٧٩هـ = ١٩٦٠ م)، ص ٢٧٣.

(٢) الأيوبيين والمماليك في مصر والشام: عاشور، ص ٣١٥.

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج ٤، ق ٢، ص ٨٦٩.

(٤) تاريخ المماليك: عمار النهار، ص ٣٧٢.



٣- الزكاة: وهي ما يفرض على المسلمين، وهي تدفع إلى الإمام أو نائبه ويصح أن يفرّقها بنفسه، وكذلك كانت تفرض على بضاعة التجار وعلى المواشي.

٤- الجوالي أي الجزية: وهي على أهل الذمة، وتقسّم إلى قسمين، القسم الأوّل حاضر الديار المصرية من الفسطاط والقاهرة، والقسم الثاني ما هو خارج ذلك، ولم تكن موحدة بل حسب قدرة الشخص المادّية.

٥- العشور: وهي المفروضة على التجار غير المسلمين، وتكون النسبة العشر من قيمة البضائع.

٦- الموارث الحشرية أو ما يسمى بالتركات: وهي أنّ بيت المال يرث من توفي ولا وارث له.

٧- ما يؤخذ من دور الضرب: وهي تكون على الدينار الذهبية والدرهم الفضية والفلوس النحاسية<sup>(١)</sup>.

أمّا الموارد غير الشرعية التي تعرف بالمكوس، فيقول عنها المقرّبي: «عدة أبواب، كلها أحدثها ولاية السوء شيئاً بعد شيء»، وقد سماها بالهلالي<sup>(٢)</sup>، وهي الرسوم الجمركية التي كانت تُحصّل على البضائع الواردة على موانئ مصر، وفرضت أيضاً على الملاهي والأسواق وغير ذلك، وكانت تؤخذ من تجار التوابل في البحر الأحمر من جهة الحجاز واليمن وما إليهما<sup>(٣)</sup>.

(١) صبح الأعشى: القلقشندي، ج ٣، ص ٥١٩ - ٥٣٣.

(٢) خطط المقرّبي: المقرّبي، مج ١، ص ٢٧٨.

(٣) تاريخ الممالك: عمار النهار، ص ٣٧٤.

وقد ذكر المقرئزي أكثر من سبعين نوعاً من المكوس<sup>(١)</sup>، وقد فرضت المكوس على ما تنتجه الغوطة من الحبوب والتين، وكذلك على مصانع الورق والمدابغ ومعامل الصابون، وعلى الطواحين والدور والحمامات والحوانيت والأفران والفنادق<sup>(٢)</sup>.

وبما أنّ هذه المكوس لم تكن تخضع لقواعد محددة، فكانت خاضعة للأوضاع الاقتصادية والسياسية وجشع بعض السلاطين، ويمكن أن نقسمها إلى مكوس دائمة ويكون جمعها سنوياً، ومكوس مؤقتة ويكون جمعها في ظروف معينة<sup>(٣)</sup>، وللتخفيف عن السكان قام بعض السلاطين بإلغاء العديد من الموارد غير الشرعية، مثلما فعل الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧١٥هـ = ١٣١٥م) حيث يقول ابن حبيب: «بإبطال جملة عظيمة من الأموال المنسوبة إلى المكوس»<sup>(٤)</sup>، وكذلك يضاف إلى هذين الموردين، ما كانت تجنيه الدولة من عملية التجارة كما ذكرنا.

ومن الطبيعي أن تصرف هذه الأرزاق على موظفي الدولة والولاة والوزراء ونظار الدواوين والجند ونواب الأقاليم، وإنشاء المؤسسات التعليمية والقصور والقلاع وما يتطلبه من إصلاحات على كافة الجوانب... إلخ، وكذلك يصرف من هذه الثروة على الجيش وتدريبه وتزويده بالمعدات الحربية المختلفة، وصناعة السفن الحربية، وكذلك يصرف منها على بلاط السلاطين والاحتفالات، وفي شراء الخيول والحواري... إلخ<sup>(٥)</sup>.

---

(١) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ١، ص ٢٧٨ - ٢٨٣.

(٢) تاريخ الممالك: عمار النهار، ص ٣٧٤.

(٣) الحياة الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي: عامر نجيب موسى ناصر، ص ٣٠٩ - ٣١٠.

(٤) تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه: الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب (ت ٧٧٩هـ = ١٣٧٧م)،

تحقيق: محمد محمد أمين، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م)، ج ٢، ص ٦٩.

(٥) تاريخ الممالك: عمار النهار، ص ٣٧٥.

## ثالثاً: الحياة الاجتماعية

لقد ظهرت آثار النظم الإقطاعية الغربية في عصر المماليك، الذي قدم من الغرب (غرب أوروبا) إلى الشرق عن طريق الحروب الصليبية<sup>(١)</sup>، وهذا يدل على تقسيم المجتمع حيث يذكر ابن فضل الله العمري بأن المجتمع قد قسّم في عصر المماليك إلى خمسة فئات.

الفئة الأولى: المماليك الذين يشكلون رأس الهرم الاجتماعي ويلقبون «أرباب السيوف»، كإمرة سلاح والداودارية والحجوبية وإمرة جاندار والإستادارية والمهمندارية ونقابة الجيوش والولاية.

الفئة الثانية: وهي فئة كبار الموظفين في الدولة «أرباب الأقلام»، كالوزارة وكتابة السرّ ونظر الجيوش ونظر الأموال ونظر الخزانة ونظر البيوت ونظر بيت المال ونظر الاسطبلات.

الفئة الثالثة: وهي فئة العلماء وهم القضاة والخطباء، ومنصب الحسبة ووكالة بيت المال. الفئة الرابعة: وهي فئة التجّار.

الفئة الخامسة والأخيرة: وهي التي تقع في أسفل الهرم الاجتماعي من فئة سائر الناس، أو ما يسمى بالعامّة<sup>(٢)</sup>.

أمّا المقرئزي فقد قام بتقسيم المجتمع إلى سبعة أقسام وهي:

١- أهل الدول. ٢- أهل اليسار: من التجار وأولي النعمة. ٣- أصحاب البر: وهم الباعة ومتوسطوا الحال من التجار، ويلحق بهم أصحاب المعاش وهم السوقة. ٤- أهل الفلح:

(١) المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك: سعيد عبد الفتاح عاشوره، الناشر: دار النهضة العربية، ط٢ (١٤١٢هـ = ١٩٩٢م)، ص ١٠.

(٢) مسالك الأبصار في ممالك الأبصار: ابن فضل الله العمري، السفر الثالث، ص ٤٤٤-٤٥٨.

أي سكان القرى والريف. ٥- الفقراء: وهم الفقراء وطلاب العلم. ٦- أرباب الصنائع والأجراء. ٧- ذوي الحاجة والمسكنة.

ويبدو أنّ المقرئ قد غفل عن أرباب الوظائف الديوانية من المسلمين والذميين، كما أنّه غفل عن الأعراب، ولعلّه أدمج الأعراب في أهل الفلح، كما أدمج أرباب الوظائف الديوانية في مختلف الطبقات التي عاشوا فيها<sup>(١)</sup>.

أمّا ابن خلدون فيقسم المجتمع إلى قسمين فيقول: «إنّما هو سلطان ورعية»<sup>(٢)</sup>، أي قسم المجتمع إلى قسمين ١- السادة المماليك: أي الطبقة الحاكمة، ٢- باقي الشعب.

وقسم إيرامارفين لايبندوس المجتمع في عصر المماليك بما يوافق قول ابن خلدون، إنّما أضاف فئة ثالثة بين الفئتين المذكورتين، وهي فئة الأعيان<sup>(٣)</sup>.

وقد قسم الدكتور سعيد عاشور المجتمع إلى تسع فئات:

الفئة الأولى المماليك: وقد ذكرنا سابقاً عن أصولهم، وهم الطبقة العسكرية التي سيطرت على البلاد، ولهم حياة خاصّة في طريقة تربيتهم، وأسلوبهم الخاصّ في الحياة، وعدم اختلاطهم بأهالي البلد، فقد كانوا معزولين عن المحيط الذي يعيشون فيه<sup>(٤)</sup>، ويقول المقرئ: «وكانت العادة أنّه إذا أمر السلطان أحداً من أمراء مصر والشام فإنّه ينزل من قلعة الجبل وعليه التشريف والشربوش وتوقد له القاهرة، فيمرّ إلى المدرسة الصالحية بين القصرين، وعمل ذلك من

(١) إغاثة الأمة: المقرئ. ص ٧٣-٧٥.

(٢) مقدمة ابن خلدون: ص ٢٠٧.

(٣) مدن الشام في العصر المملوكي: إيرامارفين لايبندوس، ترجمة: سهيل زكار، الناشر، دار حسان، دمشق، ط ١ (١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م) ص ١٣٤.

(٤) المجتمع المصري: عاشور، ص ١٦.

عهد سلطنة المعزّ أليك ومن بعده»<sup>(١)</sup>، وهذا مثال على استكبارهم في هذا المجتمع، وكذلك لم يكونوا يتزوجون من المجتمع الذين يعيشون فيه، بل اختاروا زوجاتهم وجواربهم من بنات جنسهم اللّاتي جلبهنّ التجّار<sup>(٢)</sup>، ورسم السلاطين للقضاة والشهود أن لا يعقد أحد منهم قران مملوك من ممالك السلطان إلّا بإذنه<sup>(٣)</sup>.

ولكن هناك حالات شدّت عن هذه القاعدة، مثلما حدث في أيام الظاهر برقوق، وذلك عندما سمح للمماليك أن يسكنوا القاهرة «فنزلوا من الطباق من القلعة ونكحوا نساء أهل المدينة، وأخلدوا إلى البطالة، ونسوا تلك العوايد»<sup>(٤)</sup>، فعلى هذا الأساس كانت حياة هذه الطبقة الحاكمة.

الفئة الثانية المعمّون: وهم من أرباب الوظائف الديوانية والفقهاء والعلماء والأدباء والكتاب، كما أنّه يطلق عليهم أرباب الأقاليم تمييزاً لهم عن غيرهم من الطوائف<sup>(٥)</sup>، وقد كانت لأهل العلم مكانة خاصّة عند سلاطين المماليك، بما أنّهم يساعدونهم على تثبيت حكمهم، حيث يذكر العيني أنّ من الأمور التي برّرت استحقاق الملك المؤيد السلطة: «الفضل والكرم والإحسان إلى أهل العلم»<sup>(٦)</sup>، ومن مظاهر الاحترام لأهل العلم عند دخول ابن سيّد الناس على المنصور لاجين، لم يدعه يقبل الأرض وقد قال له: «أهل العلم منزّهون عن هذا»، وقام

---

(١) خطط المقرئزي: المقرئزي مج ٤، ج ٢، ص ٥٢٠.

(٢) المجتمع المصري: عاشور، ص ٢٨.

(٣) المجتمع المصري: عاشور، ص ٢٩.

(٤) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٣، ص ٦٩٣.

(٥) المجتمع المصري: عاشور، ص ٣٥.

(٦) السيف المهند في سيرة الملك المؤيد «شيخ الحمودي»، بدر الدين العيني، تحقيق، فهيم محمد شلتوت،

الناشر: دار الكتب العربية، القاهرة (١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م) ص ٢٦٥.

بإجلالسه عنده<sup>(١)</sup>، وقد بالغ بعضهم حيث إنّ لاجين نزل عن سرير الملك ليقبل يد الإمام محمد بن علي المنفلوطي<sup>(٢)</sup>، وكذلك نال العلماء والقضاة وغيرهم في المجتمع الاحترام والاكرام<sup>(٣)</sup>.

الفئة الثالثة التجّار: لقد شهدت التجارة في عصر المماليك ازدهاراً كبيراً بين الشرق والغرب، مما أدى إلى ثراء التجّار، وقد كانوا يمدّون الدولة بالمال، وخاصّة ساعات الحرج والشدّة، ولذلك عمد السلاطين إلى تقريبهم<sup>(٤)</sup>، ولقد تمتّعوا باحترام كبير حتّى كان يقال للشخص إذا أرادوا مدحه أنّه «من بيت تجارة ووجاهة»<sup>(٥)</sup>، وقد عمل الكثير منهم في القضاة كما سيظهر معنا لاحقاً.

وكثرة الأموال بيدهم جعلتهم عرضةً لمطامع سلاطين المماليك، حيث غالوا في فرض الضرائب والرسوم حتّى أنّهم سنة (٨٢٦هـ = ١٤٢٣م): «أخذوا يدعون الله على أنفسهم أن يغرقهم ولا يحييهم حتّى يأخذوا هذه الأبقار ليستريحوا مما هم فيه من الغرامات والخسارات وتحكم الظلمة فيهم بالضرب والسب والإهانة»<sup>(٦)</sup>.

الفئة الرابعة وهي فئة الصنّاع وأرباب الوظائف: وقد كانت مشكلة على طريق النقابات التي تسير أمرها، وقد كان لكلّ حرفة نظاماً ونقابة خاصّة بها، تحدّد عددهم ومعاملاتهم فيما

---

(١) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ٨، ص ٨٨.

(٢) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ = ١٤٤٨م)، تحقيق: محمد سيد جار الحق، الناشر: مطبعة المدني، ج ٤، ص ٢١٢.

(٣) المجتمع المصري: عاشور، ص ٣٧.

(٤) المجتمع المصري: عاشور، ص ٤١.

(٥) الضوء اللامع: السخاوي، الناشر: دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ج ١٠، ص ١٤.

(٦) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج ٤، ق ٢، ص ٦٣٨.

بينهم وكذلك بينهم وبين غيرهم، وقد كان لهم شيخ يرأسهم، لحل المشاكل بينهم، يرجعون إليه في كل ما يهمهم وخاصة في الوساطة بينهم وبين الحكومة، وقد كانوا لا يدرّون أحداً إلا أن يكون من أبنائهم، للحفاظ على مهنتهم من المنافسة، وكذلك لا يقبلون أي شخصٍ بمشاركتهم إلا أن يكون قد أتى ليحلّ محلّ أحدهم، وفي هذه الحالة يُقبل بشروطٍ خاصة<sup>(١)</sup>.

والفئة الخامسة وهي الباعة والسوقة والسقائين والمعدمين أو أشباه المعدمين: وهم المعروفون بالعوام<sup>(٢)</sup>، وكذلك تنضم إليهم ما يسمى «بأوباش العامة»<sup>(٣)</sup>، وكانوا قد عاشوا في ضيق كبير، حتّى أنّهم يهيمون وأجسادهم شبه عارية، وقد دفعهم الجوع والضيق والعريّ إلى النهب والسلب، وخطف كلّ ما تصل إليه أياديهم، وقد حاول بعض السلاطين والأمراء جذبهم إلى صفوفهم في بعض الأحيان وخاصة أيام الفتن<sup>(٤)</sup>، وقد جعل سلاطين المماليك للفقراء نصيباً من ثروتهم، مثل ما فعل الظاهر بيبرس، ويقول المقرئزي عنه: «وله عدّة أوقاف بمصر منها وقف الطرحاء لتغسيل فقراء المسلمين وتكفينهم ودفنهم وهو من أكثر الأوقاف نفعا»<sup>(٥)</sup>.

والفئة السادسة هي أهل الذمة: وقد كانت بأعدادٍ كبيرة، حيث أنّ عددهم بلغ في القاهرة عشرين ألفاً، نصفهم من الأقباط، والآخر من اليهود<sup>(٦)</sup>، وهي ذات أهمية في المجتمع، وقد احتفظت الكنيسة القبطية بطقوسها القديمة، كما اهتم القبط لا سيّما في الصعيد بالمحافظة

---

(١) المجتمع المصري: عاشور، ص ٤٣.

(٢) المجتمع المصري: عاشور، ص ٤٤.

(٣) السلوك لمعرفة: المقرئزي، ج ٢، ق ٣، ص ٦٤٩.

(٤) المجتمع المصري: عاشور، ص ٤٥.

(٥) السلوك لمعرفة: المقرئزي، ج ١، ق ٢، ص ٦٢٨.

(٦) المجتمع المصري: عاشور، ص ٤٧.

الشديدة على عوائدهم، وحرصوا على استخدام اللغة القبطية في محادثاتهم فيما بينهم<sup>(١)</sup>، وقد تمتعت بطرقية الأقباط بثروة عظيمة<sup>(٢)</sup>.

أما اليهود فقد كانوا يشتغلون بمختلف الأعمال لا سيما التجارة، خاصة أن اتساع التجارة في عهد المماليك وخاصة في مصر أدّى إلى توجّه اليهود إلى مصر، وقد أصبحت لهم سيطرة خطيرة على النشاط المصرفي والأعمال الماليّة<sup>(٣)</sup>، واحتفظوا في مصر بمعابدهم التي ذكرها المقرئزي<sup>(٤)</sup>، وقد تولى زعامتهم رئيس أو حاخام، أشرف على طوائفهم الثلاث الريانيين والسامريين والقرائيين، وقد كانت له نفوذ ديني وقضائي كبير لحل المشاكل بينهم<sup>(٥)</sup>.

وكان أهل الذمّة يمارسون حياتهم بشكلٍ طبيعي، ولكن في بعض الفترات يتعرّضون للاضطهاد وهدم بعض كنائسهم وأديرتهم، وحلّ الأوقاف المحبوسة عليها أو تحويل بعضها إلى جوامع وغيرها، ومنعهم من ركوب الخيل والسماح لهم بركوب الحمير، على أن تكون قيمة الحمار أقل من مائة درهم<sup>(٦)</sup>، مثلما حدث سنة (٧٨٣هـ = ١٣٨٠م) حيث يقول ابن حجر: «ألزمت أهل الذمة بركوب الحمير بغير إرسال الرجل ووضع الخواتيم في أعناقهم لتمييزوا عن المسلمين في الحمام، وكلّ ذلك بدمشق»<sup>(٧)</sup>.

(١) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٤، ج ٢، ص ٨٣.

(٢) المجتمع المصري: عاشور، ص ٤٨.

(٣) المجتمع المصري: عاشور، ص ٤٨.

(٤) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٤، ج ٢، ص ٩٢٢ - ٩٤١.

(٥) المجتمع المصري: عاشور، ص ٤٩.

(٦) جوانب من حركة التأليف التاريخي في العصر المملوكي: خليل الأحمر الحسين، ص ٥٤.

(٧) إنباء الغمر بأبناء العمر: ابن حجر، تحقيق: محمد أحمد دهمان، الناشر: مكتبة الدراسات الإسلامية، دمشق

(٨) ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م) تحقيق: عدة محققين، مج ١، ص ٢٥٢.



الفئة السابعة وهم الفلاحون: يقول ابن خلدون عنهم: «إن الفلاحة من معاش المستضعفين وأهل العافية من البدو، وذلك لأنه أصيل في الطبيعة وبسيط في منحاه ولذلك لا تجده ينتحله أحد من أهل الحضرة في الغالب ولا من المترفين، ويختصّ منتحله بالمدلّة»<sup>(١)</sup>، وهم موصوفون بالجهل والتأخر وخشونة الطبع وقذارة المظهر، وقد كان ينظر لهم بالنظرة الناقصة والرذيلة، ويقول المقرئ عن الفلاحين عندما تحدّث عن الأمير أيدير الشمسي: «ولم يجروا أحد من الفلاحين بالغبية والشرقية في أيامه أن يلبس مئزراً أسود، ولا يركب فرساً ولا يتقلّد سيفاً، ولا يحمل عصاً محليّة بحديد»<sup>(٢)</sup>.

وهكذا عاش الفلاح في عهد المماليك مربوطاً بأرضه التي يقوم بفلاحها ويفني حياته في زراعتها لجني ثمراتها مقابل القليل من ثمارها، وذلك لأنّ خيرات الأرض ظلت موزعة بين السلاطين والأمراء ومماليكهم وأوقافهم، وذلك بالإضافة إلى الضرائب التي كانت مفروضة عليهم<sup>(٣)</sup>، ويمكن تلخيص حياتهم بما قاله المقرئ: «إنّ الفلاحين في حال من المغارم معروفة»<sup>(٤)</sup>.

الفئة الثامنة الأعراب: وقد أحصى القلقشندي قبائلهم، كما ذكر أصولهم وأماكن تواجدهم، حيث أتهم انتشروا بالوجه البحري والوجه القبلي<sup>(٥)</sup>، وقد قاموا بمعارضة حكم المماليك حتّى أتهم قالوا: «نحن أصحاب البلاد ونحن أحقّ بالملك من المماليك وكفى أنّنا

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ابن خلدون، ص ٤٣٩.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئ، ج ١، ق ٣، ص ٩٤٦.

(٣) المجتمع المصري: عاشور، ٥٧ - ٥٨.

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئ، ج ٤، ق ٢، ص ٦٦٣.

(٥) صحح الأعشى: القلقشندي، ج ٤، ص ٦٨.

خدمنا بني أيّوب وهم خوارج خرجوا على البلاد»<sup>(١)</sup>، وقد كتبوا للملك الناصر صاحب دمشق يستحثّونه للقدوم إلى مصر، واختاروا شخص وهو الأمير حصن الدين بن ثعلب ليكون قائدهم، ولكنّ المماليك هزموهم<sup>(٢)</sup>، واستمرّوا في إثارة الشغب في عهد المماليك، وكذلك قطع الطرقات، واستمرّ هذا الصدام بينهم وبين المماليك بشكل متقطع حتّى نهاية عصر المماليك<sup>(٣)</sup>، وقد وصل كثيراً من مشايخهم إلى درجة كبيرة من الثراء، حتّى أنّ السلطان الظاهر بيبرس عندما قبض على مقدم بن شماس البدوي أحد عربان الصعيد سنة (٧١٣هـ = ١٣١٢م)، «وجد له ثمانين ولداً فيهم من تكهل وأقلهم من قارب البلوغ ووجد له أربعمائة جارية إلى غير ذلك من العبيد والبهائم فسجنه بقلعة الجبل»<sup>(٤)</sup>.

والفئة التاسعة الأقليات الأجنبية: وهم الأجانب المسيحيون الغربيون أو اللاتين، والمسيحيون الشرقيون أو الروم، فضلاً عن المسيحيين الوافدين من جورجيا والحبشة وأرمينية وغيرها من البلاد<sup>(٥)</sup>، وقد كان لكلّ جالية منهم قنصل يشرف على شؤون أفراد الجالية ومصالحها الاقتصادية، «وإذا حدث من طائفة أحدهم ما يشين في الإسلام يُطلب منه»<sup>(٦)</sup>، وقد فضّل الأوربيّون أن يستقروا في المدن التجارية، والثغور على شاطئ البحر المتوسط مثل الإسكندرية ودمياط<sup>(٧)</sup>، وقد اتّخذت كلّ جالية لنفسها فندقاً أو أكثر لينزل بها أفرادها، وقد سمحت لهم السلطات المملوكية بإحضار الخمر إلى فنادقهم، وكذلك لم يسمح لهم داخل

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج ١، ق ٢، ص ٣٨٦.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج ١، ق ٢، ص ٣٨٦ - ٣٨٧.

(٣) المجتمع المصري: عاشور، ص ٦١.

(٤) الدرر الكامنة: ابن حجر، ج ٥، ص ١٢٦.

(٥) المجتمع المصري: عاشور، ص ٦٤.

(٦) المجتمع المصري: عاشور، ص ٦٤.

(٧) جوانب من حركة التأليف التاريخي: خليل الأحمر الحسين، ص ٥.

البلاد بارتداء ما يختارون من الملابس أو بركوب الخيل، ولكن فُرض عليهم ركوب الحمير مثل أهل الذمّة، ويستثنى من ذلك القناصل وكبار الأمراء الزائرين الذين سمح لهم بركوب الخيل<sup>(١)</sup>، وكذلك لم تكن الأقليات الأجنبية كلها من التجّار، حيث أنّ الناصر محمد بن قلاوون جلب الكثير من بلاد الأرمن<sup>(٢)</sup>.

أمّا سكّان الشام في عهد المماليك فلم يختلفوا كثيراً عن سكّان مصر، حيث أنّ المماليك هم الحاكمون فحرموهم من المشاركة في إدارة أمور البلاد<sup>(٣)</sup>، وقد انقسم أهل بلاد الشام الأصليون إلى حضر وبدو، أمّا أهل الحضر فاشتغلوا بالنشاط الاقتصادي من صناعة وتجارة وزراعة<sup>(٤)</sup>، وأمّا البدو فكانوا ينتشرون في باديتها، ولهم أفخاذهم وبطونهم، ويأتي على رأسها «آل فضل» وقد امتدت ديارهم من حمص إلى قلعة الجعبر إلى الرحبة، و«آل مرة» في حوران، و«آل علي» في المرح والغوطة حول دمشق، و«زبيد» في المرح وحوران والغوطة<sup>(٥)</sup>، أمّا أهل الذمّة، «وفيها بطرك النصارى اليعاقبة، وبطرك النصارى الملكانية، ورئيس اليهود القرابين والريانيين ورئيس السامرة، ولكنّه مقيم بمدينة نابلس التي هي مدينتهم المعظمة عندهم، وإلى طورها حجهم، وله نائب بدمشق»<sup>(٦)</sup>.

وقد شهدت بلاد الشام تراجع في عدد السكان، نتيجة الكوارث الطبيعية والأزمات الاقتصادية، وكذلك الحروب المغولية التي كان أثرها بارزاً، ففي حلب مثلاً مات سنة (٦٥٨هـ =

---

(١) المجتمع المصري: عاشور، ص ٦٤ - ٦٥.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج ٢، ق ٣، ص ٦٤٠.

(٣) جانب من حركة التأليف التاريخي: خليل الأحمر الحسين، ص ٥٦.

(٤) جوانب من حركة التأليف التاريخي: خليل الأحمر الحسين، ص ٥٦.

(٥) صبح الأعشى: القلقشندي، ج ٤، ص ٢١١ - ٢٢١.

(٦) صبح الأعشى: القلقشندي، ج ٣، ص ٢٠١.

١٢٦٠م) أكثر من نصف سكانها على يد المغول، كما نزع عدد كبير منهم إلى دمشق ومصر<sup>(١)</sup>، وقد أصاب المجتمع في عصر المماليك عدّة أمراض منها الرشوة، والخمرة، والحشيشة، والزنا، والشذوذ الجنسي، والسحر، والتنجيم، والمعتقدات بقدرّة المشايخ والأولياء، والتطيّر والتشاؤم، والحسد والتعاويد، وأيام السعد والنحس<sup>(٢)</sup>.

أمّا في ما يخصّ المرأة فقد نالت المرأة في العصر المملوكي قسطاً وافراً من الاحترام من قبل المماليك ومن سائر الشعب، أمّا المماليك فنظروا إلى نساءهم نظرة تفيض بالإجلال والتقدير، وكانوا يخصصون لهم الألقاب مثل خوند وخاتون<sup>(٣)</sup>، وكذلك بقية الشعب أطلقوا الألقاب على بعض النساء مثل ستّ الحكام، وستّ الإسلام وستّ القضاة وستّ الخلق، وستّ العلماء، وستّ الفقهاء، وستّ الناس، وستّ الكلّ وغيرها<sup>(٤)</sup>.

ومّا يلفت الانتباه شغف المماليك باقتناء الجوّاري الحسان، ودفع الكثير في شرائهن، حتّى أنّ الناصر محمد «شغف بالسراري، فحاز منهنّ كلّ بديعة الجمال وجّهز إحدى عشر ابنة له بالجهاز العظيم، فكان أقلهنّ بثمانمائة ألف دينار»، وقد جّهز سراريه وجوّاريه ومن يحسن بخاطره من النساء، «واستجدّ النساء في أيّامه المقنعة والطرحة بنحو عشرة آلاف دينار وبما دون ذلك إلى خمسة آلاف درهم والفرجيات بمثل ذلك، واستجدّ أيضاً في أيّامه للنساء الخلاخيل

---

(١) حلب في العصر المملوكي الأوّل: بدور كمال، أشرف سهيل زكار، رسالة دكتوراه، دمشق (١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م)، ص ٢٠٠.

(٢) المجتمع المصري: عاشور، ص ٢٤٧ - ٢٦٩.

(٣) المجتمع المصري: عاشور، ص ١٣٤.

(٤) المدخل: محمد بن محمد البعدري الفاسي الشهير بابن الحاج (ت ٧٣٧هـ = ١٣٣٦م)، الناشر: دار الفكر (١٤٠١هـ = ١٩٨١م)، ج ١، ص ٢٣٨.

الذهب، والاطواق المرصعة بالجواهر الثمينة والأوطية المرصعة، والأزر الحرير، فكانت قيمة إزار المرأة من أحاد النساء ألف درهم عنها نحو الخمسين ديناراً مصرية»<sup>(١)</sup>.

وقد شاركت بعض النساء في السياسة، مثل شجرة الدرّ التي كان لها دور كبير في انتقال الحكم إلى المماليك كما ذكرنا سابقاً، وكذلك شارك بعضهنّ في الحياة العلمية والدينية، مثل أم عبد الله ابنة الشيخ عمر بن أسعد التنوخيّة الدمشقيّة المعروفة بستّ الوزراء، التي روت صحيح البخاري<sup>(٢)</sup>، وفاطمة بنت محمد بن عبد الهادي المقدسيّة (ت ٨٠٣هـ = ١٤٠٠م)<sup>(٣)</sup>، وعائشة بنت محمد بن عبد الهادي بن قدامة (ت ٨١٦هـ = ١٤١٣م)، وقد روت الكثير وأخذ عنها الأئمة<sup>(٤)</sup>، وشارك بعضهنّ أيضاً في الطب، مثل أسماء بنت محمد الصائغ والدة المقرئ، حيث كانت تعالج أمراض الصداع، وقال عنها المقرئ: «وضعت الدواء مراراً عديدة وما أخطأت»<sup>(٥)</sup>، وقد انتقل الكثير منهنّ بين الشام ومصر لطلب العلم عند كبار المحدثين والعلماء<sup>(٦)</sup>.

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئ، ج ٢، ق ٢، ص ٥٣٦.

(٢) أعيان العصر وأعوان النصر: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ = ١٣٦٣م)، تحقيق: علي أبو زيد- نبيل أبو عمشة- محمد موعد- محمود سالم محمد، الناشر: دار الفكر المعاصر، بيروت، ط ١ (١٤١٨هـ = ١٩٩٨م)، ج ٢، ص ٣٩٨.

(٣) إنباء الغمر بأبناء العمر: ابن الحجر، ج ٤، ص ٣١٣-٣١٤. شذرات الذهب في أخبار من ذهب: شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي، تحقيق: محمود الأرنؤوط، الناشر: دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط ١ (١٤١٤هـ = ١٩٩٣م)، ج ٩، ص ٥٥.

(٤) إنباء الغمر بأبناء العمر: ابن حجر، ج ٧، ص ١٣٢-١٣٣. الضوء اللامع: السخاوي، ج ٢، ص ٨١.

(٥) درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة: المقرئ، تحقيق: عدنان درويش- محمد المصري، الناشر: وزارة الثقافة، دمشق (١٤١٥هـ = ١٩٩٥م)، ص ٢٢-٢٢٩.

(٦) المجتمع المصري: عاشور، ص ١٥٢.

## رابعاً: الحياة الفكرية في عصر المماليك

شهدت مصر في العصر المملوكي ازدهاراً علمياً شديداً، ويشهد على ذلك التراث الضخم من موسوعات أدبية وكتب تاريخية ومؤلفات في العلوم الدينية تركها علماء ذلك العصر، فيقول ابن حجر عن بعض علماء الشام وغيرها من البلاد الإسلامية: «أهم كانوا يقولون عن بلادهم: «هذا بلد ضيق عن علمي»<sup>(١)</sup>، وقد ربط السيوطي بين هذا النشاط العلمي الواسع وبين انتقال الخلافة من بغداد إلى مصر حيث قال: «وصارت محلّ سكن العلماء، ومحطّ رحال الفضلاء»<sup>(٢)</sup>.

والواقع أنّ هذا النشاط العلمي لم يكن ليزدهر لولا تشجيع السلاطين المماليك، وقد وصف ابن تغري بردي السلطان الظاهر بيبرس بقوله: «وكان يميل إلى التاريخ وأهله ميلاً زائداً ويقول سماع التاريخ أعظم من التجارب»<sup>(٣)</sup>، وكذلك السلطان الغوري الذي كان يعقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة مرّة أو مرّتين أو أكثر كلّ أسبوع، فقد كانت تناقش في هذه المجالس المسائل والمشاكل العلمية والدينية<sup>(٤)</sup>، وكذلك كان بعض أمراء المماليك وأبنائهم ممن اشتغلوا بالتاريخ والفقه والحديث واللغة، وبعضهم تصدر لإقراء الطلبة والتدريس<sup>(٥)</sup>.

---

(١) رفع الإصر عن قضاة مصر: احمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت ٨٥٢هـ = ١٤٤٨م)، تحقيق: علي محمد عمر، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١ (١٤١٨هـ = ١٩٩٨م)، ص ٢٤٠.

(٢) حسن المحاضرة: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٨٤٩ - ٩١١هـ) = (١٤٤٥ - ١٥٠٥م)، تحقيق: خليل منصور، الناشر: دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان، ط١ (١٤١٨هـ = ١٩٩٧م)، مج ٢، ص ١٠٢.

(٣) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ٧، ص ١٦٢.

(٤) مجالس السلطان الغوري صفحات في تاريخ مصر في القرن العاشر الهجري: عبد الوهاب عزام، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، ط١ (١٤٣١هـ = ٢٠١٠م)، ص ٤٩.

(٥) التبر المسبوك في ذيل السلوك: السخاوي، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، ص ٢٢١ - ٤١٥.

## التدريس و المؤسسات العلمية في عصر المماليك

لقد قامت الدولة الفاطمية بنشر التشيع في مصر والشام، وقام الأيوبيون بعد القضاء على دولتهم بنشر العقيدة السنية من خلال نشر المؤسسات التعليمية، فتبعهم بذلك المماليك وزادوا على هذه المؤسسات إظهاراً لشعور التقوى والصالح من ناحية، ولتخذوا منها أدوات تضمن بقاء حكمهم وتدعم مركزهم في عيون الشعب من ناحية أخرى<sup>(١)</sup>، وجرت العادة بعد الفراغ من إنشاء المدرسة أن يُحتفل احتفالاً كبيراً بافتتاحها، ويكون السلطان والأمراء والفقهاء والقضاة والأعيان حاضرين، ويمد سماط فاخر في صحن المدرسة به ألوان الأطعمة والحلوى والفواكه، وبعدها يخلع السلطان على من شارك في بنائها من المعلمين والبنائين والمهندسين، ثم يعين للمدرسة موظفيها من المدرسين والفقهاء والمؤذنين والقراء والفرّاشين وغيرهم<sup>(٢)</sup>.

وقد كانت وظيفة التدريس جليلة القدر، يخلع السلطان على صاحبها ويكتب له توقيعاً من ديوان الإنشاء يختلف باختلاف ما يدرسه من حديث أو فقه أو غيرها، وهو على شكل نصيحة، ويوصيه بأن يتعامل مع الطلاب على أنهم أولاده: «وإن كان مدرساً وُصّي بأن يُقبل على جماعة درسه بطلاقة وجه، وأن يستميلهم إليه جهد استطاعته ويربيهم كما يربيّ الوالد ولده»<sup>(٣)</sup>، وكذلك يقول النويري: «وأن ينظر المدرّس في طلبته ويحثهم كلّ وقت على الاشتغال،

(١) العصر المماليكي في مصر والشام: عاشور، ص ٣٤٢ - ٣٤٣.

(٢) العصر المماليكي في مصر والشام: عاشور، ص ٣٤٣ - ٣٣٤.

(٣) صبح الأعشى: القلقشندي، ج ١١، ص ٩٧.

ويجعل من يختاره نقيباً عليهم، ويقرّر له ما شاء»<sup>(١)</sup>، وكذلك يعيّن معيداً أو أكثر ليعيد للطلبة ما ألقاه المدرس ليفهموه، كما أنّه يشرح ما يحتاج إلى الشرح<sup>(٢)</sup>.

وكان للطلبة حرية اختيار المواد التي يرغبون تعلّمها، حيث يقول النويري: «ويشتغل كلّ واحد من الطلبة بما يختاره من أنواع العلوم الشرعية»<sup>(٣)</sup>، وكثيراً ما كان الطالب ينتقل من بلد إلى آخر لكي يتتلمذ على يد فقيه أو محدّث مشهور<sup>(٤)</sup>، وبعد أن يكون الطالب مؤهّلاً للتدريس والفتية، يأخذ الإجازة من شيخه بذلك، ويكتب على هذه الإجازة اسم الطالب وشيخه ومذهبه وتاريخ الإجازة وغيرها، وكانت ترتبط قيمة الإجازة بمكانة الشيخ العلمية الذي منح هذه الإجازة للطلاب وسمعته<sup>(٥)</sup>.

ولقد كان التدريس يتم في المؤسسات العلمية من مدارس وجوامع وخوانق وزوايا وترب وقباب وبيمارستانات، وكان لهذه المؤسسات في عصر المماليك دخل مالي ثابت يمكنها من أداء رسالتها التعليمية، وكان المصدر الأهمّ هو الأوقاف من أراض وبيوت وأسواق ومعاصر... إلخ، ومن هذه الأوقاف ينفق على المؤسسة ومن فيها من مدرسين وطلاب وموظفين<sup>(٦)</sup>، وكذلك كان من الضروري لهذه المؤسسات التعليمية من مدارس وجوامع وخوانق وزوايا وترب وقباب وبيمارستانات أن تلحق بها مكتبات، لممارسة الحياة العلمية فيها وهذا ما سنتحدث عنه في الفصل الثالث.

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ (١٤٢٤هـ = ٢٠٠٤م)، ج ٣٢، ص ٤٦.

(٢) العصر المماليكي في مصر والشام: عاشور، ص ٣٤٤.

(٣) نهاية الأرب: النويري، ج ٣٢، ص ٤٦.

(٤) العصر المماليكي في مصر والشام: عاشور، ص ٣٤٤.

(٥) صبح الأعشى: القلقشندي، ج ١٤، ص ٣٦٤ - ٣٧٧.

(٦) العصر المماليكي في مصر والشام: عاشور، ص ٣٤٥.



## الكتاتيب

وهي أيضاً من المؤسسات التعليمية، وقد أفردت لها فقرة خاصة لأنني سوف أتحدث عنها بشيءٍ من التفصيل، وهي بمثابة المرحلة الابتدائية، وكان الهدف الأساسي من إنشاء المكاتب هو تعليم أيتام المسلمين، وقام الخيرون بإنشائها وحسبت الأوقاف عليها، وكان يقوم بتعليمهم «المؤدّب» الذي يلقب «بالفقيه»، و«يشترط في المعلم أن يكون من أهل الصلاح والفقهِ والأمانة، حافظاً للكتاب العزيز حسن الخط ويدري الحساب والأولى أن يكون متزوجاً»، ويساعده على ذلك «العريف» وهو أشبه بالمعيد في المدارس<sup>(١)</sup>، وربما يحتاج المكتب إلى أكثر من مؤدّب وعريف، وذلك بحسب عدد الطلاب، حيث يقول النويري عن السلطان المنصور قلاوون في مكتب السبيل الذي قام بإنشائه: «وأما مكتب السبيل، فإنه رتب فيه فقيهان يعلمان ستين صغيراً من أيتام المسلمين كتاب الله تعالى»<sup>(٢)</sup>، وقد كانت تصرف الجوامك والحراية من نقود وكسوة ومن خبز على الطلاب كما في مكتب السلطان قلاوون<sup>(٣)</sup>، وكان الطلاب يتعلمون في هذه المكاتب القراءة والكتابة وتعليم القرآن والحديث وآداب الدين، والحساب وقواعد اللغة وبعض الشعر، وكانت بداية الكتابة تكون على ألواح، ثم بعد ذلك ينتقل إلى الكتابة بالمداد، وبعد أن يبلغ الطفل سن الحلم، يُصَرَّف من المكتب ليحل محله طفل آخر.

(١) المماليكي في مصر والشام: عاشور، ص ٣٤٧.

(٢) نهاية الأرب: النويري، ج ٣١، ص ٧٤ - ٧٥.

(٣) نهاية الأرب: النويري، ج ٣١، ص ٧٥.

وقد أوصي المؤدب بأن لا يضرب الأطفال ولا يقسو عليهم، إلا إذا أساء منهم الأدب فيضرب ضرباً وسطاً<sup>(١)</sup>، وكان إذا حفظ الصبي القرآن في المكتب يقام له احتفال كبير يسمى «الإصرافة»، حيث تزين أرض المكتب وسقفه وحيطانه بالحرير، ويقوم أهل الطفل بتزينه كما يزينون النساء، ثم يركبونه على فرسٍ أو بغلةٍ مزينةٍ، ويحملون أمامه أطباقاً فيها ثياب من حرير وعمائم، وبعدها يمشي بين يديه صبيان المكتب، وينشدون في طريقه إلى أن يوصلوه إلى بيته، ومنهم من يضيف إلى ذلك القراء بأن يقرؤون كتاب الله العزيز بين يديه، ثم يضيفون إليه المكبرين والمؤذنين، ويمرّون به في الأسواق، ومنهم من كان يضرب بين يديه بالطلبة والبوق، وكذلك كان بعضهم يُسيرون الفيل والزرافة بين يديه، ويرمون عليه النقط، ووصل الأمر ببعضهم «بمشي بين يديه المغنية وطائفها مكشوفة على ما يعهد من حالها مع ضرب الطار والشبابة والغناء وترفع عقيرتها على ما يعهد من فتنها»<sup>(٢)</sup>.

### النشاط الديني

من الملاحظ أنّ النشاط الديني في عصر المماليك شهد نشاطاً لا نظير له، ولعلّ ذلك بسبب أصل المماليك الذي يعتبر أنّه غريب عن أهل البلد، ولذلك أرادوا أن يتّخذوا من الدين ورجاله ستاراً يخفون وراءه هذا الأمر<sup>(٣)</sup>، وكذلك تبع المماليك أساتذتهم الأيوبيين لمحاربة العقيدة الشيعية، حيث أنّ الأيوبيين لم يستطيعوا القضاء على هذه العقيدة بالكامل، فقام المماليك بمتابعة ما بدأه الأيوبيون، وقد لجأوا في بعض الأحيان إلى استخدام العنف في ذلك حيث يقول

(١) معالم القرية في طلب الحسبة: محمد بن محمد بن أحمد القرشي (٦٤٨ - ٧٢٩هـ) = (١٢٥٠ - ١٣٢٩م)، تحقيق: محمد محمود شعبان - صديق أحمد عيسى المطيعي، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م) ص ٢٦١.

(٢) المدخل: محمد بن محمد البغدري الفاسي الشهير بابن الحاج (٧٣٧هـ = ١٣٣٦م)، الناشر: دار الفكر (١٤٠١هـ = ١٩٨١م)، ج ٢، ص ٣٣٢.

(٣) العصر المماليكي في مصر والشام: عاشور، ص ٣٤٨ - ٣٤٩.

ابن حجر عن حسن بن منصور بن محمد الإسناي (ت ٧٠٦هـ = ١٣٠٦): «وكان بنو السديد بأسنا يجسدونه فدسّوا عليه من رماه بالتشيع»، وصدورت أملاكه وعوقب وأهين للتوبة عن ذلك<sup>(١)</sup>، وكان هناك حرب غير مباشرة، مثل أنّ القضاة بمصر كانوا على مذاهب السنّة الأربعة، ووجوب اتباع هذه المذاهب وتحريم ما عداها «ولم يولّ قاضٍ ولا قُبلت شهادة أحدٍ ولا قُدّم للخطابة والإمامة والتدريس أحدٌ ما لم يكن مُقلِّداً لأحد هذه المذاهب»<sup>(٢)</sup>.

وكذلك استخدموا المدارس في محاربتهم للتشيع، حيث كانت المدرسة تدرّس مذهباً أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة، وهي مذاهب أهل السنّة، ومن الأمثلة على ذلك المدرسة الظاهرية في دمشق كانت للشافعية<sup>(٣)</sup>، والمدرسة الجركسية كانت مشتركة بين الحنفية والشافعية<sup>(٤)</sup>، وكذلك المدرسة الناصرية كان لها أربع أو اوين، كلّ منها خاص بمذهب من مذاهب أهل السنّة، والتي قام بنائها الملك الناصر محمد بن قلاوون<sup>(٥)</sup>، ولم تكن المدارس هي المؤسّسة الوحيدة التي قامت بتدريس المذاهب السنّية، بل قامت بذلك المساجد والزوايا والخوانق وغيرها، وهذا من أحد الدوافع التي جعلت المماليك يكثرون من إنشاء المؤسّسات التعليمية.

## التصوّف

سوف نتحدث عن حركات التصوف بشيء من التفصيل لأهميتها في العصر المملوكي، وقد اتسعت ظاهرة التصوف في العصر المملوكي، وكان ذلك بسبب وفود الكثير من مشايخ

---

(١) الدرر الكامنة: ابن حجر، ج ٢، ص ١٣٢.

(٢) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ١، ص ٣٩٦ - ٣٩٧.

(٣) الدارس في تاريخ المدارس: عبد القادر بن محمد النعيمي، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، ط ١ (١٤١٠هـ = ١٩٩٠م)، ج ١، ص ٢٦٣.

(٤) الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج ١، ص ٣٧٩.

(٥) نهاية الأرب: النوري، ج ٣٢، ص ٤١ - ٤٢.

الصوفية المغاربة والأندلسيين مثل السيد أحمد البدوي، وأبي الحسن الشاذلي، وأبي العباس المرسي، وأبي القاسم القباري، وكانت قد ضاقت بهم الحال التي وصل إليها المسلمون في المغرب والأندلس، فهجروا بلادهم إلى بلاد المشرق وخاصة إلى مصر، وكذلك هجوم التتار من ناحية الشرق<sup>(١)</sup>، فانقسمت الصوفية إلى فرق عديدة، لكل فرقة شيخها وشعارها، فالطائفة الأحمدية مثلاً تنسب إلى شيخها أحمد البدوي، وكان شعارها اللون الأحمر، والرفاعية تُنسب إلى أبي العباس أحمد المعروف بابن الرفاعي، وشعارها العمائم السوداء<sup>(٢)</sup>.

وقد نهجوا نهجاً دينياً يقوم على الابتعاد عن متاع الدنيا وزخرفتها، عسى أن يتوب عليهم الله جل جلاله، ولعلّ هذا الانعزال نتيجة عدم رضى الناس عن أوضاعهم وتأملمهم لسوء أحوالهم، وقد أطلقوا على أنفسهم اسم «الفقراء»<sup>(٣)</sup>، وعند موت شيخ الطريقة يخلفه خليفة، ويخلع عليه السلطان في القلعة، ثم يقوم بمغادرتها في حفل كبير، وقد أحاط به أتباعه<sup>(٤)</sup>، وإذا دخل أحدهم بإحدى هذه الطرق وأصبح مريداً قام الشيخ بالباسه خرقة التصوف، وألزم المريد بطاعة شيخه طاعة عمياء<sup>(٥)</sup>، وكانت هناك شروط للمريديّة وجب التقيّد بها، فمن تلك الشروط ما كان مبالغ فيه، حتى وصل الأمر في بعض الحالات أن لا يبقى للمريد التصرف في ماله ولا زوجته ولا نفسه<sup>(٦)</sup>، وكان عنوان إخلاص المريد لشيخه هو المداومة على حضور

---

(١) المجتمع المصري في عهد سلاطين المماليك: عاشور، ص ١٨٠.

(٢) المجتمع المصري في عهد سلاطين المماليك: عاشور، ص ١٨١.

(٣) العصر المماليكي في مصر والشام: عاشور، ص ٢٥١ - ٢٥٢.

(٤) بدائع الزهور: ابن إياس، ج ٣، ص ٧٩.

(٥) العصر المماليكي في مصر والشام: عاشور، ص ٢٥٢.

(٦) المدخل: ابن الحاج، ج ٣، ص ٢٠٧.

مجلسه، فإذا انقطع لسبب طارئ وحجل من الرجوع إلى شيخه «فكان ذلك كالطلاق الرجعي»، وللشيخ أن يقبله إذا رجع لأن حرمة الشيخ لا تزال باقية في نفس المرید<sup>(١)</sup>.

واستمرت عندهم هذه الرابطة بين الشيخ ومريديه حتى بعد الموت، إذا حرص كثير من الصوفية على أن يدفنوا بجوار مشايخهم وأوصوا بذلك<sup>(٢)</sup>، وكانت حياة الصوفية قائمة على التقشّف في المأكل والملبس وغير ذلك، وقد عبّر عنهم السيد إبراهيم الدسوقي بقوله: «قوته الجوع ومطره الدموع ووطره الرجوع»<sup>(٣)</sup>، ونتيجة لزيادة عددهم انتشرت أماكن وجودهم وهي الخوانق والربط والزوايا وهي ما سنتحدث عنه لاحقاً.

ونشير إلى أن سلاطين المماليك قاموا بإنشاء بيوت الصوفية، وحبسوا عليها الأوقاف، وكان الأفقر والأحوج يقدّم للنزول بالخانقاوات، وكذلك يفضل الأعزب على المتزوج<sup>(٤)</sup>، وقد كان يعيّن للخانقاه شيخ أو أكثر وعدد من الصوفية، وكان بعضهم قد اتخذ التصوف حرفة له، حيث تذكر وثيقة وقف بيبرس الجاشنكير في شروط اختيار شيخ الخانقاه: «من جماعة الصوفية ممن عرف بصحبة المشايخ، وألا يكون قد اتخذ من التصوف حرفة»<sup>(٥)</sup>، ولم يكن الأمر محصوراً بالرجال شاركت النساء في ذلك، مثل خوند شكر باي الناصرية الأحمديّة كانت على الطريقة الأحمديّة، وعندما ماتت «ولم يغط نعشها ببشخاناه على عادة الخوندات بل جعل على نعشها

---

(١) المجتمع المصري في عهد سلاطين المماليك: عاشور، ص ١٨٢.

(٢) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ٩، ص ٢١٦.

(٣) المجتمع المصري في عهد سلاطين المماليك: عاشور، ص ١٨٣.

(٤) العصر المماليكي في مصر والشام: عاشور، ص ٣٥٢.

(٥) حجة وقف بيبرس الجاشنكير (المحكمة الشرعية)، انظر العصر المماليكي في مصر والشام: عاشور، ص ٣٥٢.

خرقة مرقعة للفقراء وجعل أمام نعشها أعلام أحمدية وكان ذلك بوصية منها» كما ذكر ابن تغري بردي<sup>(١)</sup>.

وقد تغيرت أحوالهم من الصلاح إلى الفساد، حيث ما لبثوا أن استخدموا المزمار والدف والرقص، ويذكر ابن الحاج: «فإذا دب معه الطرب قليلاً حرّك رأسه كما يفعله أهل الخمر سواء بسواء كما تقدم، ثمّ إذا تمكّن الطرب منه ذهب حياؤه ووقاره كما سبق في الخمرة سواء بسواء، فيقوم ويرقص ويعيط وينادي ويكي ويتباكى ويتخشع ويدخل ويخرج، ويبسط يديه ويرفع رأسه نحو السماء كأنّ المدد جاءه منه، ويخرج الرغوة أي الزبد من فيه، وربما مزق ثيابه وعبث بلحيته»<sup>(٢)</sup>، وقد وصل بهم الأمر إلى تعاطي الحشيش، وأطلقوا عليها اسم «حشيشة الفقراء»<sup>(٣)</sup>.

وقد استنكر الكثيرون من المعاصرين ما آل إليه الصوفية، إذ قال فيهم السخاوي:

«صوفية أحدثوا في ديننا لعباً  
من اقتدى بهم قد ضلّ  
أهل المراقص لا تأخذ  
فقد تماردوا على التمويه والكذب»<sup>(٤)</sup>.

وخالفوا الحقّ دين المصطفى العربي  
سحقاً لمذهبهم لو كان من ذهب  
وكذلك وصل بهم إلى أن قال عنهم المقرئ: «ثمّ تلاشى الآن حال الصوفية  
ومشايخهم حتى صاروا من سقط المتاع، لا ينسبون إلى علم ولا ديانة»<sup>(٥)</sup>.

(١) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ١٦، ص ٣٠٩.

(٢) المدخل: ابن الحاج، ج ٢، ص ٦.

(٣) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٣، ص ٤١٨.

(٤) التبر المسبوك: السخاوي، ص ٢٢٠.

(٥) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ٢، ص ٧٧٦.

## الفصل الثاني: التطور التاريخي للمكتبات عبر العصور

## أولاً: المكتبات اليونانية

إنّ تاريخ المكتبات عند اليونان غامض، وذلك بسبب رطوبة الجو، التي كانت عاملاً أساسياً في تلف وفساد الآثار المكتوبة<sup>(١)</sup>، ولكن مع ذلك عثر في جزيرة كريت على ألواح تدلّ على أنّهم عرفوا الكتابة منذ أيام هوميروس<sup>(٢)</sup>، وكذلك عثر على سوق للكاتب وجد في أثينا، يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد<sup>(٣)</sup>، وقد كانت هناك مكتبات مثل مكتبة مدرسة افلاطون في القرن الرابع قبل الميلاد، وقبلها مكتبة المدرسة الابيقورية، إلا أنّ المكتبات انتشرت بشكل واسع في عصر ارسطو<sup>(٤)</sup>، وكذلك مكتبة ديموقريطس ويوريديس وهما من رجال القرن الخامس قبل الميلاد ومكتبة يوثيديموس<sup>(٥)</sup>.

وعثر في موقعي ميكاني وفيلوس في البرّ اليوناني على عدد من الغرف الخاصة في قصور الحكام، تحوي أعداداً ضخمة من اللوحات الفخارية، بعضها جرار وضعت في صفوفٍ على الرفوف، وهذا يدلّ على وجود المكتبات<sup>(٦)</sup>، وكذلك اكتشف في خرائب فيلوس بعض اللوحات

---

(١) مقدمة في علم المكتبات والمعلومات: ربحي مصطفى عليان - أمين البغداوي، الناشر: دار الفكر، ص ١٢ - ١٣. لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات: عبد الستار الحلوجي، الناشر: دار الثقافة، ط ٣ (١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م). ص ١٠.

(٢) مقدمة في علم المكتبات والمعلومات: ربحي مصطفى عليان - أمين البغداوي، ص ١٣. لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات: عبد الستار الحلوجي، ص ١٠.

(٣) مقدمة في علم المكتبات والمعلومات: ربحي مصطفى عليان - أمين البغداوي، ص ١٣. لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات: عبد الستار الحلوجي، ص ١١.

(٤) مقدمة في علم المكتبات والمعلومات: ربحي مصطفى عليان - أمين البغداوي، ص ١٣. لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات: عبد الستار الحلوجي، ص ١٢.

(٥) لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات: عبد الستار الحلوجي، ص ١١.

(٦) المكتبات في العالم: محمد ماهر حمادة، الناشر: دار العلوم، ص ٥٩.



الفخارية الصغرى في بعض البيوت الخاصة، وكذلك في بيوت الأغنياء والتجار<sup>(١)</sup>، وقد وجدت في أثينا مكتبة عامّة بعد سنة (٥٦٠ ق.م)، حيث إنّ الطاغية بيسيتراتوس الذي حكم أثينا فترة من الوقت وقد عاش بين سنتي (٦٠٥) و(٥٢٧) ق.م، جمع مكتبة كبرى وتركها أثناً لمدينة أثينا بعد وفاته، ثمّ قام سكان أثينا بتطويرها، وقد بقيت حتّى زمن الإمبراطور الفارسي سرخس الذي احتل أثينا سنة (٤٨٠) ق.م، وصادر الكتب الموجودة فيها<sup>(٢)</sup>، وفي خرائب برغامم اكتشفوا غرفة للكتب موجودة في معبد الإلهة أثينا<sup>(٣)</sup>، وعندما احتلّ الرومان برغامم صادروا قسماً من محتوياتها<sup>(٤)</sup>، وكذلك كان لمدينة أثينا سجلاتها الرسمية، وقد أودعتها في مكان اسمه الميتروم أي معبد أم الآلهة.

ووجدت غالباً دور محفوظات وسجلات في كُبريات المدن اليونانية، ووجدت مكتبات ملحقة بالمراكز الطبية ومعاهد تخريج الأطباء كما في معهد الاسكليبيون قرب ابيدوروس، حيث وجدت مدارس طبية راقية ألحقت بها مكتبات طبية غنية، ووجدت أيضاً مكتبات طبية في مراكز الطبّ في كلّ من كوس وبرغامم ورودوس وسيرين والإسكندرية، وكذلك مدارس الفلسفة التي كانت منتشرة في بلاد اليونان، مثل الرواقية والأبيقورية والسفسطائية والكلبية، وقد ألحق بها مكتبات خاصّة حوت إنتاج اساتذتها<sup>(٥)</sup>، ونلاحظ أنّ هذه المكتبات قد ارتبطت اسمها بالمعابد والمدارس بشكلاً كبيراً.

---

(١) المكتبات في العالم: محمد ماهر حماده، ص ٥٩.

(٢) المكتبات في العالم: محمد ماهر حماده، ص ٦٠.

(٣) المكتبات في العالم: محمد ماهر حماده، ص ٧٣.

(٤) المكتبات في العالم: محمد ماهر حماده، ص ٧٤.

(٥) المكتبات في العالم: محمد ماهر حمادة، ص ٧٦.

## ثانياً: مكتبات بلاد ما بين النهرين

وهي من المكتبات المعروفة في العالم، حيث اكتشفت الحفريات الأثرية التي جرت في مطلع القرن العشرين في بلاد الرافدين على وجود المكتبات، والأرشيف يرجع تاريخه إلى الألف الرابع قبل الميلاد<sup>(١)</sup>.

مكتبة نينوى أو مكتبة «القصر الملكي»<sup>(٢)</sup>: وتنسب إلى الملك سرجون الثاني الأشوري، وهي قبالة مدينة الموصل شرقي دجلة، ويرجع تأسيسها إلى القرن الثامن قبل الميلاد إلى عهد الملك سرجون الثاني<sup>(٣)</sup>، وقد ازدهرت في عهد الملك المشهور بانيبال الذي كان مشغولاً بالعلم والمعرفة والأدب<sup>(٤)</sup>.

وتم اكتشافها أثناء التنقيب الذي قام به القنصل الفرنسي بول لوتا عام (١٢٦١هـ= ١٨٤٥م)، خلال بحثه عن قصر آشور بانيبال، وقد وجدت محتويات هذه المكتبة الثمينة مرتبة وفي غاية التنظيم، مع احتوائها على الفهارس المرتبة، وكانت قد ختمت بختم المكتبة<sup>(٥)</sup>، وقد احتوت على آلاف الرقم الطينية، اكتشف منها أكثر من (٢٥٠,٠٠٠) لوحاً، مع عدد يسير من أوراق البردي حوت مختلف الموضوعات كالعلوم والآداب، والفنون، والشعر، والسحر، والطقوس الدينية، واللغة والخط، والطب، والأساطير، والقصص وغيرها، ومن أهمها مجموعة

(١) تاريخ الكتب والمكتبات: هايل نوفل، الناشر: مطبعة خالد بن الوليد، ص ٢٤.

(٢) تاريخ الكتب والمكتبات: هايل نوفل، ص ٢٤.

(٣) تاريخ الكتب والمكتبات: هايل نوفل، ص ٢٦. تاريخ الكتب والمكتبات: خيال الجواهري، هاشم حمادي، الناشر: جامعة دمشق مطبعة الداودي، ص ٢١.

(٤) تاريخ الكتب والمكتبات: هايل نوفل. ص ٢٦. من تاريخ المكتبات في البلدان العربية: خيال محمد مهدي الجواهري، الناشر: وزارة الثقافة، دمشق (١٤١٢هـ = ١٩٩٢)، ص ٣١.

(٥) من تاريخ المكتبات في البلدان العربية: الجواهري، ص ٣٠. لمحات من تاريخ الكتاب والمكتبات: عبد اللطيف الصوفي، الناشر: دار طلاس، ط ١ (١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م)، ص ١٣٧.

الألواح الإثني عشر التي تمثل كلكامش، ودائرة معارف لقواعد اللّغة الأشورية- البابلية، وسلسلة تاريخ مملكتي بابل وآشور، ومعاجم جغرافية، وقائمة بأسماء المعرفة آنذاك<sup>(١)</sup>، وقد لاحظ الباحثون في إشارةٍ إلى هذه الخزانة، أنّ في نهاية بعض تلك الألواح ما يدلّ على أنّها قادمة من خزانة أخرى، يرجع أصلها إلى خزانة الملك آشور بانبيال وخزانة معبد بنو، ولكن جرى ضمّها ووضعها في هذه الخزانة<sup>(٢)</sup>، وقد دُمّرت هذه المكتبة عند غزو الميديين والكلدانيين لمدينة نينوى خلال نهاية القرن السابع ومطلع السادس قبل الميلاد، وأشعلوا النار فيها ولكن النار لم تؤثر في الطين، وهي محفوظة اليوم بالمتحف البريطاني بلندن<sup>(٣)</sup>.

وهناك أيضاً مكتبة لكش: وهي من أقدم المكتبات في بلاد الرافدين، وجدت في المعبد الرئيسي لمدينة لكش (٣٢٠٠ - ٢٧٥٠ ق.م)<sup>(٤)</sup>، وقد اكتشفت فيها مئات الرقم الطينية، أثناء حفريات الناس العشوائية وبيعت خارج العراق<sup>(٥)</sup>، وقد سماها بعض الباحثين الأجانب بـ «تلو» والذي هو مشتق من «تل لوح» نسبة إلى ما وجد فيها من الألواح الكثيرة، والتي يقدر عددها بـ (٣٥٠٠ - ٤٠٠٠) لوح<sup>(٦)</sup>، وهي مجموعة وثائق المعبد، ومستندات تجارية من معاملات عامة وخاصّة<sup>(٧)</sup>.

- 
- (١) لمحات من تاريخ الكتاب والمكتبات: عبد اللطيف الصوفي، ص ١٤٠ - ١٤١.
  - (٢) من تاريخ المكتبات في البلدان العربية: الجواهري، ص ٣١ - ٣٢.
  - (٣) لمحات من تاريخ الكتاب والمكتبات: عبد اللطيف الصوفي، ص ١٤١.
  - (٤) من تاريخ المكتبات في البلدان العربية: الجواهري، ص ٢٨.
  - (٥) لمحات من تاريخ الكتاب والمكتبات: الصوفي، ص ١٣٦.
  - (٦) من تاريخ المكتبات في البلدان العربية: الجواهري، ص ٢٨ - ٢٩.
  - (٧) من تاريخ المكتبات في البلدان العربية: الجواهري، ص ٢٩. لمحات من تاريخ الكتاب والمكتبات: الصوفي، ص ١٣٦.

مكتبة نيبور أو مكتبة «نفر»: تقع على بعد مئة ميل تقريباً جنوبي مدينة بابل ويعود تاريخها إلى الألف الثالث قبل الميلاد (٢١٠٠ - ٢٧٠٠ ق.م)<sup>(١)</sup>، وفي هذه المكتبة تم اكتشاف عدّة آلاف من ألواح الطين المشوي، تحوي معلومات مختلفة كالحساب والطب والآداب والسحر والتنجيم والنصوص القانونية والتجارية والجغرافية وغيرها من الموضوعات المعروفة آنذاك<sup>(٢)</sup>، ومن أهمّ الألواح لوحان وهما أشبه بفهرس قديم، كتب على أحدهما اثنان وستون عملاً أدبياً، أمّا الآخر الموجود في متحف اللوفر فيتضمن ثمانية وستين عنواناً<sup>(٣)</sup>.

وكذلك توجد مكتبات أخرى في بلاد الرافدين، مثل خزانة الوركاء في مدينة الوركاء<sup>(٤)</sup>، وخزانة دريهم وهو اسم تل<sup>(٥)</sup>، وكذلك خزانة سبار، وخزانة كيش، وخزانة نوزي التي تقع جنوب غربي كركوك<sup>(٦)</sup>، وخزانة الجمجمة، وخزانة مدينة أدب، وخزانة المدائن<sup>(٧)</sup>، وكذلك وجدت مكتبة مهمة ملحقة بمعبد حورس الذي بني في أدفو سنة (٢٩٠ ق.م)<sup>(٨)</sup>.

---

(١) لمحات من تاريخ الكتاب والمكتبات: الصوفي، ص ١٣٧. تاريخ الكتب والمكتبات: خيال الجواهري، هاشم حمادي، ص ٢٢.

(٢) لمحات من تاريخ الكتاب والمكتبات: الصوفي، ص ١٣٧.

(٣) من تاريخ المكتبات في البلدان العربية: الجواهري، ص ٢٩.

(٤) تاريخ الكتب والمكتبات: خيال الجواهري- هاشم حمادي، ص ٢٠. من تاريخ المكتبات في البلدان العربية: الجواهري، ص ٣٤.

(٥) تاريخ المكتبات في البلدان العربية: الجواهري، ص ٣٠.

(٦) من تاريخ المكتبات في البلدان العربية: الجواهري، ص ٣٢-٣٣. تاريخ الكتب والمكتبات: خيال الجواهري- هاشم حمادي، ص ٢٣.

(٧) من تاريخ الكتب والمكتبات: خيال الجواهري- هاشم حمادي، ص ٢٣.

(٨) المكتبات في العالم: محمد ماهر حمادة، الناشر: دار العلوم، ص ٧٢.

## ثالثاً: المكتبات الرومانية

يعتبر تاريخ الكتب والمكتبات في الإمبراطورية الرومانية امتداداً لتاريخها لدى اليونان، حيث كان القواد يجلبون معهم إلى روما المخطوطات اليونانية كقسم من الغنائم<sup>(١)</sup>، وذلك عندما كانت جيوش الرومان تتوسع منذ أوائل القرن الثالث قبل الميلاد في حوض المتوسط وفي أوروبا الغربية كلها<sup>(٢)</sup>، ومن هؤلاء القواد الذين نقلوا الكتب اليونانية من مكتبات أثينا في القرن الأول قبل الميلاد القائد الروماني «سولا»، والقائد «باولوس» وغيرهما، وفي نهاية القرن الأول قبل الميلاد انتشر حب الكتب وجمعها بين الطبقات الأرستقراطية والفنية الحاكمة، ومنها مكتبة «شيشرون» الذي عمل بتجارة الكتب والمخطوطات في المدن الرومانية<sup>(٣)</sup>.

وأول قائد عسكري أنشأ مكتبة خاصة في روما هو «أميلوس بولس» الذي هزم «بيرسوس» سنة (١٦٨ ق.م) في معركة «بدنا»<sup>(٤)</sup>، وأول من أنشأ مكتبة شبه عامة هو أسينيوس بوليو في أواسط القرن الثاني ق.م<sup>(٥)</sup>، ثمّ بعده هذا حدوه سولا ولوكولوس في القرن التالي<sup>(٦)</sup>.

ومن المكتبات مكتبة يوليوس قيصر، الذي كان يجمع السلطنة السياسية والثقافة العامة في قصره، وينافس اليونان، ونقل من مكتبة الإسكندرية مخطوطاتها الهامة إلى مكتبة القصر

(١) المكتبات في العالم: محمد ماهر حمادة، ص ٧٩.

(٢) مقدمة في تاريخ المكتبات: محمد ماهر حمادة، الناشر: مؤسّسة الرسالة، ص ٥٣.

(٣) تاريخ الكتب والمكتبات: هايل نوفل، ص ٤٨. تاريخ المكتبات: الفرد هيسيل، ترجمة: شعبان عبد العزيز خليفة، الناشر: جامعة الملك عبد العزيز، دار المريخ، ط ٢ (١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م) ص ١٦.

(٤) المكتبات في العالم: محمد ماهر حمادة، الناشر: دار العلوم، ص ٨١.

(٥) المكتبات في العالم: محمد ماهر حمادة، الناشر: دار العلوم، ص ٨٣. تاريخ المكتبات: هيسيل، ص ١٦.

(٦) تاريخ المكتبات: هيسيل، ص ١٦.

الملكي في مدينة روما<sup>(١)</sup>، وقد أسس الامبراطور أغسطس مكتبتين، إحداهما في بالاتين بمعبد أبولو، والأخرى في العاصمة. وكذلك كان هناك مكتبات في الأسواق والحمامات الرومانية الكبيرة<sup>(٢)</sup>، ومن أشهر المكتبات العامة في مدينة روما مكتبتان كبيرتان، موجودتان إلى جانبي عمود تراجان، في وسط مدينة روما<sup>(٣)</sup>.

وكذلك في بيزنطة مكتبة القيصر قسطنطين التي أسسها عام (٣٥٣ ق.م)، وكذلك أنشأ الإمبراطور جوليان الذي كان شديد العناية بالعلوم والأدب مكتبة كبيرة أخرى في القسطنطينية، زوّدها بمجموعة هامة من الكتب في علوم اليونان والرومان<sup>(٤)</sup>.

ولقد حاولت المدن الإيطالية الأخرى أن تتبع روما فيما قامت به من إنشاء للمكتبات<sup>(٥)</sup>، ولقد أهدى الإمبراطور هادريان المحبّ لليونان مكتبة رائعة لأثينا<sup>(٦)</sup>، ووجد في أفيسوس قاعة للكتب<sup>(٧)</sup>، وألحق بها مجموعة من الكتب ذات الطابع الديني، وضعت في مكان مقدس من المعبد<sup>(٨)</sup>، وفي متحف نابولي في إيطاليا قائمة كبيرة للكتب، والمخطوطات التي

---

(١) تاريخ الكتب والمكتبات: هايل نوفل، ص ٤٨.

(٢) تاريخ المكتبات: هيسيل، ص ١٦ - ١٧.

(٣) تاريخ الكتب والمكتبات: هايل نوفل، ص ٤٨. تاريخ الكتب والمكتبات: خيال الجواهري - هاشم حمادي، ص ٣٤.

(٤) لمحات من تاريخ الكتاب والمكتبات: الصوفي، ص ١٦٥.

(٥) تاريخ المكتبات: هيسيل، ص ١٧.

(٦) تاريخ المكتبات: هيسيل، ص ١٧.

(٧) تاريخ المكتبات: هيسيل، ص ١٨.

(٨) مقدمة في تاريخ الكتب والمكتبات: محمد ماهر حمادة، ص ٥٣.

كانت تزين جدران المعابد الدينية، والقصور الملكية، والبيوت الأرسقراطية الرومانية، والمدارس في المدن الإيطالية القديمة<sup>(١)</sup>.

---

(١) تاريخ الكتب والمكتبات: هايل نوفل، ص ٤٩.

## رابعاً: مكتبات وادي النيل

لقد كانت كافة الظروف مهيأة لوجود المكتبات على ضفاف النيل منذ آلاف السنين؛ فالمصريون القدماء عرفوا الكتابة منذ ما يقارب خمسة آلاف عام، حيث سجلوا بها وصاياهم، وتعاليمهم المختلفة.

فالفراعنة المصريون كانوا يشجعون الآداب، والفنون، وبالإضافة لهذا فقد كانت مادة الكتابة متوفرة للمصريين القدماء من خلال توفر ورق البردي<sup>(١)</sup>، ويذكر ول ديورانت: «وقد كان للمصريين دور كتب، وخزنة عليها، فقد كتب على قبر موظف كبير في الأسرة الرابعة كاتب دار الكتب»<sup>(٢)</sup>، وكذلك يذكر: «وقد وصلت ألينا مكتبات يرجع تاريخها إلى عام (٢٠٠٠ ق.م)، وتحتوي برديات مطوية، ومحفوظة في جرار معنوية، ومصنوفة على رفوف»<sup>(٣)</sup>.

ومن هذه المكتبات مكتبة معبد طيبة: التي أسسها الملك رعمسيس الثاني في القرن الثالث عشر ق.م وسمّاها (مخزن طبّ العقول)<sup>(٤)</sup>، وكذلك مكتبة الفرعون أخناتون الذي جعل عاصمته في تلّ العمارنة، والذي حكم (١٣٥٠ ق.م)، فقد خصّص غرفة في قصره الملكي لتكون مكتبة أطلق عليها اسم «مكان سجلات قصر الملك»<sup>(٥)</sup>.

وأشهر مكتبة في مصر هي مكتبة الإسكندرية، التي أسسها بطليموس الأول (ت ٢٨٣ ق.م)، وهو أول الخلفاء من أسرة الاسكندر في مصر، وتابع بناءها بعده ابنه

---

(١) مقدمة في علم المكتبات والمعلومات: ربحي مصطفى عليان - أمين النجداوي، الناشر: دار الفكر، ص ١٢

(٢) قصة الحضارة: ول ديورانت، ترجمة: زكي نجيب محمود، الناشر: مطابع الرجوى، عابدين، القاهرة، ط ٥، مج ١، ج ٢، ص ١١٠.

(٣) قصة الحضارة: ول ديورانت، مج ١، ج ٢، ص ١١٠.

(٤) من تاريخ المكتبات في البلدان العربية: الجواهري، ص ٤٣.

(٥) مقدمة في علم المكتبات والمعلومات: ربحي مصطفى عليان - أمين النجداوي، ص ٣٧.



بطليموس فيلادلفوس<sup>(١)</sup>، وقد ضاقت بما فيها من الكتب عند منتصف القرن الثالث قبل الميلاد الميلاد بعد أن أصبحت تضم عدّة مئات آلاف من لفائف البردي، مما أدّى إلى بناء مكتبة ثانية قريبة منها عرفت بمكتبة «الابنة»، نسبة إلى المكتبة الأولى «الأم»، وقد أودع فيها (٤٢،٨٠٠) مجلّد<sup>(٢)</sup>، وكانت مقسمة إلى قسمين، القسم الأكبر منها في القصر الملكي، في حي البروكيوم من المدينة، والقسم الثاني في معبد سيرابيس، وبعد أن تهدّم القسم الأكبر من المكتبة إثر غارة قيصر على الإسكندرية عام (٤٧ ق.م) أصبح السيرابيوم المركز الحقيقي للكتب في المدينة<sup>(٣)</sup>، ولقد كانت تحوي على (٤٩٠٠٠٠) لفافة بردي<sup>(٤)</sup>.

ويوجد اختلاف في مصير هذه المكتبة، حيث يذكر بعضهم أنّ العرب هم الذين أحرقوها، وبعضهم يرفض هذا الادعاء، ويُذكر أنّ يوليوس قيصر هو الذي حرقها، وذلك عندما حاصر الإسكندرية سنة (٤٧ ق.م)، فحرق السفن الموجودة في مينائها، وكان عددها مائة وعشرون سفينة، وبعدها امتدّت النار إليها فأحرقتها، أمّا ما بقي منها فقد دُمّر سنة (٣٩١ م) وذلك عند قيام المسيحيين بتدمير معبد سيرابيس<sup>(٥)</sup>.

وكذلك وجدت مكتبات مصرية قديمة في الجيزة، وممفيس وغيرها من المدن المصرية القديمة<sup>(٦)</sup>، واكتشفت في معبد الكرنك مكتبة يرجع تاريخها على الألف الثالث قبل الميلاد<sup>(١)</sup>،

---

(١) تاريخ الكتب والمكتبات: خيال الجواهري - هاشم حمادي، ص ٢٤. من تاريخ المكتبات في البلدان العربية:

الجواهري، ص ٣٥. لمحات من تاريخ الكتاب والمكتبات: الصوفي، ص ١٤٥.

(٢) لمحات من تاريخ الكتاب والمكتبات: الصوفي، ص ١٤٥.

(٣) تاريخ المكتبات: الفرد هيسيل، ص ٩ - ١٠.

(٤) من تاريخ المكتبات في البلدان العربية: الجواهري، ص ٣٦.

(٥) من تاريخ المكتبات: الجواهري، ص ٣٩.

(٦) تاريخ الكتب والمكتبات: هايل نوفل، ص ٢٩.

(١) تاريخ الكتب والمكتبات: هايل نوفل، ص ٢٩.

وفي مدينة ممفيس عاصمة الدولة المصرية القديمة في الألف الثالث قبل الميلاد وجدت مكتبة ملحقة بالمعبد والقصر الملكي، وهي غرفة خاصّة تحتوي على لفائف بردي مكتوبة باللغة الهيروغليفية، ولقد عُلقت لائحة بأسماء الكتب وعناوين النصوص المكتوبة الموجودة على جدار المكتبة<sup>(١)</sup>.

---

(١) مقدمة في علم المكتبات والمعلومات: ربحي مصطفى عليان - أمين النجداوي، ص ١٢.

## خامساً: مكتبات بلاد الشام

لقد قدمت حضارة بلاد الشام القديمة المنجزات الحضارية الهامة في تاريخ العالم القديم، وساهمت في إغنائه الفكري والعلمي، وقد وجدت مجموعات من الألواح الطينية في مناطق مختلفة عكست لنا حضارات المجتمعات القديمة في بلاد الشام، ومن هذه المكتبات:

مكتبة القصر الملكي في أوغاريت: وقد تأسست مملكة أوغاريت في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد<sup>(١)</sup>، وفي عام (١٣٤٧هـ = ١٩٢٩م) عثرت بعثة فرنسية في موقع رأس شمرا، شمالي مدينة اللاذقية على مدرسة ملحقة بالمعبد الديني، ويعود تاريخها إلى القرن الثامن قبل الميلاد، وقد احتوت هذه المجموعات على نصوص كتبت بالخط المسماري، وبالأحرف الأبجدية الفينيقية، وقد جمعت نصوص الأدب الكنعاني والفينيقي، والأساطير التاريخية والدينية، بالإضافة إلى الرسائل والعقود المبرمة، والمعاجم اللغوية والوثائق<sup>(٢)</sup>.

مكتبة القصر الملكي في أيبلا: وتقع هذه المملكة في تلّ مردوخ جنوبي مدينة حلب<sup>(٣)</sup>، ويرجع تاريخها إلى الألف الثالث قبل الميلاد<sup>(٤)</sup>، وقد اكتشفت بعثة إيطالية عام (١٣٩٥هـ = ١٩٧٥م) المكتبة والأرشيف في عاصمة أيبلا، وهي مؤلفة من غرفتين برفوف خشبية رتب عليها نحو ٢٠,٠٠٠ لوح طيني، حسب تصنيف معين بالنسبة للمواضيع، بخط مسماري وهي

---

(١) تاريخ الكتب والمكتبات: هايل نوفل، ص ٣٨.

(٢) تاريخ الكتب والمكتبات: هايل نوفل، ص ٣٨. تاريخ الكتب والمكتبات: الجواهري-هاشم حمادي، ص ١٨.

(٣) تاريخ الكتب والمكتبات: الجواهري-هاشم حمادي، ص ١٨.

(٤) تاريخ الكتب والمكتبات: هايل نوفل، ص ٤٢.

نصوص معجمية وأدبية وتشريعية وقضائية، والمراسيم الإدارية والتنظيمية والأوامر العسكرية، وكذلك تتحدّث عن معلومات تاريخية لتاريخ أيبلا، وتاريخ بلاد الرافدين، والشرق القديم<sup>(١)</sup>.

مكتبة القصر الملكي في ماري: تأسست هذه المملكة في الألف الثاني قبل الميلاد، وقد اكتشفت سنة (١٣٥٣هـ = ١٩٣٥م) من خلال تمثال وجد في منطقة شمال شرق سورية، في موقع يسمى تلّ الحريري قرب دير الزور<sup>(٢)</sup>، وقد كانت بها مدرستان لتعليم القراءة والكتابة المسمارية، وكذلك عشر على ألواح طينية مجفّفة بالشمس، يبلغ مجموعها ٢٠,٠٠٠ لوح بالخط المسماري، تتحدّث عن مواضيع سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية<sup>(٣)</sup>.

---

(١) تاريخ الكتب والمكتبات: هايل نوفل، ص ٤٢ - ٤٣. تاريخ الكتب والمكتبات: الجواهري-هاشم حمادي، ص ١٨ - ١٩.

(٢) تاريخ الكتب والمكتبات: هايل نوفل، ص ٤٠. تاريخ الكتب والمكتبات: الجواهري-هاشم حمادي، ص ١٨.

(٣) تاريخ الكتب والمكتبات: هايل نوفل، ص ٤٠ - ٤١. تاريخ الكتب والمكتبات: الجواهري-هاشم حمادي، ص ١٨.

## سادساً: المكتبات الفاطمية

اهتمّ الفاطميون بإنشاء المؤسسات التعليمية في مصر وبلاد الشام، وألحاق المكتبات بها، وذلك من أجل القضاء على العقيدة السنيّة ونشر العقيدة الشيعيّة، وسوف نتحدّث عن أهمّ هذه المؤسسات التي ألحقت بها المكتبات كنموذج عنها، وهي جامع ابن طولون، وخزانة الأزهر، وخزانة لجامع الحاكم، ودار العلم، وسوف نتحدث عنها كمثال على باقي الخزانات.

جامع ابن طولون: وهو على جبل «يشكر» بين القاهرة ومصر، بني في سنة (٢٦٣هـ = ٨٧٦م)، وقد جعل به خزانة للكتب، وممن أوقف كتبه على هذه الخزانة الحاكم بأمر الله، حيث يذكر المقرئزي: إنّه وضع بجامع ابن طولون «ثمانمائة مصحف وأربعة عشر مصحفاً»، وقد أهمل وتشعث وخرب أكثره في زمن الغلاء في عهد المستنصر<sup>(١)</sup>، ولم يتمّ تجديد هذا الجامع إلاّ في عهد حسام الدين لاجين، وذلك بعهدٍ قطعه إن سلّمه الله من محنةٍ كانت بين الأمير بيدرا والملك الأشرف خليل بن قلاوون، وذلك أنّ بيدرا قتل الملك الأشرف، وكان حسام الدين لاجين ممن وافقه على ذلك، وبعد قتل بيدرا في محاربة المماليك الأشرفية فرّ لاجين إلى الجامع، وعاهد الله عهداً إن سلّمه الله من هذه المحنة ومكّن له في الأرض أن يجدد عمارة هذا الجامع، ويجعل له ما يقوم به، وتمّ له ذلك في سنة (٦٩٦هـ = ١٢٩٧م)، وقد قام بتجديده وأوقف عليه الكثير، وجعل به دروس للفقّه والحديث والتفسير والطبّ وغير ذلك، وأنشأ خزانة الكتب، التي كانت عامرةً بالمصنّفات، وتذكر وثيقته أنّها كانت تحوي في عصر المماليك على أمّهات كتب الطبّ<sup>(٢)</sup>.

(١) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٤، ج ١، ص ٥٩ - ٧٤.

(٢) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٤، ج ١، ص ٧٦. ووثيقة حسام لاجين: محكمة ١٨، محفظة ٣، انظر تاريخ المكتبات: السيّد السيّد النشار، الناشر: الدار المصرية اللبنانية، ط ١ (١٤١٣هـ = ١٩٩٣م)، ص ٨٣. النجوم

أمّا الجامع الأزهر: فهو أول مسجد أُسس في القاهرة، وأنشأه القائد جوهر الصقلي مولى الإمام أبي تميم معدّ الخليفة أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (٣٦٠هـ = ٩٧١م)، وبعد هذا جعله الخليفة العزيز بالله مكاناً للعلم والعلماء، حيث أمر بشراء دار وبنائها وتمّ ذلك بجانب الأزهر، وأمّا مكتبة الجامع الأزهر فقد أنشئت بعد عشرين سنة من بناء الأزهر (٣٨١هـ = ٩٩١م)، وأصبحت في عهد العزيز بالله الفاطمي مؤسسة تعليمية للعلماء والفقهاء وطلاب العلم، وفي عهد الحاكم بأمر الله أضاف إلى ما كان موجوداً في عهد العزيز بالله الفاطمي المجلدات التي كانت بدار العلم، كما جاء في الوقفية التي أوقفها لدار العلم، والجامع الأزهر، وجامع راشدة، وجامع المقس<sup>(١)</sup>، وقد استمرّ في تأدية مهمته العلمية قرابة قرنين، وتوقف في العصر الأيوبي، حيث قُطعت صلاة الجمعة فيه، ولكنه بقي كمعهد للدراسات والقراءات إلى أن أُعيدت له مكانته السابقة في عصر السلطان الظاهر بيبرس عام (٦٦٥هـ = ١٢٦٧م)، عندما أمر بتجديده وأحياء مآثره، فأُعيدت إليه صلاة الجمعة، ورتب به درساً لقراءة الفقه الشافعي<sup>(٢)</sup>.

---

الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ٨، ص ٨٧. تاريخ ابن الفرات: ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٢٩. ظهر الإسلام: أحمد أمين، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٥، ج ١، ص ١٩٨ - ١٩٩.

(١) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ١، ص ٩٠ - ٩١ - ٩٦.

(٢) نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك: علي سالم الشاهين، الناشر: دار الفكر العربي، ط ١ (١٤٠١هـ = ١٩٨١م)، ص ٢٤٢. البداية والنهاية: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ = ١٣٧٢م)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار عالم الكتب للطباعة، الرياض، ط ٢ (١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م)، ج ١٧، ص ٤٦١ - ٤٧٠.

كما تابع المماليك والأمراء والفقهاء والعلماء اهتمامهم بالأزهر ومكتبته، فقاموا بإيقاف الأوقاف عليهما لمتابعة الحياة العلمية والعملية<sup>(١)</sup>، ومن أوقف كتبه على هذا الجامع، الشيخ سليمان الإيشادي حيث أوقف كتبه على الفقراء والمساكين القاطنين بالجامع، للذين لا يملكون إلا الشيء القليل من الكتب<sup>(٢)</sup>، ومن أوقف الكتب أيضاً الشيخ عيسى بن عبد الرحمن الزواوي المغربي، وذلك على رواق المغاربة من أبناء جلدته، من طلبة العلم والفقراء في الأزهر، وهذا يشير إلى أن كل رواق في الجامع الأزهر يحتوي على خزانة كتب خاصة بالمجاورين المقيمين فيه<sup>(٣)</sup>.

الجامع الحاكم: بني خارج باب الفتوح، أحد أبواب القاهرة، وأول من أسسه أمير المؤمنين العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله معدّ، وقد خطب فيه وصلى بالناس الجمعة، ثم أكمله ابنه الحاكم بأمر الله، وبعد قيام أمير الجيوش بدر الجمالي بتوسيع القاهرة أصبح داخلها، وكان يعرف أولاً بجامع الخطبة، وبعدها جامع الحاكم، ويقال له أيضاً الجامع الأنور، وهو ثاني

---

(١) وثيقة وقف الأمير يشبك بن مهدي الداودار: محكمة ١٨٨، محفظة ٢٨. السلطان برج من بروق: محكمة ٦٦، محفظة ١١. وثيقة السلطان حسن بن قلاوون: ٨٨١ أوقاف. وثيقة الأمير قرقماس: ٩٠١ أوقاف. وثيقة سليمان الإيشادي: محكمة ٢٧٨، محفظة ٤٣، نشر عبد اللطيف إبراهيم. وثيقة عيسى الزواوي: محكمة ١٨٦، محفظة ٣١، نشر عبد اللطيف إبراهيم. وثيقة صلاح الدين بلجك: ٦٢٣ أوقاف. وثيقة فاطمة بنت عبد الله الجركسي: ١٨٢ أوقاف. وثيقة الزيني خشقدم: ١٨٨ أوقاف. وثيقة زينب بنت العلائي: ١٥٩٥ أوقاف. وثيقة جوهر اللالا: محكمة ٨٠، محفظة ١٢، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٨٤.

(٢) وثيقة سليمان الإيشادي: محكمة ٢٧٨، محفظة ٤٣، نشر عبد اللطيف إبراهيم، مكتبته وثيقة القاهرة (١٣٨١هـ = ١٩٦٢م)، ص ١٣-١٤، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٨٤.

(٣) وثيقة عيسى الزواوي: محكمة ١٨٦، محفظة ٣١، نشر عبد اللطيف إبراهيم، وثيقة استلام كتب، القاهرة (١٣٨١هـ = ١٩٦٢م)، ص ١٣، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٨٤.

جامع يُبنى في القاهرة<sup>(١)</sup>، وقد أصبح الجامع الحاكم من منافسي الجامع الأزهر، وقد يكون قد سبقه أيضاً<sup>(٢)</sup>.

وقد استمر اهتمام المماليك به، وتمّ تجديد هذا الجامع بعد زلزال مصر الذي هدم الكثير من المساجد والمدارس، وتصدعت الابنية والجوامع، ومنها جامع الحاكم، وكان ذلك سنة (٧٠٢هـ = ١٣٠٢م)، ولقد أوكل السلطان الناصر محمد بن قلاوون الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير لإعادة عمارة ما تهدم منه، وقد رتبّ فيه الدروس على المذاهب الأربع، وجعل له أوقافاً كثيرة، وجعل به خزانة كتب وأوقف: «بما نحو خمسمائة مجلد من كتب العلوم والأدب والتاريخ وغير ذلك من فنون العلم وختمات شريفة وربعات، ورتب لشاهدها في كلّ شهر ثلاثين درهماً، واستنسخ ختمة شريفة سبعة أجزاء في ورق بغدادي كامل كتبت بالذهب المحلول بخط شرف الدين بن الوحيد، حلّ له جملة من الذهب وصرف عليها جملة في أجرة كاتب وترميل، وتذهيب آيات وأعشار وسور وفواتح وتجليد، حيث وقفها بالجامع، يقرأ منها في كلّ يوم جمعة قبل الخطبة، ورتب للقارئ في كلّ شهر معلوماً» كما قال النويري<sup>(٣)</sup>.

دار العلم: وهي بجوار القصر الغربي، ويدخل إليها من باب التبانين، ومكانها أصبح يعرف بدار الخضير، وقد فتحت سنة (٣٩٥هـ = ١٠٠٥م)، بناها الحاكم بأمر الله، وتعرف أيضاً بدار الحكمة، استمرت حتى أبطلها الأفضل بن أمير الجيوش، وقد كانت بها خزانة كتب، حيث يذكر المقرئ عن الكتب التي فيها: «وحمّلت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة،

(١) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ١، ص ١٠٧-١٠٨.

(٢) ظهر الإسلام: أحمد أمين، ج ١، ص ١٩٨. خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ١، ص ١١٢.

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب: النويري، ج ٣٢، ص ٣٩-٥٨-٦٠. خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ١،

ص ١١٤-١١٦. حسن المحاضرة: السيوطي، مج ٢، ص ٢٢٢.



ودخل الناس أليها ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها ما التمسه، وكذلك من رأى قراءة شيء مما فيها»<sup>(١)</sup>، وفي كتاب «اتعاظ الحنفا» يذكر المقرئزي: «وأخرج ما في دار العلم في القاهرة، وصار إلى عماد الدولة أبي الفضل بن المحترف بالإسكندرية كثير من الكتب، ثم انتقل منها الكثير بعد مقتله إلى الغرب»، وقد بيعت وأهينت، وأحرقت هذه الكتب حتى أصبحت هناك تلالاً من رمادها<sup>(٢)</sup>، وقد كانت مكتبتها غايةً في التنظيم من حيث الخدمة<sup>(٣)</sup>.

أما ما يخص المكتبات في العصر الأيوبي فالجدير بالذكر أنهم أساتذة المماليك وأن المكتبات التي أنشئت في العصر الأيوبي استمرت في عصر المماليك وسوف نتحدث عنها في العصر المملوكي.

---

(١) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٢، ص ٥٠٢.

(٢) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء: المقرئزي، تحقيق: جمال الدين الشيال، الناشر: وزارة الاوقاف، مصر، ط ٢ (١٤١٦هـ = ١٩٩٦م)، ج ٢، ص ٢٩٥.

(٣) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٢، ص ٥٠٣.

## الفصل الثالث: المكتبات المملوكية

## أولاً: عوامل ازدهار المكتبات في العصر المملوكية

١- دعوة الإسلام للعلم: إن الفكر الإسلامي قد حضّ على العلم وطلبه، فقد حضّ القرآن على طلب العلم والمعرفة، وقد وردت الكثير من الآيات التي شجعت على ذلك ومنها قول الله جل جلاله: ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (الملك، آية: ٢٢)، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (الزمر، آية: ٩)، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأنعام، آية: ٥٠)، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ (الرعد، آية: ٦)، وقد حث النبي ﷺ على طلب العلم فقد قال: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له طريقاً إلى الجنة»<sup>(١)</sup>، وعنه ﷺ قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»<sup>(٢)</sup>.

إنّ هذه الدعوات من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هي من أهمّ الدوافع للعلم وطلبه، فسعى العلماء وطلبة العلم إلى إكمال هذه المهمة بطلب العلم، وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

على الهدى لمن استهدى

«ما الفخر إلا لأهل العلم أتمّ»

أدلاء

والجاهلون لأهل العلم أعداء

وقدر كلّ امرئ ما كان يحسنه

(١) رياض الصالحين: أبي زكرية يحيى بن شرف النووي دمشقي (٦٣١ - ٦٧٦هـ) = (١٢٣٤ - ١٢٧٧م)،

تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، لبنان، ط٢ (١٤١٨هـ = ١٩٩٧م)، ص ٣٩٠

(٢) رياض الصالحين: النووي، ص ٣٩٠.

ففر بعلم تعش حيا به أبدا

الناس موتى وأهل العلم

أحياء»<sup>(١)</sup>.

وازدهرت البلاد الإسلامية في العصور الوسطى علمياً، ومن الطبيعي أن تكون المكتبات هي خير حافظ لما يقدمه العلماء من الكتب.

٢- الغزو المغولي: بعد غزو المغول لبغداد ودخولهم إليها بقي السيف يعمل فيها ٣٤ يوماً، وآخر جمعة خطب الخطيب ببغداد قائلاً «الحمد لله الذي هدم بالموت مشيد الأعمار وحكم بالفناء على أهل هذه الدار، إلى أن قال: اللهم أجرنا في مصيبتنا التي لم يصب الإسلام وأهله بمثلهما، وإنا لله وإنا إليه راجعون»<sup>(٢)</sup>، وقد بنى هولاء بكتب العلماء اصطبلات الخيول، وطولات المعالف عوضاً عن اللبن، وقيل: إن ماء دجلة تغير لكثرة ما ألقى التتار من الكتب والأوراق، وقيل: إنه أقام بكتب العلم ثلاثة جسور على دجلة<sup>(٣)</sup>.

وبعد هذه الخسارة الكبيرة للحضارة العربية والإسلامية وجد العلماء الأمن في بلاد مصر وبلاد الشام، وخاصةً بعد انتصار المماليك على التتار في معركة عين جالوت، فوجدوا أنفسهم مسؤولين لإعادة هذا الصرح المنهار، فسعوا لإعادة هذا العلم من خلال المؤلفات وحفظها لتعويض ما ضاع من الكتب في بغداد.

٣- مصر قبلة العلماء وطلبة العلم: هناك عدّة عوامل جعلت من مصر قبلة العلماء وطلبة العلم، ليتّموا حياتهم العلمية على أكمل وجه، ومن هذه العوامل:

(١) إحياء علوم الدين: محمد بن محمد الغزالي، الناشر: دار المعارف، بيروت، ج ١، ص ٧.

(٢) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ٧، ص ٤٧ - ٤٨.

(٣) الإسلام والحضارة العربية: محمد كورد علي، الناشر: مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ط ٢ (١٣٦٩هـ = ١٩٥٠م)، ص ٣٢٣.

أ- بعد دخول المغول بغداد خسرت الأمة الإسلامية الكثير من العلماء على يد التتار، ومنهم جمال الدين أبي فرج بن الجوزي مع أولاده الثلاثة<sup>(١)</sup>، وجمال الدين أبو زكريا يحيى بن يوسف الصرصري الفاضل المادح الضرير البغدادي الشاعر الذي جعل معظم شعره في مدح الرسول ﷺ<sup>(٢)</sup>، وتاج الدين بن صلاحية محمد بن نصير بن صلاحية بن يحيى الهاشمي العلوي (ت ٥٦٥هـ = ١١٦٩م)<sup>(٣)</sup>، فتوجه كثير من العلماء إلى مصر والشام لتكملة علمهم وعملهم، ومنهم على سبيل المثال ابن شدّاد (ت ٦٨٤هـ = ١٢٨٥م)، وابن العديم (ت ٦٦٠هـ = ١٢٦١م)، وابن خلكان (ت ٦٨١هـ = ١٢٨٣م)<sup>(٤)</sup>.

وكذلك قدم العلماء إلى مصر والشام من الأندلس بسبب سوء الأوضاع في الأندلس، حيث انقسمت إلى دويلات وضعفت واحتل العدو كثيراً من أراضيها<sup>(٥)</sup>، ومنهم جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الطائي (ت ٦٧٢هـ = ١٢٧٣م) إلى دمشق<sup>(٦)</sup>، وكذلك أبو حيان الأندلسي أثير الدين محمد بن يوسف بن علي إلى مصر (ت ٧٤٥هـ = ١٣٤٤م)<sup>(٧)</sup>، وكذلك

(١) سير اعلام النبلاء: الذهبي، تحقيق: شعيب أرنؤوط، الناشر: مؤسّسة الرسالة، ج ٢٢، ص ٣٨٦. البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٧، ص ٣٧٦ - ٣٧٧.

(٢) سير اعلام النبلاء: الذهبي، ج ٢٢، ص ٣٨٦. البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٧، ص ٣٧٦.

(٣) الواقي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: أحمد الأرنؤوط - تركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث، بيروت، (١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م) ج ٥، ص ٨٨.

(٤) الأدب في بلاد الشام في عصر الزنكيين والأيوبيين والمماليك: موسى باشا عمر، الناشر: المكتبة العباسية، دمشق، ٢ (١٣٩١هـ = ١٩٧٢م)، ص ١٠٧. جوانب من حركة التأليف التاريخي في العصر المملوكي: خليل الحسين، ص ٨٨ - ٨٩.

(٥) الأدب في بلاد الشام في عصر الزنكيين والأيوبيين والمماليك: موسى باشا عمر، ص ١٠٧.

(٦) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٧، ص ٥١٤. فوات الوفيات: محمد بن شاعر الكنتي، تحقيق: احسان عباس، الناشر: دار صادر، بيروت، ط ١، ج ٣، ص ٤٠٧.

(٧) طبقات الشافعية: أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة، الناشر: عالم الكتب، بيروت، ط ١ (١٤٠٧هـ = ١٩٨٦م)، ج ٣، ص ٦٧. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: جلال الدين عبد الرحمن

هناك من رحل من المغرب إلى مصر، مثل ابن خلدون الذي وصف مصر بقوله: «واختصّ العلم بالأمصار موفورة الحضارة، ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر فهي أمّ العالم وإيوان الإسلام وينبوع العلم والصنائع»<sup>(١)</sup>، وتجمّع العلماء في مصر والشام لا بدّ أن يؤثر على عملية تجميع الكتب في المكتبات التي يستفادون منها والتي يقومون بتزويدها بمؤلفاتهم.

ب- وكذلك من الأمور الهامة التي جعلت مصر قبلة العلماء هو انتقال الخلافة بعد سقوطها في بغداد إلى مصر، وهذا ما أكّده السيوطي في قوله: «واعلم أنّ مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها، وكثرت شعائر الإسلام فيها، وعلت فيها السنة، وعفت منها البدعة وصارت محلّ سكن العلماء، ومحطّ الرجال الفضلاء، وهذا من أسرار الله أودعه في الخلافة النبوية، حيث ما كانت يكون فيها مستقبل الحركة العلمية»<sup>(٢)</sup>.

٤- تشجيع السلاطين والأمراء والمماليك: ومن خلال قراءة العصر المملوكي نلاحظ حرص الكثير من سلاطين المماليك وامرائهم على الحفاظ على الدين، وتشجيع العلماء على تقديم تحفهم، ومنهم من كان يشارك العلماء فمثلاً الظاهر بيبرس قال عنه ابن تعزي بردي: «كان يميل إلى التاريخ وأهله ميلاً زائداً ويقول سماع التاريخ أعظم من التجارب»<sup>(٣)</sup>، وكذلك كان مولعاً بعلم النجوم<sup>(٤)</sup>، وكان الأشرف خليل بن قلاوون «يطارح الأدباء بذهن رائق وذكاء

---

السيوطي (٨٤٩ - ٩١١هـ) = (١٤٤٥ - ١٥٠٥م)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العصرية، لبنان، صيدا، ج ١، ص ٢٨٠

(١) مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨هـ) = (١٣٣٢ - ١٤٠٦م)، تحقيق: خليل شحادة، الناشر: دار الفكر، ط ٢ (١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م)، ص ٧٤٩.

(٢) حسن المحاضرة: السيوطي، مج ٢، ص ١٠٢.

(٣) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ٧، ص ١٦٢.

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئ، ج ١، ق ٢، ص ٦٣٥.

مفرد، لا يعلم على مكتوب حتى يقرأه كَلَّه»<sup>(١)</sup>، ومن عصر السلاطين الشراكسة السلطان الظاهر برقوق، فقد كان يقوم للفقهاء والصلحاء إذا دخل أحد منهم عليه، ولم يكن يعهد ذلك من ملوك مصر قبله<sup>(٢)</sup>.

واستمرّ هذا الاهتمام حتى أواخر عصر المماليك، فالسلطان الغوري كانت تعقد عنده المجالس العلمية والدينية، وكان النقاش يدور في هذه المجالس<sup>(٣)</sup>، كذلك اتّبع الأمراء سلاطينهم في هذا الأمر، وقد كان بعضهم من يشتغل بالعلم من تاريخ وفقه وحديث ولغة، وقد عمل بعضهم لإقراء الطلبة والتدريس، مثل الشيخ ناصر الدين أبو عبد الله الجوبائي الذي كان إماماً للأشرفية، وتصدى لأقراء الطلبة<sup>(٤)</sup>، وقد قام هؤلاء ببناء المؤسسات التعليمية وإلحاق المكتبات بها.

٥- دور العلماء في ازدهار المكتبات: ومن خلال ما ذكرناه نرى بأنّ مصر وبلاد الشام قد هيّأتا للعلماء وطلبة العلم أن يصبحوا مناهلاً للعلم كالأشجار المثمرة تجود بثمارها على من طلبها، وبعد انتقال مركز العلم من بغداد إلى مصر، وإبادة كتب بغداد ومؤلفاتها، رأى العلماء أنّهم أمام مسؤولية كبيرة لإعادة المجد لهذه الأمة، ولنشر الدين وتجديد العلم وجمع شتات المعارف وتضمينها كتباً تكون عوضاً عما أُبِيد، ولذلك لجأوا إلى تدوين الكتب لحفظ العلم من

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج ١، ق ٣، ص ٧٩٠.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج ٣، ق ٢، ص ٩٤٤.

(٣) المجتمع المصري: عاشور، ص ١٤٢.

(٤) التبر المسبوك: السخاوي، ص ٤١٥.

الضياع<sup>(١)</sup>، وقد كان عصر المماليك يُبنى بكثرة الرجال - أي العلماء - حصون الدفاع السليمة وأسوار الثبات بعد عصر الهجوم والتوسع الحربي<sup>(٢)</sup>.

فالكثير من المكتبات في مصر والشام وتركيا وغيرها تحوي العديد من الكتب التي تعود لعصر المماليك، ولقد قام العديد من هؤلاء العلماء ببناء المؤسسات التعليمية وإلحاق المكتبات بها، وكذلك تزويد المكتبات بتحفهم التي انتجوها من العلم.

---

(١) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي: محمود رزق سليم، مج ٣، ج ٢، ق ١، ص ٢٥ - ٢٦.

(٢) موسوعة دول العالم الإسلامي: شاکر مصطفى، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت، ط ١ (١٤١٣هـ = ١٩٩٣م)، ج ٢، ص ١١٠٣ - ١١٠٤.



## ثانياً: المكتبات المملوكية

### مكتبات مصر في العصر المملوكي

#### المكتبات الخاصة

كان سلاطين المماليك يحرصون على أن يكون قصر كلٍّ منهم ملتقى للعلم والعلماء، ومنهم السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون (٧٤٨ - ٧٥٢هـ) = (١٣٤٧ - ١٣٥١م)، حيث كان معروفاً بإقباله على الاشتغال بالعلم، حتّى أنه كتب بخطه كتاب «دلائل النبوة» للبيهقي، وكان ذلك عندما خلع وسجن<sup>(١)</sup>، وقد كان السلطان (المؤيد شيخ) الحمودي ثمّ الظاهري برفوق المؤيد أبو النصر الجركسي الأصل يحب العلماء ويعظمهم، ويكرمهم ويحسن إليهم، وكان يجالسهم، ويجلّ الشرح، ويدعن له، ويعظم حملته، وكان يجتمع بالعلماء يومي الأحد والأربعاء، وكذلك يجتمع بطائفة من الصلحاء يقعدون عنده في القصر، وهو فيهم كأحدهم، من قبل العصر بساعة إلى قرب المغرب، يتباحثون بالعلوم الشريفة والمسائل العويصة، وهو يسمعهم ويشاركهم، وكذلك يجتمع في أغلب ليالي الجمع مع جماعة من الفقهاء وطائفة من القراء والوعاظ، وكان يحسن عليهم ومّن أحسن إليهم بدر الدين العيني صاحب كتاب «السيف المهند في سيرت الملك المؤيد»<sup>(٢)</sup>.

وقد ذكر أبو المحاسن عن السلطان الظاهر بيبرس في ذكره لسنة (٦٧٦هـ = ١٢٧٧م):  
«بأنه كان يقرب أرباب الكمالات من كلّ فن وعلم، وكان يميل إلى التاريخ وأهله ميلاً زائداً»<sup>(١)</sup>.

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئ، ج٣، ق١، ص١. الدرر الكامنة: ابن حجر، ج٢، ص١٢٥.

(٢) الضوء اللامع: السخاوي، ج٣، ص٣٠٩. السيف المهند في سيرة الملك المؤيد: بدر الدين العيني، ص٢٧٤.

(١) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج٧، ص١٦٢.

وقد استمرت إقامة هذه المجالس حتى أواخر عصر المماليك، أذ عرف السلطان قانصوه الغوري (٥٠٦هـ - ٥٢٢هـ) = (١٥٠٠ - ١٥١٦م) بمجالس تجتمع فيها العلماء والكبراء، وتطرح فيها للبحث مسائل شتى، وما يثبت نفائس هذه المجالس هو كتاب «نفائس المجالس السلطانية، في حقائق الأسرار القرآنية» الذي ألفه حسين بن محمد الحسيني، وهو كتاب في مقدّمة وعشر روضات، والمقدمة قصيرة، تتضمن كلام بعض السلاطين ومنهم الغوري، والروضات العشر يذكر في كلّ واحد منها مجالس السلطان.

وكذلك كتاب «الكوكب الدرّي في مسائل الغوري»، وقد تحدّث الكتابان عن المجالس والمسائل التي كانت تدور في عهد السلطان، والكتاب الأوّل مقسّم إلى مجالس، أمّا الثاني فالمسائل فيه متتابعة وفيه مسائل دينية طغت على معظم الكتاب، وكذلك توجد مسائل تاريخية وجغرافية ومسائل أخرى، وكانت الاجتماعات تحصل في كلّ أسبوع مرّة أو مرتين أو ثلاث مرّات<sup>(١)</sup>، ولم يك لهذه المجالس العلمية أن تتم عملها على ما يرام إلاّ بوجود مكاتب تساعد، ومنها المكتبة السلطانية الغورية، حيث أمّا كانت غنية بالكتب في مختلف العلوم، وكان بها كتاب أهداه الشاه اسماعيل الصفوي للغوري، وهو كتاب «تاريخ التتار»، ومن كتبها كتاب «كمال الفرحة في دفع السموم وحفظ الصحة» لمحمد بن محمد القوصوني، وقد كان السلطان الغوري نفسه مولعاً بقراءة كتب التاريخ والسير والقصص والعلوم الدينية، من توحيد وفقه وتفسير، وكذلك علوم اللّغة من نحو وبلاغة وغيرها<sup>(١)</sup>.

لم يك السلاطين وحدهم يعنون بجمع الكتب، بل أمراؤهم قاموا بذلك أيضاً فلقد كانت هناك العديد من هذه المكتبات في قصورهم، ومنهم تغري برمش سيف الدين الجلالی

---

(١) مجالس السلطان الغوري: عبد الوهاب عزام، ص ٥٠ - ٥١ - ٥٢ - ٥٣ - ٥٤. المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك: سعيد عبد الفتاح عاشور، ص ١٥٨.

(١) مجالس السلطان الغوري: عبد الوهاب عزام، ص ٤١ - ٤٣.

الناصري ثم المؤيدي، وقد كان نائب القلعة ويعرف بالفقيه، ولقد كان محباً للعلم سماعاً لأهله وخاصةً الحديث، حيث كان مستكثراً لكتبه في مكتبته (١٤٣٢هـ = ١٤٣٢م) <sup>(١)</sup>.

وكذلك مكتبة الأمير يشبك بن مهدي الظاهري جقمق الذي يعرف بالصغير (١٤٨٥هـ = ١٤٩٠م)، يذكر السخاوي بأنه: «كثر مادحه وتحصل الكتب النفيسة شراءً واستكتاباً»، وأنه كان يحب جمع الكتب، وكذلك يذكر السخاوي من الكتب التي كانت موجودة فيها كتاب «الوافي بالوفيات» للصفدي، وقد آلت هذه النسخة إلى مكتبة أحمد الثالث بعد الغزو العثماني <sup>(٢)</sup>.

وحكم قرا العلائي الظاهري جقمق المعروف بأمر أخور <sup>(٣)</sup> الجمال، وكان قد جمع الكتب العلمية، وكان يظهر التفقه والتدين (١٤٨٧هـ = ١٤٨٢م) <sup>(١)</sup>، ومحمد بن أحمد بن أينال العلائي داودار <sup>(٢)</sup> برسباني ولد سنة (١٤٣٧هـ = ١٤٣٣م)، كانت له مكتبة حرص على أن تكون فيها نفائس كتب العلم، وخاصةً التاريخ وكتب أخرى، وكان من حفاظ القرآن <sup>(٣)</sup>.

---

(١) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٣، ص ٣٣ - ٣٤.

(٢) الضوء اللامع: السخاوي، ج ١٠، ص ٢٧٢ - ٢٧٤. تاريخ المكتبات: النشار، ملحق أول، لوحة رقم ١٠، ص ٢٧٢.

(٣) أمير أخور أسم مركب أولاهما عربي وهو أمير والثاني فارسي وهو أخور يعني المعلق يعني أمير المعلق وهو يتولى أمر ما في الاسطبل من الخيول والأبل وغيرها. صبح الأعشى في صناعة الإنشا: القلقشندي، ج ٥، ص ٤٣٣. معيد النعم ومبيد النقم: للشيخ الإمام قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب السبكي، (ت ٧٧١هـ = ١٣٦٩م)، حققه: محمد علي النجار - وأبو زيد شليبي، الناشر: دار الكتاب العربي، مصر، ط ١ (١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م)، ص ٣٧. الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية: حسن باشا، الناشر: دار النهضة العربية، ج ١، ص ١٧٤ - ١٧٥.

(١) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٣ ص ٧٥.

(٢) الداودار: ويقوم بتبليغ الرسائل عن السلطان وإبلاغ عامة الأمور وتقديم القصص إليه والمشاورة على من يحضر إلى الباب الشريف وتقديم البريد ويأخذ الخط على عامة المناشير والتواقيع والكتب وإذا خرج عن السلطان

وكذلك كان هناك مكتبات خاصة للعلماء والفقهاء والقضاة، يرجعون إليها في قراءتهم وإطلاعهم وفي التأليف، وهم أكثر من أن يذكرها، لذلك سوف نقوم بذكر بعضهم ممن ملك خزانة كتب على سبيل المثال لا الحصر، فمنهم الأبيوردي الحافظ زين الدين أبو الفتح محمد بن محمد بن أبي بكر الصوفي الشافعي (ت ٦٦٧هـ = ١٢٦٨م)، وقد خرج لنفسه معجماً عن مشايخه الذين سمع منهم، وقد قام بوقف كتبه<sup>(١)</sup>.

ومنهم الشيخ جلال الدين محمد بن المسيب بن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه بن أبي قحافة القرشي المعروف بمولانا جلال الدين القونوي (ت ٦٧٢هـ = ١٢٧٢م)، وقد كانت له مكتبة خاصة، وقد أحرقت خزانة كتبه نتيجةً لحريق وقع في بيته<sup>(٢)</sup>.

والشيخ يحيى بن عبد الوهاب بن عبد الرحيم الدمهوري الشافعي تاج الدين الفقيه النحوي (ت ٧٢١هـ = ١٣٢١م)، وكانت عنده مكتبة أوقفها على الجامع الظاهري<sup>(٣)</sup>.

وقيل: إنَّ سليمان بن عبد القوي الطوفي المعروف بابن أبي عباس الحنبلي (٦٥٧-٧١٦هـ) طالع أكثر كتب خزائن قوص في مصر<sup>(٤)</sup>، وقد كان في قوص خزانة كتب من تصانيفه<sup>(٥)</sup>.

---

بكتابة شيء مرسوم حمل رسالته وعينت فيما يكتب. صبح الأعشى: القلقشندي، ج ٤ ص ١٩. معيد النعم: السبكي، ص ٢٥. الفنون الإسلامية: حسن باشا، ج ٢، ص ٥١٩.

(١) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٦، ص ٢٩٥.

(٢) العبر في خبر من غير: الحافظ محمد أحمد بن عثمان الذهبي، (٧٤٨هـ = ١٣٤٧م)، تحقيق: صلاح الدين المنجد، الناشر: مطبعة حكومة الكويت، (١٣٨٦هـ = ١٩٦٦م)، ج ٥، ص ٢٨٦-٢٨٧. عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان: بدر الدين محمود العيني (٨٥٥هـ = ١٤٥١م)، تحقيق: محمد محمد امين، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م)، ج ٢، ص ٥٥.

(٣) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان: بدر الدين محمود العيني، ج ٢، ص ١٢٩.

(٤) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر، ج ٥، ص ١٩٧.

والقاضي إبراهيم بن عبد الرحيم بن محمد بن سعد الله بن جماعة القاضي برهان الدين (ت ٧٩٠هـ = ١٣٨٨م)، يقول ابن حجر: «بأنه أقتنى من الكتب النفيسة بخطوط مصنفها وغيرهم ما لم يتهيأ لغيره، حيث أنه كان يشتري النسخة من الكتب التي إليها المنتهى في الحسن، ثم يقع له ذلك الكتاب بخط مصنفه فيشتريه، إلى أن أقتنى من الكتب ما لا يعبر عن كثرة، ثم صارت أكثرها لجمال الدين محمود<sup>(٣)</sup> الإستاذار<sup>(٤)</sup>، وقد كانت كتبه نواة مدرسة جمال الدين محمود الإستاذار، ويذكر المقرئ إن هذه المدرسة حوت: «كتب الإسلام من كل فن لا يعرف في بلاد الشام ومصر مثلها، ولا يخرج لأحد منها كتاب إلا أن يكون في المدرسة»<sup>(١)</sup>.

ومحمد بن محمد بن أحمد المراغي المصري (ت ٨١١هـ = ١٤٠٨م) الذي خلف كتباً كثيرة، تلف أكثرها بالأرضة وغيرها<sup>(٢)</sup>، وأحمد بن سليمان بن أحمد الشهاب المصري ثم الإسكندري المالكي ويعرف بالتروجي (ت ٨١٢هـ = ١٤٠٩م)، وكانت له مكتبة أوقف العديد

---

(١) الدرر الكامنة: ابن حجر، ج ٢، ص ٢٤٩ - ٢٥٢.

(٢) الدرر الكامنة: ابن حجر، ج ٢، ص ٢٥١.

(٣) الدرر الكامنة: ابن حجر، ج ١ ص ٣٩ - ٤٠. إنباء الغمر بأنباء العمر: ابن حجر العسقلاني، ج ١، ص ٢٩٣.

(٤) الأستدارية: وهو من أرباب السيوف يتولى أمر بيوت السلطان كلها من مطابخ والحاشية والشراب خاناه والحاشية والغلمان وهو الذي يمشي بطلب السلطان وله مطلق التصرف في استدعاء ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من النفقات والكساوي وما يجري مجرى ذلك للمماليك وغيرهم. صبح الأعشى: القلقشندي، ج ٤، ص ٢١. معيد النعم: السبكي، ص ٢٦.

(١) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ٢، ص ٥٩٠ - ٥٩٣ - ٥٩٤.

(٢) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٩، ص ٢٩ - ٣٠.

منها في رباط الخوزي من مكة<sup>(١)</sup>، ومنهم أيضاً أحمد الشهاب الحجيراني اللؤلؤي (ت ٨٢٧هـ = ١٤٢٤م)، وكانت عنده كتباً كثيرة<sup>(٢)</sup>.

وأبو حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ = ١٤٤٨م)، حيث كانت له تصانيف كثيرة يزيد على مائة وخمسين تصنيفاً، وقد كانت له مكتبة خاصة<sup>(٣)</sup>، وله كتاب شرح البخاري، ويقول السخاوي في كتاب «التبر المسبوك» عن هذا الكتاب: «لو لم يكن له إلا شرح البخاري لكان كافياً في علوّ قدره»<sup>(٤)</sup>.

وكذلك القاضي أحمد بن محمد بن بركوت الصلاح بن الجمال بن الشهاب المكي الذي قام باقتناء الكتب النفيسة<sup>(٥)</sup>، وأحمد بن عبد الرحيم بن حسن بن الحسين بن علي بن القسم الشهاب (ت ٨٩٨هـ = ١٤٩٣م)، وقد كتب الكثير من الكتب بخطه ومنها «طبقات ابن السبكي الكبرى»، و«تاريخ قزوين للرافعي» وقام ببيع كتبه بسبب الحاجة<sup>(١)</sup>، وأحمد بن هارون الشهاب الشرواني الشافعي (ت ٩٠٠هـ = ١٤٩٥م)، وكانت عنده كتب، وبعد وفاته جيء بها للجامع الأزهر<sup>(٢)</sup>، ومحمد الغزيّ الشافعي (ت ٩٠٠هـ = ١٤٩٥م)، وكانت عنده

---

(١) الضوء اللامع: السخاوي، ج ١، ص ٣٠٧ - ٣٠٨.

(٢) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٢، ص ٢٥٦.

(٣) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٢، ص ٣٦ - ٣٨. التبر المسبوك في ذيل السلوك: السخاوي، ص ٢٣٠ - ٢٣١.

(٤) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٢، ص ١٨٤. التبر المسبوك: السخاوي، ص ٢٣١.

(٥) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٢، ص ٩٩ - ١٠٠.

(١) الضوء اللامع: السخاوي، ج ١، ص ٣٣٦.

(٢) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٢، ص ٢٤٠.

مكتبة خاصّة انتقلت إلى خزانة كتب الأمير يشبك الدوادار، ومن ضمنها كتاب «الوافي بالوفيات»<sup>(١)</sup>.

ومنهم أحمد بن أسد بن عبد الواحد الأصل الاسكندراني (ت ٩٠٠هـ = ١٤٩٥م)، حيث كانت له علوم كثيرة، وبرع في علم الشروط<sup>(٢)</sup>، وقد كانت عنده كتب نفيسة وأعتنى بكثير منها، حيث حشاها وقيد مُشكلها، أي جعل لها حواشي وتعليقات وفوائد<sup>(٣)</sup>، وذكربا ابن القاضي زين الدين الانصاري الشيخ الإمام (ت ٩٢٦هـ = ١٥٢٠م)، يذكر عنه الغزيّ بأنّه: «جمع من الأموال والكتب النفيسة ما لم يتفق لمثله»<sup>(٤)</sup>.

وقد كان بعض هؤلاء العلماء يضمّ أكثر من مكتبة، مثل شافع بن علي الإمام الأديب ناصر الدين ابن عباس بن اسماعيل بن عساكر الكناني العسقلاني ثمّ المصري (ت ٧٣٣هـ = ١٣٣٠م)، وكان جماعاً للكتب خلف ثماني عشرة خزانة كتب، وكانت زوجته تعرف ثمن كلّ كتاب، وبقيت تباع منها إلى أن خرجت من القاهرة سنة (٧٣٩هـ = ١٣٣٨م)، وكان إذا لمس

(١) تاريخ المكتبات: النشار، ص ٧٨.

(٢) علم الشروط والسجلات: هو علم باحث عن كيفية ثبت الأحكام الثابت عند القاضي في الكتب والسجلات على وجه يصح الاحتجاج به عند انقضاء شهود الحال وموضوعه تلك الأحكام من حيث الكتابة وبعض مبادئه من علم الإنشاء وعلم الفقه وله استمداد في العرف. مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم: أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبري زاده، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ج ١، ص ٢٤٩. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: المولى مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي الشهير بالملا كاتب الجلبي والمعروف بحاجي خليفة (١٠١٧هـ = ١٠٦٧هـ)، الناشر: دار الفكر، (١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م)، ج ٢، ص ١٠٤٥ - ١٠٤٦.

(٣) الضوء اللامع: السخاوي، ج ١ ص ٢٢٧ - ٢٣٠ - ٢٣١.

(٤) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة: للشيخ نجم الدين الغزيّ، تحقيق: جبرائيل سليمان جبور، الناشر: دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط ٢ (١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م)، ج ١، ص ١٩٦ - ١٩٩.

الكتاب وجسته قال: «هذا الكتاب الفلاني، وهو لي ملكته في الوقت الفلاني»، وكان قد أصيب بالعمى، وإذا أراد أي مجلد كان يتناوله من الخزانة وكأته الآن وضعه بيده<sup>(١)</sup>.

وكان بعضهم مسرفاً في اقتناء الكتب، وزخرفتها وتجليدها وصيانتها، فهذا أحمد بن علي قرطاي الشهاب أبو الفضل بن بكتمر الساقى (ت ٨٤١هـ = ١٤٣٧م) يقتني الكتب النفيسة بالخطوط المنسوبة والجلود المتقنة، حيث أنه لدرجة إسرافه في ذلك قام بالاستدانة<sup>(٢)</sup>.

وكذلك الشيخ علي بن سليمان الإبشادي، فقد حوت مكتبته على كتب لجميع المعارف الإنسانية السائدة في عصره، وكان يسمح بإعارتها، وقد أوقفها على الجامع الأزهر<sup>(٣)</sup>، والحسين بن علي بن سالم بن اسماعيل البدر الفوي (ت ٨٩١هـ = ١٤٨٦م)، وكانت عنده مكتبة خاصة وبيعت كتبه بالعدد لكثرتها وجهل الناس<sup>(٤)</sup>.

ويلاحظ مما سبق أنّ المكتبات الخاصة انتشرت بشكل كبير في كافة أنحاء البلاد، وحرص الناس والطبقات والفئات على اقتنائها، حتى كانت عند الأغنياء مظهر من مظاهر ثرائهم<sup>(١)</sup>.

---

(١) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ٩ ص ٢٠٧. أعيان العصر وأعوان النصر: الصفدي، ج ٢، ص ٥٠١ - ٥١٢.

(٢) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٢، ص ٣٠ - ٣١.

(٣) وثيقة الإبشادي: محكمة ٢٧٨، محفظة ٤٣، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٧٩.

(٤) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٣، ص ١٤٩ - ١٥٠.

(١) تاريخ المكتبات: النشار: ص ٨٠.



## مكتبات المساجد والجوامع

كان هناك نوع آخر من المكتبات الإسلامية في بلاد الشام ومصر يوجد بمساجد المسلمين، حيث أنّ المسجد له قدسيّة عند المسلمين، ومنه تخرّج الكثير من العلماء والأبطال الذي يشهد لهم التاريخ الإسلامي بذلك.

وقد حضّ الإسلام على بناء المساجد حيث قال الله جلّ في علاه: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (التوبة، آية: ١٨)، وقد قال الرسول ﷺ: «من بنى مسجداً لله بنى الله له في الجنة مثله»<sup>(١)</sup>.

كما أنّ الإسلام حضّ على طلب العلم، وأعطى العلماء وقدرهم، حيث قال الله جلّ جلاله: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة، الآية: ١١). وبما أنّ طلب العلم ملزوم بوجود الكتب فقد وجدت الخزانات في المساجد لجمع الكتب وحفظها، ولعلّ ما جعل حفظ الكتب في المساجد من أفضل الأماكن، ذلك لأنّ المسجد له قدسيّة تمنع أحداً من أن يصيبه أو يلحقه به النهب والسلب، وخاصّة في أيام الفتن والحروب والثورات.

وكان من أوائل وقف الكتب والمصاحف بالمساجد، هو مصحف أسماء بنت أبي بكر بن عبد العزيز بن مروان على جامع عمرو بن العاص سنة (١١٨هـ = ٧٣٦م)<sup>(١)</sup>، وكانت أكثر

---

(١) صحيح مسلم: للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦-٢٦١هـ) = (٨٢١-٨٧٥م)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار عالم الكتب، الرياض، ط١ (١٤١٧ = ١٩٩٦م)، ج ١، ص ٣٧٨.

(١) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ١، ص ٣٠.

مكتبات المساجد من المصاحف، وهذا لا يعني أنّها لم تضم كتب أخرى غير المصاحف، وبما أنّ المساجد انتشرت في الإسلام من الهند إلى الأندلس فهذا يعني انتشار المكتبات معها<sup>(١)</sup>، وقد بلغ عدد المساجد الجامعة كما يذكر المقرئ في مدينة مصر مائة وثلاثين مسجداً<sup>(٢)</sup>.

ويجب أن نميّز بين الجامع والمسجد، حيث أنّ الجامع يميّزه بأنّه تقام فيه صلاة الجمعة أي وجود منبر للخطيب، أمّا المسجد فلا تقام فيه سوى الصلوات الخمسة، وكان من الأمور المألوفة أن يكون هناك مسجداً جامعاً واحداً في المدينة، ومع نمو المدينة تعددت المساجد الجامعة<sup>(٣)</sup>.

ومن الجوامع التي حوت على خزاناتٍ للكتب جامع الظاهر: وهو خارج القاهرة، أنشأه الملك الظاهر بيبرس البندقدار في سنة (٦٦٥ - ٦٦٧هـ) = (١٢٦٧ - ١٢٦٨م)<sup>(٤)</sup>، وقد جعل به خزانة كتب، ومن أوقفوا كتبهم عليه يحيى بن عبد الوهاب بن عبد الحلیم الدمهوري الشافعي تاج الدين (ت ٧٢١هـ = ١٣٢١م)<sup>(١)</sup>.

جامع الخضيرى: وهو بناحية بولاق خارج القاهرة، وكان موضعه مكان مغمور بالماء، وبعد انحسار النيل نحو سنة (٧٠٠هـ = ١٣٠٠م) على ساحل المقس، صارت أمام المقس رمال لا تصلها المياه إلا نادراً، وبعد هذا بفترة أصبحت المياه لا تصلها ابداً، واشتراها الأمير عز

---

(١) الوقف وبنية المكتبة العربية: يحيى محمود ساعاتي، الناشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط٢ (١٤١٦هـ = ١٩٩٦م)، ص ٦٤ - ٧٦.

(٢) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤ ج ١، ص ٤.

(٣) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ١، ص ٣٦ مقدمة المحقق، ص ٧.

(٤) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ١، ص ١٨٨ - ١٨٩ - ١٩٢. النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ٧، ص ١٤٥ - ١٦٩.

(١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر، ج ٥، ص ١٩٧.

الدين أيدير الخضيرى، وكان قد صادرها من تاج الدين ابن الأزرق ناظر الجهات، وهذا قد نشر الفسق بها، وحوّلها الأمير عز الدين أيدير الخضيرى إلى جامع بعد هدم الدار، وكملت عمارته سنة (٧٣٧هـ = ١٣٣٦م)<sup>(١)</sup>، وقد جعل بهذا الجامع خزانة كتب جليلة ونفيسة<sup>(٢)</sup>.

الجامع الأبيض: قام فرج بن برقوق بإنشائه، وقد جعل به خزانة كتب بالجانب الشمالي الغربى، حفظت بها كتب القرآن وكتب علوم الدين، وقد قام بتخصيص مشرف للمكتبة<sup>(٣)</sup>.

الجامع المؤيدى: فهو بجوار باب زويلة من داخله، وكان موضعه خزانة شمائل، حيث يسجن أرباب الجرائم، وقد أنشأه السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى الظاهر، وكان الابتداء فى بنائه سنة (٨١٩هـ = ١٤١٦م)، وانتهى بناؤه سنة (٨٢٢هـ = ١٤١٩م)، وكان السبب فى اختيار هذا المكان كما يذكر المقرئى عن السلطان: «حُبس فى خزانة الشمائل هذه أيام تغلب الأمير منطاش وقبضه على الممالىك الظاهرية، فقاسى فى ليلة من البق والبراغيث شداًئداً، فنذر لله تعالى إن تيسر له ملك مصر أن يجعل هذه البقعة مسجداً لله عز وجل ومدرسة لأهل العلم، فاختار هذه البقعة وفاء لنذرته»<sup>(١)</sup>، وقد جعل بها خزانة كتب، يقول المقرئى فيها: «ثم نزل السلطان فى عشرين المحرم إلى هذه العمارة، ودخل خزانة الكتب التى

(١) خطط المقرئى: المقرئى، مج ٤، ج ١، ص ٢٥١-٢٥٢.

(٢) يوجد بدار الكتب مصحف رقم ٤ مصاحف، كان قد وقفه السلطان محمد بن قلاوون على خزانة هذا المسجد. وكان من بين ما يوجد بهذه الخزانة كتاب «جامع التواريخ المصرية»، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٨٦. كذلك توجد صورة لمصحف السلطان قلاوون وعليه نصّ الوقف على جامع بالقلعة، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ملحق الأول، لوحة رقم ٤، ص ٢٦٦.

(٣) الوثائق والعمارة دراسة فى العمارة الإسلامية فى العصر المملوكى: الجامع الأبيض بالحوش السلطانية بقلعة القاهرة، صالح لمعى مصطفى، الناشر: دار النهضة العربية، ص ٢١.

(١) خطط المقرئى: المقرئى، مج ٤، ج ١، ص ٣٣٤-٣٤٠-٣٤٢-٣٤٦.

عملت هناك، وقد حمل إليها كتباً كثيرة في أنواع العلوم كانت بقلعة الجبل، وقدّم له ناصر الدين محمد البارزي كاتب السرّ<sup>(١)</sup> خمسمائة مجلّد، قيمتها ألف دينار، فأقرّ ذلك بالخزانة وأنعم على ابن البارزي بأن يكون خطيباً وخازناً للكتب هو ومن بعده من ذريته، وقد قيل: أنه اشترى كتاب «مرآة الزمان» بخط بعضهم بسبعمائة دينار<sup>(٢)</sup>.

جامع راشدة: الذي بني في سنة (٣٩٣هـ = ١٠٠٣م) وقد بناه الحاكم بأمر الله وقد كان مكانه كنيسة<sup>(٣)</sup>، وقد أوقف الكتب عليه<sup>(٤)</sup>، وقد استمرّ هذا الجامع في العصر المملوكي حيث يقول المقرئ في سنة (٧٤١هـ = ١٣٤١م) عن السلطان الناصر قلاوون: «وفيها جدّد السلطان جامع راشدة، وقد تهدم أكثر جدرانها»<sup>(٥)</sup>.

جامع المقس: الذي بناه أيضاً الحاكم بأمر الله على شاطئ النيل بالمقس، وقد كان يسمى في العصر المملوكي بجامع المقسي<sup>(١)</sup>، وقد أوقف الكتب عليه<sup>(٢)</sup>.

مسجد الأمير تمتاز الأحمدي: الذي أنشأه الأمير تمتاز أحد الأمراء الأخورية سنة (٨٧٦هـ = ١٤٧١م)<sup>(٣)</sup>، كذلك بنى أزبك من ططخ الأشرفي ثم الظاهري جقمق، جامع

---

(١) كاتب السرّ: وظيفته التوقيع عن الملك والاطلاع على أسراره التي يكتب بها وعنه تصدر التواقيع بالولايات والعزل وعليه تفهيم الملك القصص وعادة ما يتولى كاتب السرّ ديوان الإنشاء. معيد النعم ومبيد النقم: السبكي، ص ٣٠. الفنون الإسلامية: حسن باشا، ج ٢، ص ٩٢٢-٩٢٣.

(٢) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ١، ص ٣٤٣. بدائع الزهور: ابن إياس، ج ٢، ص ٤٧. حسن المحاضر: السيوطي، مج ١، ص ٣٩٣-٣٩٦.

(٣) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ١، ص ١٢٦.

(٤) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ١، ص ٩٦.

(٥) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئ، ج ٢، ق ٢، ص ٥١٦.

(١) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ١، ص ١٣٠-١٣٢.

(٢) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ١، ص ٩٦.

وجعل به خزانة لكتب العلم<sup>(٢)</sup>، وقد ألحق الأمير خايربك من مال باي وهو أحد أمراء قانصوه الغوري، خزانة كتب بمسجده بخط التبانة عام (١٥٠٢هـ = ١٥٠٢م)<sup>(٣)</sup>.

وفي الإسكندرية كان هناك جامع الثغر في القرن (الخامس الهجري = الحادي عشر ميلادي)، وفيه كتب مُحبسة يتولاها محمد بن الحسن بن زرارة أبو عبد الله الطائي<sup>(٤)</sup>.

## مكتبات المدارس

الظاهرية العتيقة: بناها الظاهر ركن الدين بيبرس بالقاهرة، من جملة خط بين القصرين، وكان الابتداء في عمارتها سنة (٦٦٠هـ = ١٢٦٢م)، وجعل بها خزانة كتب تشتمل على أمهات الكتب في سائر العلوم، وبني بجانبها مكتباً لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله العزيز<sup>(٥)</sup>، ويسمّيها كل من السخاوي والسيوطي بالقديمة تميّزاً لها عن المدرسة الظاهرية برقوق<sup>(٦)</sup>.

المدرسة المنصورية: أنشأ السلطان المنصور المدرسة المنصورية، والقبة، والمارستان (٦٨٣ - ٦٨٤هـ) = (١٢٨٤ - ١٢٨٥م)، وهي بخط بين القصرين بالقاهرة، وقد جعل بها خزانة

---

(١) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٣، ص ٣٦. تاريخ المكتبات: النشار، ص ٨٧.

(٢) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٢، ص ٢٧٠ - ٢٧٢.

(٣) تاريخ المكتبات: النشار، ص ٨٧.

(٤) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: السيوطي، ج ١، ص ٨٢.

(٥) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئ: ج ١، ق ٢، ص ٥٠٤. خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ٢، ص ٥٠٥ - ٥١٠. ذيل مرآة الزمان: الشيخ قطب الدين موسى بن محمد اليونيني (ت ٧٢٦هـ = ١٣٢٦م)، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط ٢ (١٤١٣هـ = ١٩٩٢م)، ج ٢، ص ٢٢٩ - ٢٣٠. النجوم الزاهر: ابن تغري بردي، ج ٧، ص ١٠٨.

(٦) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٨، ص ٢٩٩. حسن المحاضرة: السيوطي، مج ٢، ص ٢٢٨.

كتب، كان فيها عدّة أحمال من الكتب في أنواع العلوم<sup>(١)</sup>، وقد أمر السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا ببناء المدرسة الناصرية في موضع حمام بجوار القبّة المنصورية، فلمّا عُزل اشتراها منه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون عندما عاد للحكم، وأتمّ بناءها في سنة (٧٠٣هـ = ١٣٠٣م)، وأنشأ بجوارها قبة وجعل بها خزانة كتب جلييلة<sup>(٢)</sup>.

ومدرسة السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون: ابتداء بناؤها في سنة (٧٥٨هـ = ١٣٥٧م)، وكان موضعه دور واصطبلات، وقد قال عنه المقرئزي: «لا يعرف ببلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكي هذا الجامع، أقامت العمارة فيه مدة ثلاث سنين لا تبطل يوماً واحداً وأرصد لمصروفها في كلّ يوم عشرون ألف درهم»، ولكثرة مصروفاتها فقد قال السلطان: «لولا أن يقال ملك مصر عجز عن إتمام بناء بناه لتركت بناء هذا الجامع من كثرة ما صرف عليه»، وقد سماها المقرئزي بجامع لأنّ لها وظيفتان، ووظيفة الجامع، ووظيفة المدرسة، وكانت تدرّس فيها المذاهب الأربعة والحديث والقراءات، وقد زوّدها بمكتبة حوت العديد من الكتب

---

(١) تذكرة النبيه: ابن حبيب، ج ٣، ص ٣٨٨. خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٤، ج ٢، ص ٥١٣ - ٥٢٠. السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج ١، ص ٧٤٥ - ١٠٠١. حسن المحاضرة: السوطي، مج ٢، ص ٢٢٩.

(٢) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٤، ج ٢، ص ٥٢٤ - ٥٢٦ - ٥٣٠. النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ٨، ص ١٦٥ - ١٦٦. حسن المحاضرة: السيوطي، مج ٢، ص ٢٢٩. وتحتفظ دار الكتب المصرية بالعديد من موجودات هذه المكتبة منها مصحف رقم ٤ مصاحف، عليها نصّ الوقفية على المدرسة المذكورة سنة (٧٣٠هـ = ١٣٣٠م)، حيث توجد نصّ الوقفية الواردة على مصحف السلطان محمد بن قلاوون الذي وقفه على جامعة بالقلعة سنة (٧٣٠هـ = ١٣٣٠م) مصحف رقم ٤، مصاحف دار الكتب، تاريخ المكتبات: النشار، الملحق الأوّل، لوحة رقم ٤، ص ٢٦٦.

كما تحتفظ مكتبة بلدية الإسكندرية بنسخة «كامل الصناعتين: البيطرة والزريفة المعروفة بالناصرية»، رقم ٢٠٤٢، أبي بكر البيطار أحد البياطرة بإصطبل محمد بن قلاوون وكان من موجودات المكتبة الناصرية كما هو واضح من نصّ الوقفية على صفحة العنوان، انظر تاريخ المكتبات: النشار ص ٩٠.

والمصاحف، وقفها السلطان على طلبة العلم الشريف<sup>(١)</sup>، وتدلل وثيقة الوقف على مدرّس تفسير كتاب الله والحديث النبوي بأنه يقوم بتدريس الكتب المعتمدة، وهذا يدل على كثرة كتب التفسير والحديث وعلومه<sup>(٢)</sup>.

المدرسة الأشرفية: هذه المدرسة بناها السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون، ولكنّه لم يتمّها بسبب قيام المماليك عليه وهو عائد من الحج، وبدأ في عمارتها سنة (٧٧٧هـ = ١٣٧٥م)، ولكنّها لم تدم طويلاً حيث بُني مكانها المارستان المؤيّد سنة (٨٢٣هـ = ١٤٢٠م)، وقد جعل بها السلطان الأشرف خزانة للكتب، وكان من ضمن وقفه لها مصحف، وكانت من أكبر المكتبات المملوكية<sup>(٣)</sup>، وقد نقلت كتبها التي كانت في الخزانة إلى مدرسة جمال الدين يوسف الإستاذار، وكانت خمسمائة مجلد بمبلغ، خمسمائة دينار وجعلها نواةً لمكتبته<sup>(٤)</sup>.

المدرسة الظاهرية المستجدة: أسّسها الظاهر برقوق في سنة (٧٨٦هـ = ١٣٨٤م)، وهي أوّل مدرسة للجراكسة في عصر دولة المماليك، وقد كان بها خزانة كتب، وبعض مصاحفها وكتبها مازال موجود في مكتبة بلدية الإسكندرية، ومن هذه الكتب «الإشارات إلى ما وقع في المنهاج من الأسماء والأماكن واللغات» لابن الملقن (ت ٨٠٤هـ = ١٤٠١م)<sup>(١)</sup>.

---

(١) حسن المحاضرة: السيوطي، مج ٢، ص ٢٣٢. خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ١، ص ٢٦٩. تذكرة النبيه: ابن حبيب، الملحق، ج ٣، ص ٣٥٣.

(٢) تذكرة النبيه: ابن حبيب، الملحق، ج ٣، ص ٣٩٨ - ٣٩٩.

(٣) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ٢، ص ٦٦١ - ٦٦٢ - ٧٠٢.

(٤) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ٢، ص ٦٦٦.

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بددي، ج ١١، ص ١٨١ - ١٩٨. خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ٢، ص ٦٧٩ - ٦٨٠. ويوجد بدار الكتب مصاحف برقوق: أرقام ١١، ١٢، ٧٥، ٧٦،

المدرسة الناصرية: بناها السلطان فرج بن برقوق، على أنقاض المدرسة الجمالية، وذلك بعد أن قبض السلطان على الأمير جمال الدين الإستاذار وقتله في سنة (٨١٢هـ = ١٤٠٩م)، حيث حسن له جماعة أن يهدم هذه المدرسة رغبةً في رخامها الذي كان في غاية الحسن، وأن يسترجع أوقافها فإن متحصلها كثير، فمال السلطان إلى ذلك ورغب فيه لولا تدخل كاتب السرّ وإقناعه بالرجوع عن ذلك، وادّعى السلطان أنّ جمال الدين أفتى له في أخذ هذه الأرض، وأنه لم يأذن بيعها من بيت المال، فأفتى حينئذٍ قاضي القضاة شمس الدين محمد المدني المالكي بأنّ بناء هذه المدرسة لا يصح، وبعدها باع أبناء جمال الدين الإستاذار المدرسة، ومُسح اسم جمال الدين وكتب اسم السلطان بدائرة صحنها، وعلى قناديلها وبسطها وسقوفها، ثمّ نظر السلطان في كتبها العلمية الموقوفة بها فأقرّها، وحمل الكثير من كتبها إلى قلعة الجبل، وصارت هذه المدرسة تعرف بـ «الناصرية»، ولم تزل على ذلك حتى قتل الناصر، وحُكِمَ بعدها بإعادة أوقاف جمال الدين إلى ورثته، وكذلك استولى أخو جمال الدين على المدرسة، وثار صوفية هذه المدرسة، ورجعت إلى كاتب السرّ، ولما تبين له أنّ أخا جمال الدين قد استولى على المدرسة وفقاً لوثيقة مزورة، نزعته يده منها وتولّى نظرها ناصر الدين محمد بن البارزي كاتب السرّ<sup>(١)</sup>،

---

١١٣ مصاحف، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٩١. وتحتفظ مكتبة بلدية الإسكندرية بنسخة من كتاب «الإشارات إلى ما وقع في المنهاج من الأسماء والأماكن واللغات»، وهو شرح من تأليف سراج الدين عمر بن علي الأنصاري الشافعي المعروف بابن الملتن (ت ٨٠٤هـ = ١٤٠١م) على منهاج النووي، نسخها سليمان بن صالح الحنبلي بالمدرسة الظاهرية برقوق سنة (٧٩٤هـ = ١٣٩١م) لمكتبتها كما هو واضح من حر المتن، وتحمل هذه النسخة رقم ١٢٩٤، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٩١.

(١) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٤، ج ٢، ص ٦٤٤ - ٦٤٥ - ٦٤٦ - ٦٤٧. السلوك لمعرفة دون الملوك: المقرئزي، ج ٤، ق ١، ص ١٧٥ - ١٧٦. إنباء الغمر بأبناء العمر: ابن حجر العسقلاني، ج ٧، ص ٥.



وكان من ضمن محتوياتها كتاب «المنتهي في اللغة» للتمييمي البرمكي، وهو في تيف وأربعين مجلداً<sup>(١)</sup>.

المدرسة الأشرفية بالحريرين: بناها السلطان أبو النصر الدقماقي في سنة (٨٢٦هـ = ١٤٢٣م)<sup>(٢)</sup>، وكانت بها خزانة، وقد ذكر السخاوي، بأن من تولّى خزانة الكتب بهذه المدرسة إبراهيم بن علي بن أحمد القلقشندي، وأحمد بن عبد الرحمن يوسف الأنصاري، ومحمد بن عمر الشمس الصهيويني الأصل الكركي ثمّ القاهري الحنفي<sup>(٣)</sup>.

ولقد أقام السلطان الأشرف أبو النصر قايتباي المحمودي عدّة مدارس في مصر وخارجها، فقد بنا مدرسة بجانب المسجد الحرام، وجعل بها خزانة كتب، وكذلك مدرسة في المدينة المنورة ومدرسة في بيت المقدس وغيرها<sup>(٤)</sup>، ومن المدارس التي بناها في مصر المدرسة التي في الصحراء -قراة أو جبانة المماليك- سنة (٨٧٧هـ = ١٤٧٢م)، وألحق بها خزانة كتب

---

(١) الوقف وبنية المكتبة العربية: يحيى محمود ساعاتي، ص ٨٩. البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٨، ص ٦٦٢.

(٢) إنباء الغمر بأبناء العمر: ابن حجر العسقلاني، ج ٨، ص ١٣.

(٣) الضوء اللامع: السخاوي، ج ١، ص ٧٧-٧٨-٣٢٩-٣٣٠، ج ٨، ص ٢٧٠-٢٧١.

(٤) لقد كان عصر السلطان قايتباي من أزهى العصور في إقامة المدرس والمنشأة الاجتماعية حيث أنشأ مدارس في مختلف مناطق مصر حيث يقول عنه ابن الصيرفي «وعمر أدام الله ملكه آثار كثيرة كانت درست وعفت رسومها». أنباء المهصر بأبناء العصر: ابن الصيرفي علي بن داوود الجوهري الصيرفي، تحقيق: حسن حبشى، الناشر: دار الفكر العربي (١٣٩٠هـ = ١٩٧٠م)، ص ٣٣٩. ولقد كانت له مدارس خارج مصر في الحجاز وفلسطين، وقد أمدّها بخزانة للكتب والمصاحف. وثيقة السلطان قايتباي: دراسة تحليلية، عبد اللطيف إبراهيم، ص ٣-١٠، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٩٢. الضوء اللامع: السخاوي، ج ٦، ص ٢٠٨-٢٠٩-٢٠١.

شريفة جلييلة<sup>(١)</sup>، وكذلك له مدرسة بالكبش سنة (٨٨٠هـ = ١٤٧٥م)، وجعل بها خزانة كتب، وبعض كتبها موجود في المكتبات المصرية حالياً<sup>(٢)</sup>.

المدرسة الغورية: في أواخر عهد السلاطين المماليك قام السلطان قانصوه الغوري (٩٠٦ - ٩٢٢هـ) = (١٥٠٠ - ١٥١٦م) بإنشاء مدرسته في سنة (٩٠٨ - ٩٠٩هـ) = (١٥٠٢ - ١٥٠٣م) في الشرايشيين، وفي الأصل هذه المدرسة أول من بدأ في بنائها هو الطواشي مختص، وكان على رأس نوبة السقاة في دولة الظاهر قانصوه خال الملك الناصر محمد، فلما تسلطن قانصوه الغوري قبض على مختص، وفرض عليه مالا، ومن ضمن ما صدر منه هذه المدرسة، وقد قام بهدمها وكان قد بني القليل منها وتوسع في بنائها، وأخذ من الأسواق، ومن الأسواق التي أخذت سوق الحملون، وما حوله من الأسواق، ولكثرة مصروفاتها شتت عليه الناس بأثامها من أموال المظالم، ولذلك سمّوها «بالمسجد الحرام» لما وقع فيها من غصوب ومصروف العمارة من مال فيه شبهات، وكانت بها خزانة كتب فيها العديد من المؤلفات والمراجع والمصاحف، فقد ذكر في وثيقة الغوري: «... حلوة كبرى معدة لحزن الكتب بما جنبت خشب نقي يمى ويسرى وصدراً مثبته معه لحفظ ما فيها من كتب العلم الشريف

---

(١) وثيقة السلطان قايتباي: رقم ٨٨٦ أوقاف، ص ٢٣ - ٢٤ نشر نويصر ص ١٧٥، انظر تاريخ المكتبات: النشار ص ٩٣. وثائق قايتباي: رقمي ٨٨٨، ٨٩٠. بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس، ج ٣، ص ٣٢٩. الضوء اللامع: السخاوي، ج ٦، ص ٢٠٨. شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد ج ١٠، ص ١٣.

(٢) بدائع الزهور: ابن إياس، ج ٣، ص ٣٢٩. الضوء اللامع: السخاوي، ج ٦، ص ٢٠٨. وتحتفظ دار الكتب المصرية بمصحف قايتباي: رقم ١٢٦ مصاحف، وكتاب «اللوامع في مشكلات المطالع»: رقم ١٩٦١، وكتاب في التصوف: رقم ١٦٩٦ تصوف، ومصاحف: مثل ربعة رقم ١٥٠ ورقم ٥٤٩١، والقصيدة التوحيدية: رقم ٣٩٦٤، انظر تاريخ المكتبات: النشار، الملحق الأول، لوحة رقم ١١، ص ٢٧٣، نصّ الوقفية وشهادة كلّ من محمد الأسيوطي وابن بكر بن أحمد الزعيفرين، بتاريخ ١٩ محرم سنة (٨٩٠هـ = ١٤٨٥م) على مصحف السلطان قايتباي الذي وقف على مكتبة جامعه (دار الكتب، رقم ١٢٦ مصاحف) انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٩٣. شذرات الذهب: ابن العماد، ج ١٠، ص ١٣.

الموقوفة على طلبة العلم الشريف لانتفاعهم بما في المدرسة المذكورة»، وقد نقلت آثار النبي ﷺ من مكانها المطل على النيل، فجعلها في مدرسته، وكذلك نقل المصحف العثماني إليها، والرابعة العظيمة المكتوبة بالذهب التي كانت بالخانقة البكتمرية التي بالقرافة، وقيل أنّ مشتراها على الواقف ألف دينار<sup>(١)</sup>.

وقد اتّبع أمراء المماليك سلاطينهم في بناء المدارس وألحاق المكتبات بها، ومن هذه المدارس، المدرسة الصاحبية البهائية: بزقاق القناديل من مدينة مصر، قرب الجامع العتيق في سنة (١٢٥٤هـ = ١٢٥٦م) وكان زقاق القناديل أعمر أخطاط مصر، وسمّي بهذا الاسم لأنه سكن الأشراف، وقد بنى هذه المدرسة علي بن محمد بن سليم بن حنا الوزير صاحب بهاء الدين (ت ٦٧٧هـ = ١٢٧٨م)، وكانت فيها خزانة كتب جلييلة، فنقلها شمس الدين محمد بن الصاحب وصارت تحت يده إلى أن مات<sup>(٢)</sup>.

المدرسة الصاحبية: وهي التي بناها صفّي الدين عبد الله بن علي بن شكر (٦٢٢هـ = ١٢٢٥م)، وهي بالقاهرة في سوق الصاحب، وجعلها وقفاً للمالكية، وبها درس نحو وخزانة

---

(١) بدائع الزهور: ابن إياس: ج ٤، ص ٥٢ - ٥٣ - ٦٨ - ٦٩. ووثيقة الغوري: رقم ٨٨٣ أوقاف، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٩٣. كذلك تحتفظ دار الكتب بالعديد من المؤلفات التي كانت في هذه المكتبة منها مصحف الغوري: رقم ٧٣. و«الحكايات المستطابة في ديوان الصبابة»: رقم ١١٨٠٧، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٩٣.

(٢) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٤، ج ٢، ص ٤٧٣ - ٤٧٤ - ٤٧٦. النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٠٩. دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط: يوسف العشي، ترجمة عن الفرنسية، نزار أباطة - محمد صباغ، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط ١ (١٤١١هـ = ١٩٩١م)، ص ٢٨٢.

كتب، وفي عام (١٣٥٦هـ = ١٧٥٨م) أعيد بناؤها، وأنشئ فيها مسجداً، وبقيت عامرة حتى زمن المقرئزي<sup>(١)</sup>.

المدرسة المنكوتمية: أنشأها نائب السلطة بالقاهرة الأمير سيف الدين منكوتر، وانتهى بناؤها سنة (١٢٩٨هـ = ١٢٩٩م)، وقد جعل لها وقفاً في بلاد الشام، وجعل لها خزانة كتب<sup>(٢)</sup>.

المدرسة الطيرسية: بناها الأمير علاء الدين طيرس الخازنداري نقيب الجيوش، بجوار الجامع الأزهر سنة (١٣٠٩هـ = ١٣٠٩م)، وجعل بها خزانة كتب<sup>(٣)</sup>.

المدرسة الملكية: بناها الأمير سيف الدين آل ملك الجوكندار، وقد بناها تجاه داره بخط المشهد الحسيني من القاهرة سنة (١٣١٩هـ = ١٣١٩م)، وقد «جعل بها خزانة كتب معتبرة» كما يقول المقرئزي<sup>(٤)</sup>.

المدرسة الصرغتمشية: خارج القاهرة بجوار جامع الأمير أبي العباس أحمد بن طولون، بناها الأمير سيف الدين صرغتمش الناصري (١٣٥٦هـ - ١٣٥٧هـ) = (١٣٥٥-١٣٥٦م)، وعلى الرغم من وجود خزانة في هذه المكتبة فإن كتب التراجم والخطط والطبقات<sup>(٥)</sup> لا تذكر شيء عن هذه الخزانة، ومع ذلك تحتفظ المكتبات بكتبها، وهذا يدل على وجود هذه المكتبة التي حوت الكثير من كتب الفقه والحديث وغيرها من العلوم الشرعية واللغوية والمصاحف

---

(١) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٤، ج ٢، ص ٤٧٦ - ٤٧٧. دور الكتب العربية العامة وشبه العامة: العش، ص ٢٨٢.

(٢) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٤، ج ٢، ص ٢٥٢ - ٢٥٤.

(٣) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٤، ج ٢، ص ٥٣٦ - ٥٣٨. النجوم الزاهرة: ابن تغري بردى، ج ٩، ص ١٤٥. الانتصار لواسطة عقد الأمصار: ابن دقماق، ج ٤، ص ٩٦.

(٤) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٤، ج ٢، ص ٥٧١. النجوم الزاهرة: ابن تغري بردى، ج ١٠، ص ١٤١.

(٥) حسن المحاضرة: السيوطي، ج ٢، ص ٢٣١.

والربعات الشريفة، والكاشف لهذا الأمر بوضوح هي وثيقة وقف الأمير صرغتمش، حيث تؤكد على وجود خزانة لهذه المدرسة مثلها مثل باقي المدارس<sup>(١)</sup>.

مدرسة ألبجاي: خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل، كان موضعها وما حولها مقبرة<sup>(٢)</sup>، أنشأها الأمير الكبير سيف الدين ألبجاي اليوسفي زوج خوند بركة أم السلطان الملك الأشرف، وقد جعل بها خزانة للكتب والمصاحف سنة (٧٦٨هـ = ١٣٦٦م)<sup>(٣)</sup>.

مدرسة إينال اليوسفي: وهو أحد المماليك اليلبغاوية في سنة (٧٩٤ - ٧٩٥هـ) = (١٣٩٢ - ١٣٩٣م)، وهي خارج باب زويلة، بالقرب من باب حارة الهلالية، بخط القماحين، وكانت بها خزانة ضمّت العديد من الكتب والمصاحف<sup>(١)</sup>.

---

(١) وثيقة الأمير صرغتمش: رقم ٣١٩٥ أوقاف، نشر عبد اللطيف إبراهيم. كذلك دار الكتب تحتفظ بكتب عديدة موقوفة على هذه المدرسة منها «التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية»: رقم ٣ لغة دار الكتب. وكذلك مصحف صرغتمش: رقم ١٥ مصاحف، دار الكتب. وريعة صرغتمش: رقم ١٥٠، بدار الكتب. وربعات صرغتمش: أرقام ١٨٢ / ٨٠٩٩، ١٨٣ / ٨١٠٠، ١٨٤ / ٨١٠١، ١٨٥ / ٨٠١٢، بالمكتبة الأزهرية، انظر تاريخ المكتبات: النشار. توجد صورة عن صفحتان من ربيعة شريفة: وقفها الأمير صرغتمش بمدرسته، رقم ١٥٠ مصاحف، دار الكتب، ويظهر على أحد الصفحتين نصّ الوقفية وختم التمليك. وكذلك صفحة بعنوان «الأول من كتاب التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية»: تأليف الحسن بن محمد الصفاني (ت ٦٥٠هـ = ١٢٥٢م) من نسخة كتبت سنة (٦٤١هـ = ١٢٤٣م) برسم خزانة المدرسة الصرغتمشية (سيف الدين صرغتمش)، دار الكتب ٣ لغة، تاريخ المكتبات: النشار، ملحق أول، لوحة رقم ١-٢، ص ٢٦٣-٢٦٤. الوقف وبنية المكتبة العربية: يحيى محمود ساعاتي، ص ٨٨.

(٢) سويقة العزي: هذه السويقة خارج باب زويلة قريباً من قلعة الجبل وسمية بهذا الاسم نسبةً إلى الأمير عز الدين أيبك العزي نقيب الجيوش، خطط المقريري: المقريري، ج ٣، ص ٣٥٣.

(٣) خطط المقريري: المقريري، مج ٤، ج ٢، ص ٦١٥، ٦١٦. النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ٨، ص ١٦٢. المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي: يوسف بن تغري بردي الأتابكي جمال الدين أبو المحاسن، حققه: نبيل محمد عبد العزيز، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج ٣، ص ٤٣. كذلك تحتفظ دار الكتب بمصحف ألبجاي اليوسفي: رقم ١٤ و ٦١ مصاحف، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ٩٥.

والمدرسة المستجدة: بالموازنين خارج باب زويلة، بناها الأمير جمال الدين محمود بن علي أستاذ سنة (٧٩٧هـ = ١٣٩٥م)، وقد «جعل بها خزانة كتب لا يعرف اليوم بديار مصر والشام مثلها» على حد قول المقرئزي، وتسمى بالمحمودية عند السخاوي، وكان ما فيها من الكتب حوالي أربعة آلاف من أنفس الكتب، «لا يخرج لأحد منها كتاب إلا أن يكون في المدرسة، وبهذه الخزانة كتب الإسلام من كل فن، وهذه المدرسة من أحسن مدارس مصر»<sup>(٢)</sup>.

مدرسة ايتمش البجاس أتاك العسكر في أيام برقوق: سنة (٨٠٢هـ = ١٣٩٩م)، وقد كان فيها خزانة كتب<sup>(٣)</sup>.

ومدرسة الأمير جمال الدين يوسف الإستاذار: في سنة (٨١٠هـ - ٨١١هـ) = (١٤٠٧-١٤٠٨م)، التي هي برجة باب العيد من القاهرة، وكان فيها بقايا من مدرسة الملك الأشرف، ومنها بعض الكتب الموجودة في خزانة المدرسة، منها المصاحف وكتب الحديث والفقه وغيره من أنواع العلوم، اشتراها بستة آلاف دينار، وكانت تساوي عشرة أضعاف، ونقلها إلى داره، فكان موجود في هذه الخزانة عشرة مصاحف، طول كل مصحف منها أربعة

---

(١) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٤، ج ٢، ص ٦٣٣. المنهل الصافي: ابن تغري بردي، ج ٣، ص ١٨٩ - ١٩٠. ووثيقة وقف أينال اليوسفي: رقم ٥٥، محفظة ٩، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٩٥. وهذه المدرسة سجله أثرياً برقم ١١٨ (شارع الخيامية)، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٩٥. وصفحة عنوان المجلد الحادي عشر من كتاب «تاريخ الإسلام» للحافظ الذهبي (ت ٧٤٨هـ = ١٣٤٨م)، من نسخة بخط المؤلف وعليها قراءة على المؤلف للصفدي سنة (٧٣٥هـ = ١٣٣٤م) وفي ذيل الصفحة وفقية النسخة المخطوطة على المدرسة المحمودية بالقاهرة، (معهد المخطوطات العربية، مكتبة أباصوفيا، ٣٠٠٥). تاريخ المكتبات: النشار، ملحق أول، لوحة رقم ٥، ص ٢٦٧. وكذلك الملحق الثالث، ص ٢٨٣. وهو من أوسع التواريخ العامة حيث يتناول التاريخ الإسلامي من بدأ الهجرة النبوية حتى سنة (٧٠٠هـ = ١٣٠٠م) مع ذكر وفياتها.

(٢) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٤، ج ٢، ص ٥٩٠ - ٥٩٢. النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ١٢، ص ٢٤، الضوء اللامع: السخاوي، ج ٥، ص ١٤٣ - ١٤٤.

(٣) إنباء الغمر بأبناء العمر: ابن حجر، ج ٤، ص ١٠٨. الضوء اللامع: السخاوي، ج ٢، ص ٣٢٤.

أشبار إلى خمسة، في عرض يقرب من ذلك، أحدها بخط ياقوت، وآخر بخط ابن البواب، وباقيها بخطوط منسوبة، ومن الكتب النفيسة عشرة أحمال، جميعها مكتوب في أولها الإشهاد على الملك الأشرف بوقف ذلك<sup>(١)</sup>.

مدرسة مقبل الرومي الزمام (ت ٨١٠هـ = ١٤٠٧م)، وهي بخط البندقانيين بالقاهرة، وكان بها خزانة للكتب<sup>(٢)</sup>، مدرسة الأمير سودون من زادة (ت ٨٠٤هـ = ١٤٠١م)، كان فيها خزانة كتب<sup>(٣)</sup>.

مدرسة الأمير فخر الدين عبد الغني ابن الأمير تاج الدين عبد الرزاق بن أبي الفرج: وقد ألحق خزانة للكتب بمدرسته، التي أنشأها بجوار دار الذهب التي عرفت بدار بهادر الأعسر، المجاور لقبو الذهب من خط بين السورين فيما بين باب الخوخة وباب سعادة (٨٢١هـ = ١٤١٨م)، وعلى الرغم من أن المقرئ يذكرها باسم جامع إلا أن وقفية نسخة كتاب «الانتصار لواسطة عقد الأمصار» لابن دقماق تدل على أنها مدرسة، حيث كتب عليه «أن المقرئ الكريم العالي المولوي الفخري فخر الدين عبد الغني بن أبي الفرج أوقف هذا الكتاب بمدرسته المعروفة بالفخرية بخط بين السورين»<sup>(٤)</sup>، وتذكر وثيقة وقفه أيضاً ما نصّه: «ويصدره -

---

(١) وثيقة جمال الدين يوسف الإستاذار: رقم ١٠٦، محفظة ١٧، نشر عبد الستار عثمان، انظر تاريخ المكتبات: النشر، ص ٩٥. خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ٢، ص ٦٣٦.

(٢) وثيقة مقبل الرومي: رقم ٦، محفظة ١٠، رقم ٧٥، محفظة ١٢، انظر تاريخ المكتبات: النشر، ص ٩٦. الضوء اللامع: السخاوي، ج ١٠، ص ١٦٨.

(٣) وثيقة الأمير سودون من زادة: رقم ٢٥٨، محفظة ١٠، نشر حسنى نوبصر، انظر تاريخ المكتبات: النشر، ص ٩٥.

(٤) خطط المقرئ: المقرئ، الهامش، مج ٤، ج ١، ص ٣٣١.

أي الدهليز - يدخل إلى خزانة برسم خزانة الكتب والإيوان الغربي يشتمل على خزانتي برسم الكتب وغيرها»<sup>(١)</sup>.

وقد جعل الأمير تغري بردي البكلمش (ت ٨٤٦هـ = ١٤٤٣م) خزانة كتب في مدرسته التي بخط الصليبية الطولونية بالقاهرة<sup>(٢)</sup>، وكذلك ألحق الأمير يشبك بن مهدي الظاهري جقمق ويعرف بالصغير خزانة كتب بمدرسته، وقد أودع فيها الكثير من الكتب، وصل إلينا منها كتاب «النسب النبوي وأخبار الملوك المصرية» بخط خطاب بن عمر الدنجاوي، بمكتبة بلدية الإسكندرية، فقد كانت للأمير رغبة عظيمة في اقتناء الكتب، كذلك من الكتب التي وصلت إلينا كتاب «الوافي بالوفيات» لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، وهو أوفى الكتب المؤلفة في الإسلام في تراجم الرجال، يدخل في نحو ثلاثين مجلداً وقد كان في خزانة الأمير<sup>(٣)</sup>.

---

(١) وثيقة عبد الغني الفخري: رقم ٧٢، محفظة ١٢، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٩٦. الضوء اللامع: السخاوي، ج ١، ص ٢٠.

(٢) وثيقة تغري بردي: رقم ٩٨، محفظة ١٦، دار الوثائق، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٩٦.

(٣) الضوء اللامع: السخاوي، ج ١٠، ص ٢٧٢ - ٢٧٤. كذلك تحتفظ دار الكتب المصرية بأحد موجودات هذه المكتبة باسم كتاب «شجرة النسب النبوي وأخبار الملوك المصرية»: بخط خطاب بن عمر الدنجاوي، سنة (٨٨٣هـ = ١٤٧٨م) تحت رقم ١٦٣٧. وتحتفظ مكتبة بلدية الإسكندرية بنسخة من نفس الكتاب تحت رقم ٣٧٥٤، وقد كتب على صفحة عنوانها عبارة «برسم خزانة الأشرف السيفي يشبك بن مهدي»، حيث كانت ضمن موجودات الكتاب. ومن ضمن الموجودات كذلك يوجد كتاب «الوافي بالوفيات»، للصفدي في خزانة الأمير يشبك وقد كتبت برسم الأمير يشبك من مهدي الداودار، وعليها تملكه للمكتبة، وقد ألت هذه النسخة مع شقيقتها إلى مكتبة أحمد الثالث بعد الدخول العثماني لمصر (أحمد الثالث ٢٩٢٠ مصدر المخطوطات العربية)، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٩٦، وملحق أول، لوحة رقم ١٠، ص ٤٧٢.



كذلك بنى الأمير أزيك من ططخ أتابك العسكر مدرسته في منطقة الأريكية، وجعل بها خزانة للكتب<sup>(١)</sup>، وألحق الأمير قجماس الإسحاقى الظاهري جقمق (ت ٩٠٢هـ = ١٤٩٦م) خزانة كتب بمدرسته التي أنشأها بالقرب من خوخة أيدغمش بين عامي (٨٨٤ - ٨٨٧هـ) = (١٤٧٩ - ١٤٨٢م)<sup>(٢)</sup>، وتجاه سوق الخيل بميدان القلعة سنة (٩٠٨هـ = ١٥٠٣م) في عصر الغوري، وقد قام السيفي قاني باي قرار الرماح أمير أخور كبير بإنشاء مدرسة، وكان بها خزانة للكتب، فقد ذكر في وثيقة وقفه ما نصّه: «وأما الخلوتان اللتان بالإيوان الكبير - وهو المحراب - فجعل أحدهما وهي القبليّة معدة لخنز الكتب التي وقفها الواقف المشار إليه وجعل مقرها بالمدرسة المذكورة»<sup>(٣)</sup>، وفي سنة (٩٢١هـ = ١٥١٥م) كملت عمارة مدرسة الأمير بيبرس بن عبد الله بن عبد الكريم بن عمر المعروف بالخياط، التي بخط الجودرية بالقاهرة، وكانت بها خزانة كتب حوت الكثير من المؤلفات في مختلف العلوم والفنون<sup>(٤)</sup>.

وقد ساهم في بناء المدارس وألحاق المكتبات بها بعض الطواشي<sup>(٥)</sup>، ومنهم الطواشي بشير الجمدار<sup>(١)</sup> سعد الدين بشير الجمدار الناصري، الذي بنى المدرسة البشيرية خارج القاهرة

- 
- (١) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٢، ص ٢٧٠ - ٢٧٢.
- (٢) وثيقة الأمير قجماس الإسحاقى: رقم ٧٦٠ أوقاف، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٩٦. الضوء اللامع: السخاوي، ج ٦، ص ٢١٣.
- (٣) وثيقة قاني باي الرماح: رقم ١٠١٩ أوقاف، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٩٧.
- (٤) بدائع الزهور: ابن إياس، ج ٤، ص ٤٧٧. الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات: أيمن فؤاد سيد، الناشر: الدار المصرية اللبنانية، ص ٢٥٢. وثيقة السيفي بيبرس: رقم ٣١٣، محفظة ٤٧، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٩٧.
- (٥) الطواشي: واحدتها طواش وهو الخص الذي ذهب ذكره وأنتياه بالكلية، وقد استخدموا في الطبقات المملوكية وفي الحرّيم السلطانية، وكانت لهم حرمة وافرة وكلمة نافذة، ويعد شيخهم من أعيان الناس. معيد النعم ومبيد النقم: السبكي، ص ٣٩. العصر المملوكي في مصر والشام: سعيد عبد الفتاح عاشور، الناشر: دار النهضة العربية، القاهرة، ط ٢ (١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م)، ص ٤٥٥.

في سنة (٧٦١هـ = ١٣٦٠م)، بحكر الخازن المطل على بركة الفيل، وقد جعل بها خزانة كتب<sup>(٢)</sup>، وكذلك الطواشي الأمير سابق الدين مئقال الأنوكي، مقدّم المماليك السلطانية الأشرفية<sup>(٣)</sup>، فقد بنى المدرسة السابقة داخل قصر الخلفاء الفاطميين، من جملة القصر الكبير الشرقي، الذي كان دار الخلافة، وكملت عمارتها في سنة (٧٧٢هـ = ١٣٧٠م)، وجعل فيها خزانة كتب، وكتاباً يقرأ فيه أيتام المسلمين، ويذكر السخاوي: إنّ ممن وُليّ خازناً لهذه المكتبة محمد بن محمد القرشي<sup>(٤)</sup>.

المدرسة الحجازية: لقد قامت أميرات المماليك كذلك في نفس العمل بإنشاء المدارس وألحاق المكتبات بها، ومنهنّ خوند تتر الحجازية ابنة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون زوجة الأمير ملكتمر الحجازي، حيث قامت ببناء المدرسة الحجازية، برحبة باب العيد من القاهرة، بجوار قصر الحجازية سنة (٧٦١هـ = ١٣٦٠م)، وكانت بها خزانة للكتب<sup>(٥)</sup>.

مدرسة أمّ السلطان: فكانت خارج باب زويلة، بالقرب من قلعة الجبل، أنشأها الستّ الجليلة خوند بركة أمّ السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين في (٧٧١هـ = ١٣٦٩م)،

---

(١) الجمدار: هو الموظف الذي يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه. صبح الأعشى في صناعة الإنشا: أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١هـ = ١٤١٨م) شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه: نبيل خالد الطيب: الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١ (١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م)، ج ٥، ص ٤٣١. الفنون الإسلامية والوظائف على الأثار العربية: حسن باشا، ج ١، ص ٣٥٦ - ٣٥٨.

(٢) خطط المقرزي: المقرزي، مج ٤، ج ٢، ص ٦١٠ - ٦١٢.

(٣) مقدم المماليك: هو لقب على الذي يتولى أمر المماليك للسلطان أو الأمير، ويكون عادة من الخدم الطواشية والخصيان المقربين من السلطان، ويشغل رتبة أمير طبلخانة ومقامه فيهم مقام رأس النوبة. صبح الأعشى: القلقشندي، ج ٥، ص ٤٢٨.

(٤) خطط المقرزي: المقرزي، مج ٤، ج ٢، ص ٥٧٩ - ٥٨٢. الضوء اللامع: السخاوي، ج ٩، ص ٧١ - ٧٢.

(٥) خطط المقرزي: المقرزي، مج ٤، ج ٢، ص ٥٣١.

وكانت بها خزانة كتب، حوت على الكثير من المؤلفات والمصاحف والربعات الشريفة، ويذكر السخاوي: أن محمد بن عبد الله السمنودي كان خازناً للكتب فيها<sup>(١)</sup>.

ولم يكن السلاطين والأمراء والطواشية والأميرات هم وحدهم من قام ببناء هذه المدارس ومكتباتها، فقد شاركهم أيضاً بعض العلماء والتجار والقضاة، ومن العلماء الذين بنوا المدرس، الشيخ الإمام مجد الدين أبو محمد عبد العزيز ابن الشيخ الإمام أمين الدين أبي علي الحسين بن الحسن بن إبراهيم الخليلي الداري حسين، فقد أنشأ المدرسة المجدية الخليلية بمصر، بموضع بدرب البلاط، ولقد تمت في سنة (٦٦٣هـ = ١٢٦٥م)<sup>(٢)</sup>.

وكذلك بحارة بهاء الدين قراقوش الأسدي الصالحي سنة (٧٩٥هـ = ١٣٩٣م)، بنى شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني مدرسته<sup>(٣)</sup>، وكذلك شيد الشيخ ولي الدين البلقيني مدرسة بجوار المدرسة الشريفة القديمة بحارة بهاء الدين<sup>(١)</sup>، ومنهم أيضاً محمود بن أحمد بن موسى العنتاني صاحب مدرسة العنتاني، بالقرب من الجامع الأزهر<sup>(٢)</sup>.

---

(١) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٤، ج ٢، ص ٦٢٠. بدائع الزهور: ابن إياس، ج ١، ق ٢، ص ١٠٣ - ١١٥. وكذلك تحتفظ دار الكتب بمصحف كان أحد موجودات هذه المكتبة وهو تحت رقم ٦، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٩٨. الضوء اللامع: السخاوي، ج ٨، ص ١١٣.

(٢) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٤، ج ٢، ص ٦٣٠. الانتصار: ابن دقماق، ج ٤، ص ٩٦.

(٣) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ١١، ص ٣٢٤. شذرات الذهب: ابن العماد، ج ٩، ص ٨١. الضوء اللامع: السخاوي، ج ٦، ص ٨٩. نزهة النفوس في تواريخ الزمان: علي بن داوود الجوهري الصيرفي، تحقيق: الدكتور حسن حبشي، الناشر: مطبعة دار الكتب (١٣٩١هـ = ١٩٧١م)، ج ٢، ص ١٧١.

(١) إنباء المصير بأبناء العصر: علي بن داوود الجوهري الصيرفي، ص ٤٦٣. التبر المسبوك في ذيل السلوك: السخاوي، ص ٣٨٩.

(٢) معجم الشيوخ: عمر بن فهد الهاشمي المكّي (٨١٢ - ٨٨٥هـ) = (١٤٠٩ - ١٤٨٠هـ)، تحقيق: محمد الزاهي، الناشر: المطبعة الأهلية للأؤفست، الرياض، ص ٢٩٥.

وفي أغلب الظنّ أنّ ما دفع العلماء لبناء المدارس وإلحاق المكتبات بها هو دافع ديني وعلمي، أمّا ما يخصّ التجار ربّما كان هو أيضاً دينياً ورغبةً في الأجر والثواب، إضافةً على ذلك فقد يكون للظهور بمظهر الصلاح والتقوى، كي لا تصادر أموالهم على أيدي المماليك<sup>(١)</sup>، ومن هذه المدارس مدرسة المحلّي: الذي أنشأها برهان الدين إبراهيم المحلّي (٨٠٦هـ = ١٤٠٣م)، وهو رئيس التجار على شاطئ النيل، داخل صناعة التمر، بظاهر مدينة القاهرة، وأنفق عليها زيادة على خمسين ألف دينار<sup>(٢)</sup>.

ويمكن الجمع بين مدارس التجار ومدارس القضاة، على اعتبار أنّ بعض القضاة كانوا يمارسون التجارة إلى جانب القضاء، ومنهم عائلة الخروبية، الذين مارسوا التجارة والقضاء، ولكن شهرتهم التجارية كانت أكبر، ومنهم تاج الدين بن محمد بن صلاح الدين بن علي الخروبي صاحب المدرسة التاجية الخروبية، على شاطئ النيل من مدينة مصر، ووقف عليها أوقافاً وجعل بها مدرّس حديث (ت ٧٨٦هـ = ١٣٨٤م)<sup>(٣)</sup>، والمدرسة العزّية الخروبية، التي أنشأها عزّ الدين الخروبي (ت ٧٨٦هـ = ١٣٨٤م) أيضاً على شاطئ النيل من مدينة مصر، وهو أخو تاج الدين الخروبي<sup>(١)</sup>، وبالقرب من دار النحاس، بنى عبد العزيز بن أحمد بن محمد بن علي الخروبي المدرسة المليحة<sup>(٢)</sup>، والمدرسة البدرية الخروبية، وقد شيّدها القاضي بدر الدين الخروبي بعد سنة (٧٥٠هـ = ١٣٤٩م)<sup>(٣)</sup>.

---

(١) تاريخ المكتبات: النشار ص ٩٨.

(٢) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ٢، ص ٤٦٩.

(٣) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ٢، ص ٤٦٩. الانتصار: ابن دقماق، ج ٤، ص ٩٩.

(١) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ٢، ص ٤٦٩. الانتصار، ابن دقماق، ج ٤، ص ٩٩.

(٢) إنباء الغمر بأبناء العمر: ابن حجر العسقلاني، مج ١، ص ١٢١.

(٣) إنباء الغمر بأبناء العمر: ابن حجر العسقلاني، مج ١، ص ٩٢. الانتصار: ابن دقماق، ج ٤، ص ٩٨ - ٩٩.

ومن مدارس القضاة: مدرسة السيّد الحسين بن محمد بن الحسين بن محمد العوكلايني المعروف بابن قاضي العسكر (ت ٧٦٢هـ = ١٣٦١م)، بحارة بهاء الدين، ووقف عليها كتب جيدة وثمينة<sup>(١)</sup>، وإلى جانب البشتكية توجد المدرسة العزّائية، وفيها خزانة للكتب، ويذكر السخاوي: أنّ الشيخ أحمد الحسين القاهري قد عمل خازناً للكتب فيها<sup>(٢)</sup>.

كذلك بنى المدارس والحق بها المكتبات بعض المسالمة، أي من أعتنق الإسلام، وقاموا ببناء المدارس وألحقوا بها خزائن للكتب، ومنهم شمس الدين شاکر بن غزير المعروف بابن البقري (ت ٧٤٦هـ = ١٣٤٥م)، صاحب المدرسة البقرية، وهي في الرزاق الذي تجاه باب الجامع الحاكم المجاور للمنبر<sup>(٣)</sup>، كذلك بنى يحيى بن عبد الرزاق القبطي القاهري الإستادار مدرسة بجانب بيته بالقرب من المدرسة الفخرية بين السورين، وبالغ في إنشائها، ووقف بها «كتباً هائلة» كما ذكر السخاوي<sup>(١)</sup>، وكانت هناك مكتبة في قلعة الجبل وهي على الجبل وتصل بجبل المقطم، وتشرف على القاهرة والنيل والقرافة ومصر، وقد بناها صلاح الدين يوسف بن أيّوب على يد الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدي سنة (٥٧٢هـ = ١١٧٦م)<sup>(٢)</sup>، وجعل بها خزانة كتب، وقد نقلت الكثير من كتبها إلى الجامع المؤيدي<sup>(٣)</sup>.

---

(١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر العسقلاني، ج ٢، ص ١٥٥. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ ١٨٣٤م)، تحقيق: حسين بن عبد الهادي العمري، الناشر: دار الفكر المعاصر، بيروت، ط ١ (١٤١٩هـ = ١٩٩٨م)، ج ١، ص ٢٢٨.

(٢) الضوء اللامع: السخاوي، ج ١، ص ٢٧٧.

(٣) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٤، ج ٢، ص ٥٦٦. إنباء الغمر: ابن حجر، ج ١، ص ٨٦.

(١) الضوء اللامع: السخاوي، ج ١٠، ص ٢٣٣ - ٢٣٤.

(٢) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٣، ص ٦٣٧.

(٣) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٤، ج ١، ص ٣٤٣.

ولم يكن إنشاء المدارس وخزانات الكتب فيها حكراً على القاهرة وحدها، باعتبارها العاصمة، أمّا انتشرت في معظم أقاليم مصر من الجنوب في أسوان حتى الشمال في الإسكندرية، إذ كان في الإسكندرية لوحدها ما لا يقل عن خمس وعشرون مدرسة<sup>(١)</sup>، ولكلّ من هذه المدارس خزانة كتب، ومنها المدرسة السراجية في الإسكندرية: وكانت بها خزانة كتب<sup>(٢)</sup>، والمدرسة العثمانية: بناها الملك الأشرف أبو المحاسن يوسف العثماني ووقف فيها كتباً نفيسة، وقد أهدى القلقشندي هذه المدرسة كتابه «نهایة الأرب في معرفة قبائل العرب»<sup>(٣)</sup>، ومن المدارس الأخرى المدرسة العفوية والسلفية والعمادية<sup>(٤)</sup> والمدرسة العلمية<sup>(٥)</sup>.

وإذا ما انتقلنا إلى الوجه القبلي، وعلى الرغم من بعده عن العاصمة، نجد أنه لا يوجد ما يمنع من إنشاء المدارس ومكتباتها، والحق بالركب العلمي في عهد سلاطين المماليك، بل أنشئت مدارس كثيرة، ففي أسوان ذكر الأدفوي: إنّ بها المدرسة النجمية<sup>(١)</sup>، والمدرسة الباناسية<sup>(٢)</sup>، والمدرسة السيفية<sup>(٣)</sup>.

- 
- (١) تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٠٠.
- (٢) تاج المفرق في تحلية علماء المشرق: خالد بن عيسى البلوي، وتحقيق: الحسن بن محمد السائح، الناشر: صندوق إحياء التراث الإسلامي، الرباط، ج ٢، ص ٦٨.
- (٣) دور الكتب العربية: العرش، ص ٢٨٨.
- (٤) تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٠٠.
- (٥) تاج المفرق في تحلية علماء المشرق: البلوي، ج ٢، ص ٢٨.
- (١) الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والدواة بأعلى الصعيد: لكمال الدين أبي الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر الإدفوي الشافعي (ت ٥٧٤٨هـ = ١٣٤٧م)، الناشر: المطبعة الجمالية، مصر، ط ١ (١٣٣٣هـ = ١٩١٤م)، ص ١٠٨ - ١١٥ - ٢٥٤ - ٣٣٨.
- (٢) الطالع السعيد: الإدفوي، ص ٢٤٠.
- (٣) الطالع السعيد: الإدفوي، ص ٢٥٠.

وفي أسنا توجد عدّة مدارس منها المدرسة الغربية<sup>(١)</sup>، وكذلك العزّية<sup>(٢)</sup>، والمدرسة الأفرمية<sup>(٣)</sup>، والمدرسة المجدية<sup>(٤)</sup>، وعن مدينة قوص فيها ست عشرة مدرسة<sup>(٥)</sup>، منها مكتبة سليمان بن عبد القوي (ت ٧١٦هـ = ١٣١٦م)، ويذكر ابن رجب عنه: «واختصر كثيراً من كتب الأصول ومن كتب الحديث أيضاً»، ويقول عنه ابن حجر: «وكان كثير المطالعة، حتّى ليظن أنّه قرأ أكثر كتب خزائن قوص»، «ويقال إنّ في قوص خزانة كتب من تصانيفه»<sup>(٦)</sup>، كذلك توجد مدارس في أسيوط وإخميم والبهنسا وأرمنت وقنا والقصر والفيوم، وكذلك بالوجه البحري وجدت عدّة مدارس بدمياط وفيشا وبلبيس والمحلة<sup>(٧)</sup>، وكانت هذه المدارس توجد بها خزانات لحفظ الكتب، التي تضم أنواعاً مختلفاً من العلوم والفنون، وقلّما تكون هناك مدرسة بدون خزانة للكتب، فالمدرسة بوصفها مؤسّسة تعليمية وتربوية هي بحاجة ضرورية إلى مكتبة تُغنيها، وتساعدّها على إكمال مهمتها التعليمية<sup>(٨)</sup>.

- 
- (١) الطالع السعيد: الإدفوي، ص ٦٥.
- (٢) الطالع السعيد: الإدفوي، ص ٨٣ - ١٣٦ - ١٩٢.
- (٣) الطالع السعيد: الإدفوي، ص ١٩٣.
- (٤) الطالع السعيد: الإدفوي، ص ٢٣٧.
- (٥) الطالع السعيد: الإدفوي، ص ١٩.
- (٦) الذيل على طبقات الحنابلة: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب (٧٣٦-٧٩٥هـ) = (١٣٣٥-١٣٩٣م)، تحقيق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الناشر: مكتبة العبيكان، الرياض، ط ١ (١٤٢٥هـ = ٢٠٠٥)، ج ٤، ص ٤٠٤-٤٠٨. الدرر الكامنة: ج ٢، ص ٢٤٩-٢٥٢.
- (٧) تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٠٠.
- (٨) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٢، ج ١، ص ٧٢-٧٣. من روائع حضارتنا: مصطفى السباعي، الناشر: دار الوراق، بيروت، لبنان، ط ١ (١٤١٩هـ = ١٩٩٩م)، ص ٢٤٨. المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك: سعيد عبد الفتاح عاشور، ص ١٥٩. ومكتبة الإسكندرية تحتفظ بنسخة تحت رقم، ٨١٧ب، من كتاب «عمدة المحتاج في شرح المنهاج» لابن الملقن (ت ٨٠٤هـ = ١٤٠١م)، برسم خزانة مدرسة تقي الدين بالحلة. وكتاب آخر وهو

ونضيف إلى المدارس أيضاً الأسواق كما كان لتجمع الكتب، ومن هذه الأسواق سوق الورتاقين الذي بجوار المدرسة الأشرفية برسبائي<sup>(١)</sup>، وهناك أيضاً سوق الكتبيين، وهو بين الصاغة والمدرسة الصالحية، أنشئ في سنة (٧٠٠هـ = ١٣٠٠م)، وقد نُقل من موقعه إلى القيسارية، فيما بين سوق الدجاجيين المجاور للجامع الأحمر وبين سوق الحصريين، وكان يعلو هذه القيسارية ربع فيه مساكن، فتضررت الكتب من نداوة أقبية البيوت، وفسد بعضها، فعادوا إلى سوق الكتب الأول، وما برح هذا السوق أن يصبح مجمعاً لأهل العلم يترددون إليه<sup>(٢)</sup>، وكان هذا السوق موجوداً تجاه الجانب الشرقي من جامع عمرو بن العاص في أول زقاق القناديل، وقد استمر حتى سنة (٧٨٠هـ = ١٣٧٨م)<sup>(١)</sup>، وتذكر وثيقة أزبك بن ططخ: إنَّ هناك سوق للكتبيين كان بخط خان الخليلي<sup>(٢)</sup>، وعن أحمد بن محمد بن معين الكتبي يقول السخاوي: «وكان يكتب القصص بالرملة ويبيع الكتب تحت الصرغتمشية فينظر شيء من نظمه»، وهذا يدلّ على وجود سوق تحت الصرغتمشية<sup>(٣)</sup>.

---

عبارة عن مجموعة مجلدة تحتوي على إشكال ميكانيكية وهندسية وفلكية وموسيقية، تأليف: القس عيسى بيترو، وقد كان ضمن موجودات خزانة المدرسة بدمياط، انظر تاريخ المكتبات: النشار: ص ١٠٠.

(١) وثيقة برسبائي: رقم ٨٧٣، محفظة ٢٧، دار الوثائق. وثيقة برسبائي: رقم ٨٨٠ أوقاف، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٦١.

(٢) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٣، ص ٣٣٨ - ٣٣٩. الانتصار لواسطة عقد الأمصار: ابن دقماق، ج ٤، ص ٤٤ - ٦١ - ٩٥.

(١) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٣، ص ٣٣٨.

(٢) وثيقة أزبك بن ططخ: رقم ١٩٨، محفظة ٣١، دار الوثائق، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٦١.

(٣) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٢، ص ٢٠٧.



## البيمارستانات

ويعتبر البيمارستان<sup>(١)</sup> من المراكز العلمية بالإضافة إلى عملها الطبي.

بيمارستان أحمد بن طولون: وكان أول بيمارستان في مصر، بحيث يقول القلقشندي: بأنه لم «يكن قبله بيمارستان بمصر، وشرط ألا يعالج فيه جندي ولا مملوك»<sup>(٢)</sup>، ويطلق عليه اسم البيمارستان العتيق والأعلى<sup>(٣)</sup>، ويذكر ابن تغري بردي عن خزانته: «فيها ما يزيد على مائة ألف مجلد»، ولم تكن في أمور الطبّ فقط بل في سائر العلوم<sup>(١)</sup>، وقد استمرت في تأدية وظيفتها حتى عصر المماليك، فيذكر السخاوي: أنّ عمر بن منصور بن عبد الله السراج القاهري المعروف بالبهادري (ت ٨٣٤هـ = ١٤٣٠م) درس في بيمارستان أحمد بن طولون<sup>(٢)</sup>.

---

(١) البيمارسان: يقال له المارستان والبيمارستان، وهو مشفى لمعالجة المرضى وإقامتهم، وهي كلمة فارسية مركبة من بيمار أي مريض، وستان أي محل وبذلك تصحب محل المريض، وكذلك يطلق لمكان إقامة المجانين أيضاً؛ السلوك لمعرفة دول الملوك: المقريري، ج ١؛ م ٣، ص ٧١٦؛ خطط المقريري: المقريري، مج ٤، ج ٢، ص ٦٩٠-٦٩١؛ أحمد بن طولون: سيدة إسماعيل، الناشر: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ص ٢٥٢-٢٥٣؛ سيرة أحمد بن طولون: عبد الله بن محمد المدني البلوي، حققه: محمد كرد علي، الناشر: مطبعة الترقى، دمشق، ص ١٨٠؛ معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي: محمد أحمد دهمان، الناشر: دار الفكر المعاصر: بيروت، لبنان، ط ١ (١٤١٠هـ = ١٩٩٠م)، ص ٤١.

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشا: احمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١هـ = ١٤١٨م)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ (١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م)، ج ٣، ص ٣٩٢.

(٣) الانتصار: ابن رقماق، ج ٤، ص ٩٩؛ تاريخ البيمارستان في الإسلام: أحمد عيسى بك، الناشر: الطبعة الهاشمية، بدمشق، ص ٦٧.

(١) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ٤، ص ١٠٥-١٠٦؛ تاريخ الجامعات الإسلامية: محمد عبد الرحيم غنيمية، الناشر: دار الطباعة المغربية، تطوان (١٣٧٢هـ = ١٩٥٣م)، ص ٢٨٤.

(٢) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٦، ص ١٣٩؛ تراث القاهرة العلمي والفني في العصر الإسلامي: دكتور عبد الرحمن زكي، الناشر: مكتبة الانجلو، القاهرة (١٣٨٩هـ = ١٩٦٩م)، ص ٩.

أما البيمارستان المنصوري: فهو من أعظم البيمارستانات في مصر، حيث يقول عنه الرحال ابن بطوط: «وأما المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه، وقد أعدّ فيه من المرافق والادوية ما لا يحصر، ويذكر أنّ مجباه ألف دينار كل يوم»<sup>(١)</sup>، وممن عمل في هذا البيمارستان، ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية ولد (٦١٧هـ = ١٢٢٠م)، وكان قد أوقف كتبه وداره عليها<sup>(٢)</sup>، كذلك محمد بن محمد بن عبد الرحمن التونسي (ت ٧٣٨هـ = ١٣٣٧م)<sup>(٣)</sup>، وقد كانت هذا المارستان بالحقيقة جامعةً في الطب، حيث كانت هناك المحاضرات، وكانت به خزانة كتب، وعلى ما يبدو من خلال ذكر المقرئ لم تكن كلّها في الطب، لأنّ الدروس كانت في الأمور الدينية أيضاً<sup>(٤)</sup>، ويذكر محمد ماهر حمادة أنّ عدد الكتب التي وجدت في مستشفى قلاوون في القاهرة «حوالي مائة ألف مجلد»، أخذت أغلبها إلى دار الحكمة في القاهرة<sup>(١)</sup>.

---

(١) رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار: شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، تحقيق: عبد الهادي التازي، الناشر: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية (١٤١٧هـ = ١٩٩٧م) ج ١، ص ٢٠٣.

(٢) تراث القاهرة العلمي والفني في العصر الإسلامي: عبد الرحمن زكي، الناشر: مكتبة الأنجلو، القاهرة، ص ٥١ - ٥٢.

(٣) حسن المحاضرة: السيوطي، مج ١، ص ٣٨٢. تراث القاهرة العلمي: عبد الرحمن زكي، ص ٥٩.

(٤) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ٢، ص ٦٩٢ - ٦٩٧.

(١) المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ومصائرهما: الدكتور محمد ماهر حمادة، الناشر: دار مؤسسة الرسالة بيروت، ط ٣ (١٤٠١هـ = ١٩٨١م)، ص ١٤٦.

## مكتبات الخوانق والربط والزوايا

كانت هناك أيضاً مكتبات لكلٍّ من الخوانق<sup>(١)</sup>، والربط<sup>(٢)</sup>، والزوايا<sup>(٣)</sup>، وهي مكان للصوفية، حيث ينقطعون فيها للتعبد، وذلك بسبب انتشار التصوف على نطاق واسع في عصر المماليك، حيث يذكر المقرئ اثني عشر وخانقاه<sup>(٤)</sup>، واثني عشر رباطاً<sup>(٥)</sup>، وخمس وعشرين زاوية<sup>(١)</sup>، فهي دور للعلم والعبادة، لذلك كانت تحوي على مكتبات. ومن أشهر هذه المكتبات الملحقة بالخوانق، مكتبة الخانقاه البكتيرية: أنشأها الأمير بكتمر الساقى في سنة (٧٢٦هـ = ١٣٢٦م)، ويذكر المقرئ: «تمزق ما كان بها من الفرش والآلات النحاس والكتب

---

(١) الخوانق: مفردا خانقاه وتلفظ سابقاً بخانكاه ولكثر استعمالها على الألسن فقليل خانقاه، وهي حدثت في الإسلام في حدود الأربع مائه للهجرة، وجعلت لتخلي الصوفية فيها لعبادة الله تعالى. خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ٢، ص ٧٢٤. الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلاذها القديمة والشهيرة: علي باشا مبارك، الناشر: مطبعة بولاق، ط ٢ (١٣٠٥هـ = ١٨٨٧م)، ج ٦، ص ١٣٨. المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك: سعيد عبد الفتاح عاشور، ص ١٨٦.

(٢) الربط: مفردا رباط وهي في أصل اللغة الخيل المربوطة، وعرفت أيضاً بملازمة ثغر العدو، ثم في العصر المملوكي أصبحت تطلق على المؤسسات التي تشبه الملاجئ في العصر الحديث، لتكون مأوى لفقراء المسلمين أو عتقاء الواقف أو الجند البطالين، وكذلك مأوى للصوفية أو لغيرهم من الفقراء. لسان العرب: أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفرقي المصري، الناشر: دار صادر، بيروت، ط ٦ (١٤١٧هـ = ١٩٩٧م)، ج ٧، ص ٣٠٢ - ٣٠٣. خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ٢، ص ٧٩٤. الأوقاف والحياة الاجتماعية: محمد أمين، الناشر: دار العربية بالقاهرة، ط ١ (١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م)، ص ٢٢٠ - ٢٢١.

(٣) الزوايا: مفردا زاوية وهي ركن الدار وهي تطلق على الدار الصغيرة التي تتسع لبضع الأشخاص وهي مقر للصوفية وفقراء العجم والأيتام وغيرهم من أهل الصلاح والورع، وقد يكون مكان يتعبد فيه شخص واحد أو قد يصل إلى عشرة. التصوف في مصر ابان العصر العثماني: توفيق الطويل، الناشر: مكتبة الآداب بالجماميز مطبعة الاعتماد، مصر، ص ٤٢ - ٤٣. خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ٢، ص ٨٠٦ - ٨٠٧ - ٨١٥ - ٨١٧.

(٤) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ٢، ص ٧٢٧ - ٧٩٢.

(٥) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ٢، ص ٧٩٣ - ٨٠٥.

(١) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ٢، ص ٨٠٥ - ٨٢٦.

والربعات وغيرها لخلوه من السكان»، وكان الأمير قد أوقف عليها ربعات منها ما وصل إلينا<sup>(١)</sup>.

والخانقاه البشتكية: هي خارج القاهرة، على جانب الخليج من البر الشرقي تجاه جامع بشتاك، بناها الأمير سيف الدين بشتاك الناصري، وقد فتحت في سنة (٥٧٣٦هـ = ١٣٣٥م)<sup>(٢)</sup>، ويذكر السخاوي أن أحمد بن الحسن بن علي الشهاب الجوهري كان: «شيخ الصوفية بالبشتكية مع خزن كتب العرايبة بجوارها وغير ذلك»<sup>(٣)</sup>.

كذلك أنشأ برسباي خانقاه بقرافة المماليك، وألحق بها خزانة كتب<sup>(٤)</sup>، وقد بنى الأمير علاء الدين مغلطاي الجمالي الخانقاه الجمالية في سنة (٥٧٣٠هـ = ١٣٣٠م)، وجعل بها خزانة كتب، حيث تنص وثيقة وقفه: «وأما الخزانة الكتبية التي بإيوانها المذكور فيحتفظ فيها ما لعله يكون بهذه الخانقاه من الكتب والربعات الشريفة»<sup>(٥)</sup>، والخانقاه الصلاحية: قد كانت داراً في أيام الدولة الفاطمية، وتعرف بدار سعيد السعداء، وهي مقابل دار الوزارة، بناها الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة (٥٦٩هـ = ١١٧٣م)، وقد جعل بها خزانة كتب، وممن عمل خازناً بها جمال الدين عبد الله بن علي بن أحمد الأنصاري بن حديدة (ت ٧٨٣هـ =

---

(١) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ٢، ص ٧٧١ - ٧٧٢ - ٧٧٣ - ٧٧٥. ودار الكتب المصرية تحتفظ بربعة بكتمر الساقى، تاريخ المكتبات: النشار، ملحق أول، لوحة رقم ٣، ص ٢٦٥.

(٢) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ٢، ص ٧٤٦.

(٣) الضوء اللامع: السخاوي، ج ١، ص ٢٧٧.

(٤) وثيقة برسباي: رقم ٨٨٠، أوقاف، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٠٥.

(٥) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ٢، ص ٥٧٥ - ٥٧٦ - ٧٤٣. وثيقة مغلطاي الجمالي: رقم ٦٦٦ أوقاف، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٠٥.

١٣٨١م<sup>(١)</sup>، ولقد أوقف كتاب «الإحاطة في أدباء غرناطة» لذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الخطيب على هذا الخانقاه<sup>(٢)</sup>.

خانقاه شيخو: في خط الصليبية خارج القاهرة تجاه جامع شيخو، أنشأها الامير الكبير سيف الدين شيخو العمري سنة (٧٥٦هـ = ١٣٥٥م)، وقد جعلها مدرسة و خانقاه، وقد كان بها خزانة كتب، وفي حوالي سنة (٨١٤هـ = ١٤١١م) قام اللصوص وقتلوا خازن الكتب بالشيخونية والخدام الكبير بها الشيخ سعد بن خليل بن سليمان الرومي المرزباني الحنفي<sup>(٣)</sup>، كما قام فرج بن برقوق (٨١٣هـ = ١٤١٠م) بإنشاء خانقاه ونسبت إليه وعرفت بالخانقاه البرقوقية، وذلك تنفيذاً لوصية والده السلطان برقوق، الذي أمر أن يدفن تحت أقدام المتصوفة والفقراء بالصحراء، وأن يبقى فوقه الخانقاه، وقد جعل بها خزانة كتب، وأوقف مالاً لكتابة مصحف شريف يوضع بالخانقاه<sup>(٤)</sup>.

واستمرّ إنشاء الخوانق حتى نهاية العصر المملوكي، حيث أنشأ السلطان الغوري خانقاه، وعرفت بالخانقاه الغورية، وجعل لها خزانة كتب فيها ثماني كتبيات وخلوة، حيث تقول وثيقتها: «... وبها ثماني كتبيات متطابقة وخلوة برسم المصاحف والربعات الشريفة»<sup>(١)</sup> وكان من

(١) شذرات الذهب: ابن العماد، مج ٨، ص ٤٨٢.

(٢) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب: أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر، بيروت (١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م)، ج ٧، ١٠٢ - ١٠٥. وذلك نصّ الوقفية المذكور في، تاريخ المكتبات: النشر، ص ١٧٢ - ١٧٣.

(٣) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: السيوطي، ج ١، ص ٥٧٨. خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ٢، ص ٧٦٠.

(٤) وثيقة فرج بن برقوق: رقم محفظة ١١، انظر تاريخ المكتبات: النشر، ص ١٠٦. خطط المقرئ: المقرئ، مج ٣، ص ١٧١.

(١) وثيقة وقف الغوري: رقم ٨٨٣ أوقاف، انظر تاريخ المكتبات: النشر، ص ١٠٦.

الربعات، ربعة مكتوبة بالذهب كانت بالخانقاه البكتيرية، وقيل أنّ ثمنها بلغ ألف دينار، وقد أخذها السلطان الغوري ووضعها في الخانقاه<sup>(١)</sup>.

ومن الأربطة رباط الأثار: وهو بالقرب من بركة الحبش، مطلقاً على النيل ومجاور لبستان المعشوق، بناه تاج الدين بن الصاحب فخر الدين ولد الصاحب بهاء الدين علي المشهور بختا، ولكنه مات قبل تكملته، وأكمله ابنه ناصر الدين، وقيل له رباط الأثار، لأنّ فيه قطعة خشب وحديد يقال أنّهما من آثار النبي ﷺ، وقد جعلت بها خزانة كتب<sup>(٢)</sup>.

وقد أنشأ إبراهيم بن موسى بن أيّوب البرهان أبو أسحاق وأبو محمد الابناسي ثمّ القاهري المقسي الشافعي الفقيه (ت ٨٠٢هـ = ١٣٩٩م) زاوية بظاهر القاهرة في حيّ المقس، وقد جعل بها خزانة للكتب جليّة، ورتب فيها دروساً<sup>(٣)</sup>.

### مكتبات الترب والقباب

تعدّ أشهر القبب القبة المنصورية: هذه القبة تجاه المدرسة المنصورية، وهي من أعظم المباني المملوكية، بناها الملك المنصور مع المدرسة والبيمارستان في سنة (٦٨٣هـ = ١٢٨٤م)<sup>(١)</sup>، وقد جعل بهذه القبة دروس تفسير وحديث، وكذلك ميعاد للتصوف، وجعل بها خزانة كتب من الختمات الشريفة والربعات المنسوبة الخط، وكتب التفسير والحديث والفقهاء واللغة والطب

---

(١) تاريخ المساجد الأثري: حسن عبد الوهاب، الناشر: الهيئة المصرية للكتاب، ط ٢ (١٤١٤هـ = ١٩٩٤م)، ص ٢٩٤.

(٢) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ٢، ص ٨٠١ - ٨٠٢.

(٣) الضوء اللامع: السخاوي، ج ١، ص ١٧٢ - ١٧٣.

(١) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ٢، ص ٥١٣ - ٥١٦. السلوك لمعرفة دول المملوك: المقرئ، ج ١، ق ٣، ص ٧١٦ - ٧٢٥. النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٧٦ - ٢٧٧. تذكرة النبيه: ابن حبيب، ج ٣، الملحق، ص ٣٨٦. السلوك لمعرفة دول المملوك: المقرئ، ج ١، ق ٣، ملحق ٩، ص ٩٩٧ - ٩٩٨.

والأدبيات ودواوين الشعراء شيئاً كثيراً، وقد كانت خزانة جلييلة في عدّة أحمال ممّا كان قد أوقفه الملك المنصور وغيره<sup>(١)</sup>، ولدرجة اهتمام المنصور قلاوون بها جعل لخازنها أربعين درهم في كلّ شهر، وعيّن لها من يقوم بخدمتها<sup>(٢)</sup>، كذلك الأمير يشبك من مهدي الداودار (ت ٨٨٥هـ = ١٤٨٠م) أنشأ قبّة، وأودع بها كتبه، وقد وصل ألينا بعضها مثل كتاب «الوافي بالوفيات» للصفدي<sup>(٣)</sup>.

أمّا فيما يخصّ الترب، فقد أنشأ المؤرخ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (٨١٣ - ٨٧٤هـ) = (١٤١٠م - ١٤٦٩م)، تربةً هائلة ودفن بها، وكان قد أوقف كتبه وتصانيفه بها، وهي بالقرب من تربة السلطان الأشرف إينال<sup>(١)</sup>، وقد وصلتنا ربعة شريفة للأمير بكتمر الساقى كانت موجودة ضمن خزانته في تربته، وشرط ألاّ تخرج من التربة ولا تعار

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج ١، ق ٣، ملحق ٩، ص ١٠٠٠ - ١٠٠١. خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٤، ج ١، ص ٥٢٠. نهاية الأرب: النويري، ج ٣١، ص ٧٣. تذكرة النبيه: ابن حبيب، ج ٣، الملحق، ص ٣٨٨.  
(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج ١، ق ٣، ملحق ٩، ص ١٠٠١. تذكرة النبيه: ابن حبيب، ج ٣، الملحق، ص ٤٠٦.

(٣) تحتفظ مكتبة السلطان سليمان باستانبول بنسخة خطية من كتاب «الوافي بالوفيات» كان قد وقفها الأمير يشبك الداودار ثم انتقلت إلى ملك رجلين وقعا على صفحة عنوان الكتاب ما نصّه: «... من كتب محمد بن العربي الشافعي وكتب يحيى من حجي الشافعي سنة (٨٧٣هـ = ١٤٦٨م)» ومن هذا الكلام يتبين أن هذا الكتاب خرج من خزانة يشبك في حياته، ولعلّ السبب في ذلك ثورة العوام، ونهبوا فيها بيته، ويظن أنّ من ما نهب هذا الكتاب وبيع، انظر صفحة العنوان من كتاب «الوافي بالوفيات» للصفدي، انظر تاريخ المكتبات: النشار، الملحق الأول، لوجة رقم ١٠، ص ٢٧٢. الضوء اللامع: السخاوي، ج ١٠، ص ٢٧٤.

(١) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ١، ص ١٥. الضوء اللامع: السخاوي، ج ١٠، ص ٣٠٥ - ٣٠٨. شذرات الذهب: ابن العماد، ج ٩، ص ٢٧٢ - ٢٧٣. وثيقة وقف ابن تغري بردي: رقم ١٤٧، محفظة ٢٣، دار الوثائق، انظر تاريخ المكتبات: النشار ص ١٠٨.

ولا تخرج إلا للإصلاح<sup>(١)</sup>، وكذلك أوقف السلطان برسباي الدقماقي الظاهري على خزانة تربته كتباً تحتوي على المصاحف والربعات الشريفة<sup>(٢)</sup>، وكذلك من الترب، تربة الملك الفاضل: التي قام بتجديدها الأمير جانبك<sup>(٣)</sup>، وتربة الظاهر خشقدم، التي تولّى التدريس بها القاضي زكريا بن محمد بن أحمد السبكي القاهري الشافعي المعروف بزين الدين الأنصاري (ت ٩٢٦هـ = ١٥٢٠م)<sup>(٤)</sup>.

- 
- (١) نصّ الوقف على ربيعة الأمير بكتمر الساقي: رقم ٧٢ مصاحف دار الكتب المصرية، تاريخ المكتبات: النشار، الملحق الأول، لوحة رقم ٣، ص ٢٦٥.
- (٢) وثيقة برسباي: رقم ٨٨٠ أوقاف، رقم ٣٣٩٠ تاريخ. دار الكتب المصرية: نشر أحمد دراج ٥٠ - ٥١، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٠٩.
- (٣) تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات: نور الدين علي بن أحمد بن عمر بن خلف بن محمود السخاوي الحنفي، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، ط ٢ (١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م)، ص ١٦٥ - ١٦٦ - ١٦٧.
- (٤) الذيل على رفع الإصر أو بغية العلماء والرواة: الأمام محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ = ١٤٩٦م)، تحقيق: جوده هلال - محمد محمود صبح، الناشر: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ص ١٤٠ - ١٤٧.



## مكتبات بلاد الشام في العصر المملوكي

### المكتبات الخاصة

إنّ المكتبات الخاصّة في بلاد الشام كثيرة وسوف نتحدث عن بعضها كمثال عن باقي المكتبات الخاصّة، ومن الذين كانت لهم مكتبات خاصّة: نور الدين محمود الشهيد ولد بحلب سنة (٦١١هـ = ١٢١٤م)، وقد أوقف كتباً كثيرة على أهل العلم، وكان حريصاً على تحصيل الكتب<sup>(١)</sup>، وكذلك مكتبة جمال الدين القفطي (ت ٦٤٦هـ = ١٢٤٨م) الذي جمع من الكتب ما لا يوصف<sup>(٢)</sup>، والشيخ الإمام المحدث الفقيه علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله اليونيني البعلبكي الحنبلي (ت ٧٠١هـ = ١٣٠١م)، الذي حصل الكتب النفيسة<sup>(٣)</sup>، وابن البارزي قاضي حماة هبة الله بن عبد الرحيم بن إبراهيم شيخ الإسلام ومفتي الشام الحموي الشافعي (ت ٧٣٨هـ = ١٣٣٧م)، يقول عنه ابن كثير: إنّه صاحب «التصانيف الكثيرة المفيدة في الفنون العديدة»<sup>(٤)</sup>.

ومحمد بن محمد بن عبد الله بن مالك شمس الدين (ت ٧١٩هـ = ١٣١٩م) الذي لازم الجامع الأمويّ أكثر من أربعين سنة، وله خزانة وبيت بالمئذنة الشرقية<sup>(٥)</sup>، ويوسف بن إبراهيم بن جملة العالم الفقيه قاضي القضاة بالشام الحوراني الأشعري (ت ٧٣٨هـ = ١٣٣٧م)، حيث كانت عنده خزانة كتب وزعها على طلبة العلم<sup>(٦)</sup>، وإبراهيم بن أبي بكر بن عبد العزيز شمس

(١) مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمدارس: عبد الباسط العلمي، تحقيق:

صلاح الدين المنجد، الناشر: مطبعة الترقّي، دمشق، (١٣٦٦هـ = ١٩٤٧م)، ص ١١٣ - ١١٤.

(٢) فوات الوفيات: الكتبي، ج ٣، ص ١١٧.

(٣) أعيان العصر: الصفدي، ج ٣، ص ٤٧٦ - ٤٧٧. البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٨، ص ١٣.

(٤) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٨، ص ٤٠٥.

(٥) أعيان العصر: الصفدي، ج ٥، ص ١٦٥.

(٦) أعيان العصر: الصفدي، ج ٥، ص ٥٩٥. البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٨، ص ٤٠٤.

الدين الكتبي الجزري المعروف بالفاشوشة (ت ٧٠٠هـ = ١٣٠٠م)، وكان يتجر بالكتب باللبادين، وقد احترقت كتبه في حريق اللبادين، وذهب له في ذلك خمسة آلاف مجلد، ولم يبق له إلا ما هو في العرض أو في العارية<sup>(١)</sup>، وأحمد بن سعد بن محمد أبو العباس العسكري الأندلسي الصوفي (ت ٧٥٠هـ = ١٣٤٩م)، حيث أوقف كتبه على أهل العلم<sup>(٢)</sup>، وكذلك أسد الحكيم اليهودي المعروف بأسيدة توفي بعد سنة (٧٣٠هـ = ١٣٣٠م)، وكان جراحاً وله مشاركة في الطب والكحل، وكان الملك المؤيد صاحب حماة يحبه ويقربه، وقد أوصى له بشيء من كتبه<sup>(٣)</sup>.

وإسماعيل بن علي السلطان الإمام والعالم الفاضل الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء صاحب حماة (ت ٧٠٢هـ = ١٣٠٢م)، وقد كان عنده كتب نفيسة في خزائنه وقد فرّق كتبه على أصحابه<sup>(٤)</sup>، وعلي بن أيوب بن منصور علاء الدين المقدسي الشافعي (ت ٧٤٨هـ = ١٣٤٧م)، ولما بيعت كتبه في حياته، تعالى الناس في أثمانها، وبالغوا في قيمتها وذلك لصحتها وحسنها وإتقانها<sup>(٥)</sup>، وعلي بن الحسن الخطيب ابن الجابي خطيب جامع الجراح عمل في الكيمياء (ت ٧٠١هـ = ١٣٠١م)، ولما بيعت كتبه جاء الشيخ تقي الدين واشترى منه كتباً بألف درهم، وجميعها كانت في الكيمياء ورمى بها في بركة وغسلها، وقال: «هذه كانت تضلّ

---

(١) أعيان العصر: الصفدي، ج ١، ص ٦٦.

(٢) أعيان العصر: الصفدي، ج ١، ص ٢١٦ - ٢١٧.

(٣) أعيان العصر: الصفدي، ج ١، ص ٤٨٨ - ٤٨٩ - ٤٩٠. الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك

الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط - تركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث، بيروت (١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م) ج ٩، ص ٧ - ٨.

(٤) أعيان العصر: الصفدي، ج ١، ص ٥٠٣ - ٥١٢. الوافي بالوفيات: الصفدي، ج ٩، ص ١٧٣.

(٥) الدرر الكامنة: ابن حجر، ج ٣، ص ٩٩، أعيان العصر: الصفدي، ج ٣، ص ٣٠٥.

الناس وتضيّع أموالهم»<sup>(١)</sup>، وعلي بن محمد بن أبي بكر الأنصاري الشافعي الاسكندري الشافعي (ت ٧٤٠هـ = ١٣٣٩م)، وقد كتب بخطّه كثيراً من الفقه واللغة والتصوّف، وأوقف كتبه على طلبة العلم<sup>(٢)</sup>، والقاسم بن محمد بن يوسف البرزالي الاشبيلي ثمّ الدمشقي الشافعي (ت ٧٣٩هـ = ١٣٣٨م)، وقد كان باذلاً لكتبه لا يمنعها عمّن سأله شيئاً منها، وقد أوقف كتبه<sup>(٣)</sup>.

ومحمد بن أبي بكر بن أيّوب الزرعي المعروف بابن قيّم الجوزي (ت ٧٥١هـ = ١٣٥٠م)، ما جمع أحداً من الكتب ما جمع، لأنّ عمره أنفقه في تحصيل الكتب، ولما مات اشترى الشيخ فتح الدين من كتبه أمّهات وأصولاً جيدة، وكان عنده من كلّ شيء في فنون العلم، بكلّ كتاب نُسخاً عديدة، وأقام أولاده شهوراً يبيعون منها، غير الذي أبقوه لأنفسهم<sup>(٤)</sup>، وهبة الله بن عبد الرحيم الجهني الحموي البارزي الشافعي قاضي حماة، صاحب التصانيف (ت ٧٣٨هـ = ١٣٣٧م)، وقد اقتنى من الكتب شيئاً كثيراً، حيث كان عنده من كلّ شيء نسختان وثلاث، وكان إذا سمع بتصنيف لأحدٍ من أهل عصره جهز الدراهم واستنسخ ذلك<sup>(٥)</sup>، والشيخ محمد بن أبي القاسم أحمد التجيبي القرطبي ثمّ الاشبيلي، وقد قدم دمشق (ت ٧١٨هـ = ١٣١٨م)، وقد كتب بيده نحو مائة مجلّد<sup>(٦)</sup>.

(١) الدرر الكامنة: ابن حجر، ج ٣، ص ١٠٨. أعيان العصر: الصفدي، ج ٣، ص ٣٢٨.

(٢) أعيان العصر: الصفدي، ج ٣، ص ٤٧٧ - ٤٧٩.

(٣) أعيان العصر: الصفدي، ج ٤، ص ٤٩ - ٥٤.

(٤) من ذبول العبر: الذهبي ولمحمد بن علي الحسيني، تحقيق، محمد رشاد عبد المطلب، الناشر: مطبعة حكومة الكويت، ص ٢٨٢. أعيان العصر: الصفدي، ج ٤، ص ٣٦٦ - ٣٧٠.

(٥) أعيان العصر: الصفدي، ج ٥، ص ٥٣٢ - ٥٣٦.

(٦) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٨، ص ١٨٦ - ١٨٧. من ذبول العبر: الذهبي والحسيني، ص ٩٧ - ٩٨.

والقاضي شمس الدين بن مفلح المقدسي الحنبلي (ت ٧٦٣هـ = ١٣٦٢م)، وقد جمع مصنفاتٍ كثيرةً منها كتاب «المفنع» نحو ثلاثين مجلداً<sup>(١)</sup>، وقاضي القضاة ابن البارزي شرف الدين أبو القاسم الجهيني الحموي المعروف بابن البارزي (ت ٧٣٨هـ = ١٣٣٧م)، صاحب التصانيف الكثيرة المفيدة في فنون عديدة، وسمع الكثير، وحصل فنوناً جمّة وصنّف كتباً كثيرة<sup>(٢)</sup>، والشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ = ١٣٦٣م)، وقد كتب الكثير من التاريخ واللغة والأدب، وله الأشعار الفائقة والفنون المتنوعة، وجمع وصنّف وألّف وكتب ما يقارب مئتين من المجلّدات<sup>(٣)</sup>، والصدر البكري أبو علي الحسن بن محمد النيسابوري الدمشقي الصوفي (ت ٦٥٦هـ = ١٢٥٨م)، وقد كتب الكثير، وعني بهذا الشأن أتمّ عناية، وجمع وصنّف، وشرع في مسودة ذيل على تاريخ ابن عساكر<sup>(٤)</sup>.

والجمال بن الصابوني أبو حامد بن علي بن محمود (ت ٦٨٠هـ = ١٢٨١م)، يذكر عنه الذهبي: «وكتب العالي والنازل وبالغ وحصل الأصول وجمع وصنّف»<sup>(٥)</sup>، والسويدي الحكيم العلامة شيخ الأطباء عزّ الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن طرخان الأنصاري الدمشقي (ت ٦٩٠هـ = ١٢٩١م)، وقد برع في الطب، وصنّف وكتب الكثير بخطّه المليح، ونظر في العقليات وألّف كتاب «الباهر في الجواهر» و«التذكرة في الطب»<sup>(٦)</sup>، وشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي الصالح الحنبلي (ت ٧٤٤هـ = ١٣٤٣م) الذي اعتنى

(١) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٨، ص ٦٥٧. من ذبول العبر: الذهبي والحسيني، ص ٣٥٢.

(٢) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٨، ص ٤٠٥. من ذبول العبر: الذهبي والحسيني، ص ٢٠٩.

(٣) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٨، ص ٦٨٠.

(٤) العبر في خبر من غير: الذهبي، ج ٥، ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٥) العبر في خبر من غير: الذهبي، ج ٥، ص ٣٣٢.

(٦) العبر في خبر من غير: الذهبي، ج ٥، ص ٣٦٦.

بعلم الرجال والعلل، وقد جمع وصنّف<sup>(١)</sup>، ومات بطرابلس سنة (٧٤٦هـ = ١٣٤٥م) قاضيها حسام الدين حسن بن رمضان القرمطي مدرس الناصرية بالجبل، وقد برع في علم الحديث وصنّف وأفاد<sup>(٢)</sup>، وشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحلّيم بن عبد السلام بن عبد الله بن تيمية الحرّاني (ت ٧٢٨هـ = ١٣٢٨م)، وكان له مصنّفات أكثر من مئتي مجلّد<sup>(٣)</sup>، وقد نُقل ما كان عنده من الكتب إلى خزّانة الكتب بالعادلية الكبيرة، «وكانت نحو ستين مجلّداً وأربع عشرة ربطة كرّاريس»<sup>(٤)</sup>، ومؤرخ الشام ومحدّثه شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الدمشقي المعروف بالذهبي (ت ٧٤٨هـ = ١٣٤٧م)، صاحب كتاب «تاريخ الإسلام» و«سيرة النبلاء» و«الميزان» وانتقى واختصر كثيراً من مؤلّفات المتقدمين والمتأخرين، وصنّف الكتب المفيدة السائرة في الأفاق<sup>(٥)</sup>.

وأرغون الأمير سيف الدين الداودار الناصري كافل الممالك الإسلامية (ت ٧٣١هـ = ١٣٣١م)، وكانت عنايته بالكتب التي إليها المنتهى، وبلغ من جمعها ما أراد واشتهى، ولما مات قجّليس بمصر وهو بحلب «أرسل ألفي دينار ليشتري له كتب من تركته، وجهاز إلى بغداد، واستنسخ فتاوى ابن قاضي خان، وعلم الناس رغبته في ذلك فحملوا إليه حملاً من أطراف الممالك»<sup>(٦)</sup>.

(١) من ذبول العبر: الذهبي والحسيني، ص ٢٣٨ - ٢٣٩.

(٢) من ذبول العبر: الذهبي والحسيني، ص ٣٥٠.

(٣) من ذبول العبر: الذهبي والحسيني، ص ١٥٧ - ١٥٨. البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٨، ص ٢٨٩.

(٤) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٨، ص ٢٩٣.

(٥) من ذبول العبر: الذهبي والحسيني، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ - ٢٦٩.

(٦) أعيان العصر: الصفدي، ج ١، ص ٤٥٢.

ومنهم من كان يجمع الكتب من أجل أن يُقال: إنّ فلاناً عنده خزانة كتب أي رياءً أعاذنا الله وأياكم، حيث يقول السخاوي عن إبراهيم بن أحمد بن حسن بن الغرس التنوخي الطائي العجلوني الدمشقي الشافعي ويعرف بابن الغرس (ت ٨٨٨هـ = ١٤٨٣) بدمشق: «عنده من الكتب والأجزاء وتصانيف شيخه ما لم ينتفع به، بل وعطل على غيره الانتفاع بها، لعدم سماحه بعاريتها حسبما أستفيض عنه، حتى أنه نقل عنه أنه كان يقول: إذا عانيت الموت ألقيتها في البحر، وتفرق الناس كتبه بأبخس ثمن»<sup>(١)</sup>.

### مكتبات المساجد والجوامع

لقد ألحقت المكتبات بالجوامع في بلاد الشام ولكن أغلب الجوامع في دمشق قد غُلب عليها طابع المدارس فتكون داراً للحديث أو داراً للقرآن، ولذلك سوف نتحدث عن الجامع الأموي فقط من جوامع دمشق.

جامع دمشق: ويقال له جامع بني أمية والجامع الأموي والجامع المعمور، بناه الوليد بن عبد الملك سنة (٨٦هـ = ٧٠٥م)<sup>(٢)</sup>، وكان قد أصابه حريق سنة (٤٦١هـ = ١٠٦٩م) ودثرت محاسنه<sup>(٣)</sup>، وتم إصلاحه، وكان أحمد بن علي بن الفضل بن الفرات (ت ٤٩٤هـ = ١١٠٠م) أوّل من أوقف عليه الكتب بعد الحريق<sup>(٤)</sup> وكذلك عُثر على جزء أوقف على خزانة الكتب في مشهد زين العابدين سنة نيف وسبعين وأربعمائة هجرية في الجامع<sup>(٥)</sup>، وقد كانت فيه الخزانة

(١) الضوء اللامع: السخاوي، ج ١، ص ١٢ - ١٣.

(٢) الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج ٢، ص ٢٨٥.

(٣) شذرات الذهب: ابن العماد، مج ٥، ص ٢٥٧.

(٤) دور الكتب العربية: العث، ص ٢٢٩.

(٥) خطط الشام: محمد كرد علي، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت، ط ٢ (١٣٩١هـ = ١٩٧١م)، ج ٦،

الفاضلية وخزانة التربة الأشرفية وخزانة مشهد ابن عروة وخزانة مقصورة ابن سنان، وكذلك كانت فيه خزانة بيت الخطابة، التي كانت بحجرة الخطابة<sup>(١)</sup>، وكذلك خزانة حلقة الحنابلة، حيث أنّ العماد الحنبلي إبراهيم بن عبد الواحد (ت ٦١٤هـ = ١٢١٧م) كان يصلي بالحنابلة بالجامع الأمويّ، وكان يصلي إلى خزانتيْن مجتمعتيْن<sup>(٢)</sup>، وكذلك بيت الملك الحسن حيث كان للملك الحسن أحمد بن صلاح الدين بيت غرب الكلاّسة، شمالي الجامع بجانب الفاضلية، وقد كان اسماعيل بن عبد الله الأتباطي (ت ٦١٨هـ = ١٢٢١م) قد أودع كتبه فيه<sup>(٣)</sup>.

وخزانة كتب الفخر المالكي: محمد بن عمر بن عبد الكريم الشافعي (ت ٦٤٣هـ = ١٢٤٥م)، حيث كانت له خزانة كتب تجاه محراب الصحابة<sup>(٤)</sup>، وكان لبهاء الدين علي بن محمد (ت ٦٩٩هـ = ١٢٧٠م) مصحفاً في الجامع تحت قبة النسرة للقراءة بعد صلاة الفجر<sup>(٥)</sup>، وكانت قد جُمعت الخزانة الموجودة بهذا الجامع من الزاوية الغربية، ومن الكلاّسة، ومن أروقة الجامع، وكان ذلك في زمن الملك المعظم عيسى بن العادل (ت ٦٥٦هـ = ١٢٥٨م)، ووضعت في مشهد عروة، ولذلك قام الملك ببناء خزانة في شرق المشهد وفي غربه، وكان ذلك بسبب نصيحة قاضي دمشق جمال الدين يونس بن بدران للملك المعظم عيسى بجمع هذه الخزانة<sup>(١)</sup>،

(١) خطط الشام: محمد كرد علي، ج ٦، ص ٢٠٠.

(٢) الذيل على الروضتين: شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي (ت ٦٦٥هـ = ١٢٦٧م)، تحقيق: عزت العطار الحسيني، الناشر: دار الجليل، بيروت، ط ٢ (١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م)، ص ١٠٥.

(٣) الذيل على الروضتين: أبو شامة، ص ١٣١.

(٤) الوافي بالوفيات: الصفدي، ج ٤، ص ١٨٤.

(٥) الدارس في تاريخ المدارس: عبد القادر بن محمد النعيمي، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، ط ١ (١٤١٠هـ = ١٩٩٠م)، ج ٢، ص ٣١٤.

(١) الذيل على الروضتين: أبو شامة، ص ١٠٥ - ١٠٦.

ويمكن أن نقدر عدد الخزائن التي كانت موجودة بجامع بني أمية بأكثر من عشرين خزانة، أي أكثر من خمسة آلاف مجلد<sup>(١)</sup>.

ولم تكن المكتبات الملحقة بالجامع مقصورة في دمشق، وإنما كانت منتشرة في باقي المدن من بلاد الشام، ففي الشمال في مدينة حلب، كانت هناك عدة مكتبات ملحقة بالجامع، ومنها خزانة مصحف الجامع المعروف بالجامع الأموي، يقول ابن الوردي في سنة (٧٣٨هـ = ١٣٣٧م): «توفي بدر الدين محمد بن إبراهيم بن الدقاق الدمشقي ناظر الوقف بحلب، وفي أيام نظره فتح الباب المسدود الذي بالجامع بحلب، شرقي المحراب الكبير، لأنه سمع أنّ بالمكان المذكور رأس زكريا النبي ﷺ، فأرتاب في ذلك، فأقدم على فتح الباب المذكور بعد أن هُي عن ذلك، فوجد باباً عليه تآزير رخام أبيض، ووجد في ذلك تابوت رخام أبيض فوقه رخامة بيضاء مربعة، فرفع الرخامة عن التابوت فإذا بها جمجمة فهرب الحاضرون هيبة لها، ثم ردّ التابوت وعليه غطاؤه إلى موضعه، وسدّ عليه الباب ووضعت خزانة المصحف العزيز على الباب»<sup>(٢)</sup>، وقد رأى ياقوت كتاب «العروض» في خمس مجلدات ضخمة موقوف في جامع حلب<sup>(٣)</sup>.

وجامع منكلي بغا: أنشأه منكلي بغا سنة (٧٦٧هـ - ١٣٦٥)، وقد أوقف عليه كتباً نفيسة، منها كتاب «التفسير» للقرطبي، و«التبصرة» لابن الجوزي، و«مجمع الأحباب» للحسيني، وغير ذلك من الكتب النفيسة، وخزانة هذا الجامع متقنة محكمة فيها الصنائع العظيمة على طريقة النجارين في ذلك العصر، وقد أشار ابن ذر إلى أن النجار الذي صنعها

(١) دور الكتب العربية: العش، ص ٢٣٥.

(٢) تاريخ ابن الوردي: زين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن الوردي (ت ٧٤٩هـ = ١٣٤٨م)، الناشر: دار

الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (١٤١٧هـ = ١٩٩٦م)، ج ٢، ص ٣٠٥.

(٣) الوافي بالوفيات: الصفدي، ج ٢٢، ص ٢٧٤.



هو الشيخ فريكا، وهو من الصالحين، وذكر أيضاً كتاب «مجمع الأحباب» للحسيني، وكان في مجلدين وقد ضاع منه مجلد، وقال: هو كتاب جليل، ترجم فيه للأولياء والعلماء، وتكلم فيه على طريقة الصوفية<sup>(١)</sup>.

وجامع سليمان الكردي: أنشأه جوهر العلائي الطواشي، وهو مطلق على خندق قديم داخل البلد، وقد كانت به خزانة خلف المنبر، فإذا قضيت صلاة الجمعة أدخل المنبر الى هذه الخزانة<sup>(٢)</sup>، ومسجد السفاحية: بناه الأشرف أبو العباس أحمد بن سبط ابن السفّاح وجعله مدرسةً ومسجداً بدون منبر، وأوقف عليه كتباً قيّمة كان قد اشتراها، وعندما عُيّن ابنه الزيني عمر ناظراً عليها، كشط عنها علامات الوقف وقام ببيعها<sup>(٣)</sup>.

وفي حماة كانت هناك مكتبات كبيرة في المساجد ملأت بالكتب الدينية والعلمية والأدب، كالجامع النوري: الذي بناه نور الدين زنكي سنة (٥٥٨هـ = ١١٦٢م)، على الضفة الغربية للعاصي، وجامع السلطان: الذي بناه السلطان بدر الدين حسن شقيق أبي الفداء (ت ٧٢٦هـ = ١٣٢٥م)، في محلة الدباغ، وما يزال مكان المكتبة واضحاً في جداره الغربي إلى اليوم<sup>(٤)</sup>، وبنى الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء المؤرخ (ت ٧٣٢هـ = ١٣٣٢م) جامعاً حسناً بظاهر حماة، وسمّاه جامع الدهشة، ووقف عليه كتباً قيل: إنّها ما اجتمعت لغيره من سائر

---

(١) كنوز الذهب في تاريخ حلب: سبط ابن العجمي الحلبي (ت ٨٨٤هـ = ١٤٧٩م)، تحقيق: شوقي شعث - فالح

البكور، الناشر: دار القلم العربي، حلب، ط ١ (١٤١٧هـ = ١٩٩٦م)، ج ١، ص ٢٤٢.

(٢) ولعلّ هذه الخزانة تكون لحفظ الكتب أيضاً، كنوز الذهب: ابن العجمي، ج ١، ص ٢٤٩.

(٣) كنوز الذهب: ابن العجمي، ج ١، ص ٢٥٤. دور الكتب العربية العامة وشبه العامة: العث، ص ٢٧٤.

(٤) نيابة حماة في العصر المملوكي: إبراهيم شريف الأحمد، أشرف: وفاء جوي، رسالة دكتوراه في تاريخ العرب

والإسلام، جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم تاريخ، (٢٠١١ - ٢٠١٢م) = (١٤٣٢ -

١٤٣٣م)، ص ٢٤٧.

الفنون، وإنه اجتهد في جمعها من سائر البلاد شرقاً وغرباً<sup>(١)</sup>، وقد كان بهذا الجامع سبعة آلاف مجلد<sup>(٢)</sup>، وكان في بعلبك مسجداً يعرف بمسجد الحنابلة، وفيه خزانة لحفظ الكتب، وقد دخل شخص مجنون على علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله اليونيني في سنة (١٣٠١هـ = ١٣٠١م) وضربه على رأسه، وهو في خزانة الكتب بمسجد الحنابلة ببعلبك وقتله<sup>(٣)</sup>، وفي سنة (٧١٧هـ = ١٣١٧م) كان السيل قد خرب بعلبك، ودخل الجامع وأتلف كتب الحديث والمصاحف، وكانت مضرته عظيمة<sup>(٤)</sup>.

واشتهرت القدس بمساجدها وأهمها كما هو معروف المسجد الأقصى: وقد أوقف الفقيه نصر بن إبراهيم بن نصر المقدسي (ت ٤٩٠هـ = ١٠٩٧م)<sup>(٥)</sup> كتبه على بيت المقدس<sup>(٦)</sup>، وأوقف السلطان العالم المجاهد أبو الحسن المريني سلطان المغرب ثلاثة مصاحف بخطه على الحرمين وعلى حرم القدس، وجهاز معها عشرة آلاف دينار اشترى بها أملاكاً بالشام، ووقفت على القراء والخزنة للمصاحف المذكورة<sup>(٧)</sup>، وقد رأى ابن القفطي (ت ٦٤٦هـ - ٣١٢٤٨) فيها تصنيفاً لأبيدقلس<sup>(٨)</sup>. وجامع أبي الفتح: وقد أوقف كتاب «مفتاح العلوم» لسراج الدين الخوارزمي (٥٥٥ - ٦٢٦هـ) = (١١٦٠ - ١٢٢٩م) على هذا الجامع، وكانت عليه إقراء باسم

(١) ثمرات الأوراق: تقي الدين أبي بكر بن علي بن محمد بن حجة الحموي (٧٧٧هـ - ٨٣٧هـ) = (١٣٧٥ -

١٤٣٣م) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: مكتبة الخانجي، مصر، ط ١، ص ١٢٥.

(٢) خطط الشام: محمد كرد علي، ج ٦، ص ٦١.

(٣) الدرر الكامنة: ابن حجر، ج ٣، ص ١٧١ - ١٧٢. من ذبول العبر: الذهبي والحسيني، ص ١٨. البداية

والنهاية: ابن كثير، ج ١٨، ص ١٣. أعيان العصر: الصفدي، ج ٢، ص ٨٧ - ٨٨.

(٤) من ذبول العبر: الذهبي والحسيني، ص ٩١. تاريخ أبي الفداء: أبي الفداء، مج ٢، ج ٧، ص ٩٦.

(٥) شذرات الذهب، ابن العماد، ج ٥، ص ٣٩٦ - ٣٩٧. العبر في خير من غير: الذهبي، ج ٣، ص ٣٣١.

(٦) دور الكتب العربية العامة وشبه العامة: العرش، ص ٢٧٦.

(٧) تاريخ ابن الوردي: ابن الوردي، ج ٢، ص ٣٣٦.

(٨) دور الكتب العربية العامة وشبه العامة: العرش، ص ٢٧٦.

عبد الكافي بن عبد الله بن عمر اللديني بتاريخ ١٧ رجب سنة (٧٤٩ هـ = ١٣٤٨ م)<sup>(١)</sup>، والجامع الكبير الصلاحي: وقد نُسخ كتاب «درر الحكام في شرح غرر الأحكام» لملا خسرو بن فاراموز بن علي (ت ٨٨٥ هـ = ١٤٨٠ م) في الجامع الكبير الصلاحي في نابلس بخط عبد الرحمن بن عفيف بن محمد سنة (١٠٩٧ هـ = ١٦٨٥ م)<sup>(٢)</sup>، وهذا يدلّ على وجود مكان لخزن الكتب بهذا الجامع.

### مكتبات المدارس

كان في مكتبات المدارس في مدينة دمشق من نفائس المؤلفات ونوادير الذخائر العلمية، لعلّ مثله لم يجتمع في مدينة أخرى من الديار الشامية والمصرية، حيث يقول جمال الدين بن نباتة المصري في مقدمة كتابه «سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون»: «كنت أعرف ببعض خزائن دمشق الوقفية أسفاراً فيها للمطالع منجّع وللاّفهام الناسية ذكرى تنفع، فلم يتهاى أن أعار منها كتاباً ولا أراجع من السنة حروفها خطاباً»<sup>(٣)</sup>.

ومن هذه المدارس دار الحديث النورية: كان السلطان نور الدين محمود بن زنكي قد بناها (٥١١ - ٥٦٩ هـ) = (١١١٨ - ١١٧٤ م)<sup>(٤)</sup>، وكان قد جعل بها خزائناً للكتب، حيث عُثر على جزءاً من القرآن الكريم في متحف دمشق كتب عليه «أوقفه وحبسه الملك العادل نور الدين ... على المدرسة التي أنشأها بمدينة دمشق حرسها الله وشرط ان يقرأ فيها ولا يخرج منها

---

(١) فهرس مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى: خضر أبراهيم سلامة، الناشر: المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، ج ٢، ص ١٩٩.

(٢) فهرس مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى: سلامة، ج ٢، ص ١٦٩.

خزائن الكتب في دمشق وضواحيها: حبيب الزيات، الناشر: مطبعة المعارف، مصر، (٣) ص ٢.

(٤) الدارس في تاريخ المدارس: النعمي، ج ١، ص ٧٤.

طلباً لمرضاة الله وثوابه في ذي الحجة (٥٦٢ هـ = ١١٦٣ م)»<sup>(١)</sup>، ومُن أوقف كتبه عليها أحمد بن محمود بن إبراهيم بن نبهان المعروف بابن الجواهري (ت ٦٤٣ هـ = ١٢٤٥ م)<sup>(٢)</sup>، وفي الظاهرية جزء موقوف بدار الحديث لعلي بن عبد الكافي الشافعي ومن المحتمل أنه تقي الدين السبكي (٧٥٦ هـ = ١٣٥٥ م)، وقال: «ونظره لشيخها من كان»<sup>(٣)</sup>، وكذلك عثر على جزء وقفه الحوي (?)، وقد كتب عليها «لا يباع»<sup>(٤)</sup>، ويوجد جزء ثالث لعلم الدين القاسم بن محمد (٧٥٦ هـ = ١٣٥٥ م) في دار الحديث النورية<sup>(٥)</sup>.

المدرسة العادلية الكبرى: وهي داخل دمشق شمالي الجامع الأمويّ بغرب وشرقي الخانقاه الشهائية، وقبلي الجاروخية بغرب وتجاه باب الظاهرية، يفصل بينهما الطريق، شرع في بنائها نور الدين الزنكي في سنة (٥٦٨ هـ = ١١٧٢ م) ولم يتمها، وقد توفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب في سنة (٦١٥ هـ = ١٢١٨ م)، ودفن في القلعة ثمّ نقل إلى العادلية في سنة (٦١٩ هـ = ١٢٢٢ م)، وذلك بعد أن أكمل بناءها ابنه الملك المعظم<sup>(٦)</sup>، وقد جعل بها خزانة للكتب، وممن أوقف كتبه عليها قطب الدين النيسابوري (ت ٥٧٨ هـ = ١١٨٢ م)، حيث أنه أوقف كتبه على طلبة العلم ثمّ بعد بنائها نقلت إليها<sup>(٧)</sup>، وقد كانت تحتوي على كتاب «التقريب» في ستة

(١) رقم ع/٣٤٣، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٢٣٨.

(٢) الوافي بالوفيات: الصفدي، ج ٨، ص ١٠٩.

(٣) مجموع ٧١ (٢٧) انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٢٣٩.

(٤) مجموع ٣٧ (٤) انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٢٣٩.

(٥) الظاهرية: مجموع ٣٧ (١٠) انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٢٣٩.

(٦) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: أبو شامة، ج ٢، ص ٢٦٤. الدارس في تاريخ المدارس:

النعمي، ج ١، ص ٢٧١. منادمة الأطلال: عبد القادر بدران، ص ١٢٣. البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٧، ص ٤٥ - ٧٢ - ٧٣ - ١١٢.

(٧) الروضتين في أخبار الدولتين: أبو شامة، ج ٢، ص ٢٦٤. الدارس في تاريخ المدارس: النعمي، ج ١، ص ٢٧٣ - ٢٩٣.

مجلدات، وهو من حساب عشرة مجلدات، وكتب عليه أنه لأبي الحسن القاسم بن أبي بكر القفال الشاشي، وهو غير «التقريب» الذي لسليم الرازي<sup>(١)</sup>، وقد قال ابن كثير في سنة (٧٢٨هـ = ١٣٢٨): «وتوفي شيخ الإسلام أبو العباس تقي الدين بن تيمية، وأخرجت الكتب والأوراق والدواة والقلم التي كانت عنده، ونقلت كتبه إلى خزانة الكتب في العادلية الكبيرة، وكانت نحو ستين مجلداً وأربع عشرة ربطة كراريس»<sup>(٢)</sup>، وقد كان موقع المكتبة، بالمجلس الكبير في صدر الإيوان، وهو الموضع الذي يجلس فيه غالباً للفتوى وغيرها، ومنه يخرج للصلاة في المدرسة<sup>(٣)</sup>.

ودار الحديث العروية: وهي بمشهد ابن عروة بالجانب الشرقي من صحن الجامع الأموي قبلي الحلبية قديماً، تُعرف بمشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، تنسب إلى محمد بن عروة الموصلي شرف الدين، وقد أُوقف فيها خزائن كتب (ت ٦٢٠هـ = ١٢٢٣م)، وقال الصفدي: «إنما نسب إليه لأنه كان مخزناً فيه آلات تتعلّق بالجامع، فعزله وبَيّضه وعمل له المحراب وخزانتين، ووقف فيها كتباً وجعله دار حديث»<sup>(٤)</sup>، وكانت كتب مؤيد الدين أبي الفضل أحمد بن عبد الكريم عبد الرحمن الحارثي (ت ٥٩٩هـ = ١٢٠٢م) موقوفة في مقصورة ابن عروة، منها كتاب في «الحروب والسياسة»، وكتاب في «الأدوية المفردة»<sup>(٥)</sup>، وكان فيها كتاب «طبقات

---

(١) الوافي بالوفيات، الصفدي، ج ٤، ص ٨٥.

(٢) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٨، ص ٢٨٩.

(٣) دور الكتب العربية، العث، ص ٢٣٥.

(٤) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٧، ص ١٢٢ - ١٢٣. الوافي بالوفيات: الصفدي، ج ٤، ص ٧٠. الدارس في

تاريخ المدارس: النعيمي، ج ١، ص ٦١.

(٥) منادمة الأطلال ومسامرة الخيال: عبد القادر بدران، ص ٣٦٧ - ٣٦٨.

الأطباء»، في عشرة أجزاء صغيرة، وعندما زار المقصورة ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ = ١٣٤٨م) وجد في المشهد خزائن كتب موقوفة<sup>(١)</sup>.

ودار الحديث الأشرفية: غربي العسرونية وشمالي القيمازية الحنفية، وكانت داراً للأمير قايماز، اشتراها الملك الأشرف موسى بن أبي بكر بن أيوب (ت ٦٣٥هـ = ١٢٣٧م) وبنائها داراً للحديث<sup>(٢)</sup>، وقد نقل إليها كتباً كثيرة وهي كتب نفيسة<sup>(٣)</sup>، ومن ضمن موجوداتها كتاب «سلوة العارفين وأنس المشتاقين» لمحمد بن عبد الملك بن خلف أبو خلف الطبري السلمي (ت ٤٧٠هـ = ١٠٧٧م)، ويقول السبكي: «وهو كتاب جليل في بابه أعجبت به جداً، صنّفه للرئيس أبي علي حسان ابن سعيد المنيعي، ورتبه على اثنين وسبعين باباً، أولها في معنى التصوّف وآخرها على بيان طبقات الصوفية وتراجهم، وما أراه إلا حاكي رسالة أبي القاسم القشيري ولعلّ خمول هذا الكتاب بهذا السبب، وإلا فهو حسنٌ جداً»<sup>(٤)</sup>.

وكذلك من محتوياتها كتاب «جمل الاصول الدالّة على الفروع»، وهو كتاب في الفقه في مجلدين، لمحمد بن احمد الأسواني (ت ٣٣٥هـ = ٩٤٦م)<sup>(٥)</sup>، وكتاب «ذيل بغداد» للديشي<sup>(٦)</sup>، وقد أوقف القاضي أمين الدين الأشتري أبو العباس أحمد بن شمس الدين أبو بكر عبد الله بن

(١) دور الكتب العربية: العش، ص ٢٣١.

(٢) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٧، ص ٢٠٢. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام: مؤرخ الإسلام شمس الدين أبي عبد الله أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ = ١٣٧٤م)، تحقيق: بشار عماد معروف، شعيب الأرنؤوط، صالح مهدي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١ (١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م)، الطبقة الثالثة والستون، ص ٤١. الدارس في تاريخ المدارس: النعمي، ج ١، ص ١٥.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى: السبكي، ج ٤، ص ١٧٩ - ١٨٠.

(٤) طبقات الشافعية الكبرى: السبكي، ج ٤، ص ١٧٩.

(٥) طبقات الشافعية: السبكي، ج ٣، ص ٧٠.

(٦) المكتبة الوطنية، عربي، ٥٩٢١، ٥٩٢٢، انظر دور الكتب الغربية: العش، ص ٢٤٠.

محمد الحلبي المعروف بالأشثري الشافعي (ت٦٨١هـ = ١٢٨٢م) أجزاء بدار الحديث الأشرفية<sup>(١)</sup>، وكذلك الشهاب بن مزهر الشيخ ابو عبد الله محمد بن عبد الخالق الأنصاري الدمشقي (ت٦٩٠هـ = ١٢٩١م) قد أوقف كتبه بالأشرفية كما ذكر الذهبي<sup>(٢)</sup>، ومحمد بن عبد الرحيم بن محمد الأرموي الشافعي (ت٧١٥هـ = ١٣١٥م) أوقف كتبه فيها<sup>(٣)</sup>، وكذلك بالأشرفية نعل النبي ﷺ<sup>(٤)</sup>، ومن الكتب التي كانت موجودة فيها أيضاً كتاب «مناقب الإمام الشافعي» لإسماعيل بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن القراب (ت٤١٤هـ = ١٠٢٣م)، وقد رُتّب على مئة وستة عشر باباً، أولها كان في نسب النبي ﷺ الذي يرجع إليه نسب الأمام الشافعي، وأخرها أربعون باباً، جمع فيها أربعين حديثاً في الأحكام من رواية الشافعي بسنده إليه إلى النبي ﷺ، وقد رأى السبكي نسخة من مجلدين في دار الحديث الأشرفية<sup>(٥)</sup>، وكانت هذه المدرسة قد تُهتبت سنة (٦٩٩هـ = ١٣٠٠م) على يد التتار<sup>(٦)</sup>.

والمدرسة الضيائية المحمدية: وهي بسفح قاسيون شرقي الجامع المظفري، قد أنشأها الحافظ ضياء الدين المقدسي ابن الحافظ محمد بن عبد الواحد (ت٦٤٣هـ = ١٢٤٥م)، وقد أوقف كتباً كثيرة عظيمة على خزانتها<sup>(٧)</sup>، ومن الكتب الموقوفة فيها الجزء السادس من «فضائل الصديق» لأبي الحسن خيثمة بن سليمان بن حيدرة الطرابلسي (ت٣٤٣هـ = ٩٥٤م)، وهو

(١) البداية والنهاية: ابن كثير، ج١٧، ص٥٨٧.

(٢) العبر في خبر من غير: الذهبي، ج٥، ص٣٧٠. الدارس في تاريخ المدارس: النعمي، ج٢، ص١.

(٣) البداية والنهاية: ابن كثير، ج١٨، ص١٤٧.

(٤) البداية والنهاية: ابن كثير، ج١٧، ص٢٣٢. الدارس في تاريخ المدارس: النعمي، ج٢، ص٢٢٥.

(٥) طبقات الشافعية الكبرى: السبكي، ج٤، ص٢٦٦.

(٦) البداية والنهاية: ابن كثير، ج١٧، ص٧٢٢.

(٧) البداية والنهاية: ابن كثير، ج١٧، ص٢٨٤ - ٤٨٥. العبر في خبر من غير: الذهبي، ج٥، ص١٧٩ -

١٨٠. الدارس في تاريخ المدارس: النعمي، ج٢، ص٧١.

عن فضائل أبي بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup>، والجزء الثاني من «فضائل الخلفاء الأربعة» لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق الحافظ (ت ٤٣٠هـ = ١٠٣٩م)، وهو يتحدث في فضائل الخلفاء الأربعة مع ذكر ما اختصّ به كلّ واحدٍ منهم من المناقب<sup>(٢)</sup>، وكتاب «تحفة الصديق» لعلي بن بلبان، ويتحدّث في فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه<sup>(٣)</sup>، وكتاب «أخبار عمر بن عبد العزيز»<sup>(٤)</sup>، لأبي بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الأجرى (ت ٣٦٠هـ = ٩٧١م)، يتحدّث فيه عن أخبار أبي حفص عمر بن عبد العزيز، حيث يمتدح فيه عمر بن عبد العزيز معظماً سيرته، وأكثر الرواية الموجودة فيه هي لابن الجوزي في كتابه «مناقب عمر بن عبد العزيز»، وكتاب «المؤتلف والمختلف» لعبد الغني بن سعيد بن علي بن سعيد بن بشر بن مروان الأزدي (ت ٤٠٩هـ = ١٠١٨م)، وهو كتاب فيه أسماء نقلة الحديث<sup>(٥)</sup>، وكتاب «رجال عروة» للأمام مسلم ابن الحجاج بن مسلم النيسابوري (ت ٢٦١هـ = ٨٧٥م)، الذي عدّد فيه أسماء رجال عروة بن الزبير، ذكر من روى عنهم عروة من سائر الناس ثمّ من روى عنه، وكذلك من روى عن علي بن حسين ومن روى عنه، فرجال عروة ابن دينار، فمن روى عن أبي سعيد الخدري، فرجال الشعبي ومن روى عنه، فرجال ابن شهاب الزهري<sup>(١)</sup>، وقد تُهبت مكتبة هذا المدرسة في سنة (٦٩٩هـ = ١٣٠٠م) على يد التتار كما ذكر ابن كثير<sup>(٢)</sup>.

(١) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية: يوسف العش، ص ٨٣.

(٢) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية: العش، ص ٨٦ - ٨٧.

(٣) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية: العش، ص ٨٩.

(٤) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية: العش، ص ٩٥ - ٩٦.

(٥) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية: العش، ص ١٩٠.

(١) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية: العش، ص ٢٢٥.

(٢) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٧، ص ٧٢٢.



المدرسة البادرانية: داخل باب الفراديس والسلام شمالي جيرون، وكانت تعرف قبل ذلك بدار أسامة، وقد قال ابن كثير في سنة (٦٥٥هـ = ١٢٥٧م): «عمل عزاء واقف البادرانية، الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد البادراني، وقد أوقف أوقافاً حسنة، وجعل بها خزانة كتب حسنة نافعة»<sup>(١)</sup>، وقد عمل جمال الدين محمد بن علي بن صالح المصري (ت ٧٠١هـ = ١٣٠١م) خازناً للكتب فيها<sup>(٢)</sup>، ومن نسخة كتاب الرافعي التي وقفها البادراني في مدرسته اختصر محي الدين النووي (ت ٦٧٦هـ = ١٢٧٧م) كتابه «الروضة»<sup>(٣)</sup>.

ودار الحديث الفاضلية: وهي بالكلاسة، بناها عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن الحسين بن أحمد ابن الفرغ بن أحمد القاضي المعروف بالقاضي الفاضل<sup>(٤)</sup>، وقد جعل بها خزانة كتب، حيث يقول ابن كثير في من توفي في سنة (٦٥٥هـ = ١٢٥٧م): «واقف البادرانية الشيخ تقي الدين عبد الرحمن بن أبي الفهم اليلداني، وأكثر كتبه ومجاميعه التي بخطه موقوفة بخزانة الفاضلية من الكلاسة»<sup>(٥)</sup>.

المدرسة الصدرية: قال الذهبي في من توفي سنة (٦٥٧هـ = ١٢٥٩م) الصدر بن المنجا واقف المدرسة الصدرية الرئيس أبو الفتح أسعد بن عثمان بن وجيه الدين أسعد بن المنجا التنوخي الحنبلي<sup>(١)</sup>، وقد درس بها في سنة (٧٤٣هـ = ١٣٤٢م) محمد بن أبي بكر بن أيوب

---

(١) الدارس في تاريخ المدارس: النعمي، ج ١ ص ١٥٤ - ١٥٥. البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٧، ص ٣٤١. منادمة الأطلال ومسامرة الخيال: عبد القادر بدران، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتبة الإسلامية، بيروت، ط ٢ (١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م)، ص ٨٨. مختصر تنبيه الطالب: العلموي، ص ٣٥.

(٢) الدرر الكامنة: ابن حجر، ج ٤، ص ١٨٤ - ١٨٥.

(٣) دور الكتب العربية: يوسف العش، ص ٢٣٧.

(٤) الدارس في تاريخ المدارس: النعمي، ج ١، ص ٦٧.

(٥) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٧، ص ٣٥٠. الدارس في تاريخ المدارس: النعمي، ج ١، ص ٧٠.

(١) العبر في خبر من غير: الذهبي، ج ٥، ص ٢٣٩. البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٧، ص ٣٨٩.

الزرعي، إمام الجوزية المعروف بابن القيم الجوزي (ت ٧٥١هـ = ١٣٥٠م)<sup>(١)</sup>، وقد أوقف كتبه وهي في علوم شتى<sup>(٢)</sup>.

والمدرسة الظاهرية الجوانية: وهي داخل بابي الفرج والفراديس بينهما، جوار الجامع الأمويّ شمالي باب البريد، وقبلتي الاقباليّتين والجاروخية، وشرقي العادلية الكبرى، باهما متواجهان، بينهما الطريق، بنيت في مكان دار العقيق<sup>(٣)</sup>، وقد بناها الملك الظاهر بيبرس ركن الدين أبو الفتح بيبرس التركي البندقدار الصالحي (ت ٦٧٦هـ = ١٢٧٧م)<sup>(٤)</sup>، ومن الذين درّسوا فيها الواعظ المفسر الخطيب الصوفي شيخ العراق عز الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن عمر الفاروثي الواسطي (ت ٦٩٤هـ = ١٢٩٥م)، حيث أودع كتبه وهي كثيرة جداً<sup>(٥)</sup>.

وقد كان المرحوم مدحت باشا والياً على سورية، فاهتم بإنشاء المكتبات، ثمّ علّم أنّ دمشق كان بها ما لا يُعدُّ من خزائن الكتب الموقوفة على المشتغلين بالعلم، فمُدّت إليها أيدي المختلسين بالنهب والبيع، حتّى لم يبق إلا القليل، فخاف على الباقي من الضياع، فكتب إلى مقر السلطة بذلك، وجاءته الموافقة، وجمعت الكتب الموجودة من عشرة خزائن ووضعت بالمدرسة الظاهرية، وهذه الخزائن هي: المدرسة العمرية بالصالحية، وخزانة مدرسة عبد الله باشا العظم التي أوقفها (١٢١١هـ = ١٧٩٦م)، ومكتبة سليمان باشا العظم في باب البريد أوقفها سنة (١١٩٠هـ = ١٧٧٦م)، ومكتبة الخياطين، وهي مكتبة أوقفها اسعد باشا العظم في محلة

(١) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٨، ص ٤٥٠ - ٥٢٣. من ذيول العبر: الذهبي والحسيني، ص ٢٨٢.

(٢) ولعله أوقفها بهذه المدرسة، الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج ٢، ص ٧٠.

(٣) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٧، ص ٥٣١. الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج ١، ص ٢٦٣.

(٤) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٧، ص ٥٣٠ - ٥٣٥. الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج ١، ص ٢٦٤.

(٥) ولعله أودعها بهذه المدرسة، البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٧، ص ٦٨٠ - ٦٨١. العبر في خبر من غير:

الذهبي، ج ٥، ص ٣٨١، ٣٨٢. الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج ١، ص ٢٦٩.

الخطّاطين قرب مدرسة النورية أوقفها بعد سنة (١١٦٥هـ = ١٧٥٢م)، ومكتبة المدرسة المرادية في باب البريد، أوقفها مراد بن علي بن داود النقشبندي، أنشئت في سنة (١١٠٨هـ = ١٦٩٦م)، ومكتبة الأوقاف: وهي مجموعة من مكاتب متفرقة، ومكتبة بيت الخطابة: وكانت في حجرة الخطابة في جامع بني أمية، ومكتبة المنلا عثمان، ومكتبة السميّساطية، ومكتبة المدرسة الياغوشية، حيث جمعت الكتب الموجودة بهذه الخزائن ووضعت في المدرسة الظاهرية<sup>(١)</sup>.

المدرسة التاجية: بزواية الجامع الأمويّ الشرقية غربي دار الحديث العروية<sup>(٢)</sup>، قام قاضي القضاة عمر بن علي النهرقلي بإعادة أمر المدرسة التاجية، وقد بناها تاج الملك وزير ملك شاه السلجوقي<sup>(٣)</sup>، ولعلّها تنسب إلى تاج الدين الكندي زيد بن الحسن البغدادي (ت ٦١٣هـ = ١٢١٦م)، حيث تمّ في أيامه تجديدها<sup>(٤)</sup>، وتعرف أيضاً بمقصورة ابن سنان والحلبية<sup>(٥)</sup>، وقد قام تاج الدين الكندي بوقف كتبه وهي سبعمائة وواحد وستون مجلداً، وكانت كتباً نفيسة على معتقه نجيب الدين ياقوت، ثمّ على العلماء في الحديث والفقه وغير ذلك، وجعلت في خزانة كبيرة في مقصورة ابن سنان الحلبية، ثمّ أنّ هذه الكتب تفرّقت وبيع كثيراً منها ولم يبق بالخزانة

---

(١) منادمة الأطلال ومسامرة الخيال: عبد القادر بدران، ص ١١٩ - ١٢٠ - ١٢١.

(٢) الدارس في تاريخ المدارس: النعمي، ج ١، ص ٣٧٠. منادمة الأطلال ومسامرة الخيال: عبد القادر بدران، ص ١٥٦.

(٣) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٧، ص ٣١٦ - ٣١٧.

(٤) العبر في خبر من غير: الذهبي، ج ٥، ص ٤٤ - ٤٥. منادمة الأطلال: عبد القادر بدران، ص ١٥٧.

(٥) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٧، ص ٥٤. منادمة الأطلال: عبد القادر بدران، ص ١٥٦ - ١٥٧.

إلا القليل الرث<sup>(١)</sup>، وقد وجد فيها عدّة خزائن للكتب الموقوفة في زمن ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ = ١٣٤٨م)<sup>(٢)</sup>.

والمدرسة العمرية الشيخية: بالصالحية يمرّ بها نهر يزيد، وقد بناها أبو عمر المقدسي محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقداد الحنبلي القدوة الزاهد (ت ٦٠٧هـ = ١٢٠٤م)<sup>(٣)</sup>، وقد كانت بها خزانة كتب لا نظير لها، فلعبت بها أيدي المختلسين، إلى أن أتى بعض الطلبة النجديين فسرق منها خمسة أحمال جمل من الكتب وفرّ بها، ثمّ نُقل ما بقي وهو شيء لا يذكر بالنسبة لما كان بها إلى خزانة الكتب بالمدرسة الظاهرية، على يد مدحت باشا والي سورية<sup>(٤)</sup>.

ومن الكتب التي كانت موقوفة بهذه المدرسة، كتاب «الشفاء في حقوق المصطفى» للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي (ت ٥٤٤هـ = ١١٤٩م)<sup>(٥)</sup>، وكتاب «الأربعين في مناقب أمّهات المؤمنين» لأبي منصور عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن عساكر الشافعي (ت ٦٢٠هـ = ١٢٢٣م)، وكان هذا الكتاب هديّة لصلاح الدين، وهو في ذكر مناقب أمّهات المؤمنين<sup>(٦)</sup>، وكتاب «محض الشيد في مناقب سعيد بن زيد» ليوسف بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي الحنبلي (ت ٩٠٩هـ = ١٥٠٣م)، تحدث فيه عن حياته، وأخلاقه، وصحبته، وكلام الناس فيه ووفاته، وكذلك له كتاب آخر موقوف بالعمرية وهو

---

(١) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٧، ص ٥٤. الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج ١، ص ٣٧١.

(٢) دور الكتب العربية، العرش: ص ٢٣٤.

(٣) العبر في خبر من غبر: الذهبي، ج ٥، ص ٢٥. البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٧، ص ٢٠. الدارس في تاريخ

المدارس: النعيمي، ج ٢، ص ٧٧. منادمة الأطلال: عبد القادر بدران، ص ٢٤٤.

(٤) منادمة الأطلال: عبد القادر بدران، ص ١٢٠ - ٢٤٤.

(٥) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية: العرش، ص ٥٣ - ٥٤.

(٦) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية: العرش، ص ٧٢ - ٧٣.

«محض الخلاص في مناقب سعد بن أبي وقاص»<sup>(١)</sup>، وكتاب «صفوة الصفوة» لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي (ت ٥٩٧هـ = ١٢٠١م)<sup>(٢)</sup>، وفي الحقيقة أنّ الكتب التي وصلت إلينا وعليها وقف العمرية كثيرة<sup>(٣)</sup>.

دار الحديث القوصية: بالقرب من الرحبة، وبها قبر القوصي، وهو شهاب الدين القوصي أبو المحامد وأبو العرب اسماعيل بن عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي الشافعي وكيل بيت المال (ت ٦٥٣هـ = ١٢٥٥م)<sup>(٤)</sup>، وقد كانت بها خزانة كتب، وقد أوقف الشيخ الأمام الحافظ ابن البرزالي علم الدين أبو محمد القاسم بن محمد بن البرزالي مؤرخ الشام (ت ٧٣٩هـ = ١٣٣٨م) بعض كتبه عليها<sup>(٥)</sup>.

دار الحديث النفيسة: وهي بالرصيف، قبلي المارستان الدقاقي وباب الزيادة عن يمنة الخارج منه شمالي غربي المدرسة الأمينية بالزقاق، أوقفها النفيس اسماعيل بن محمد بن عبد الواحد بن صدقة الحرّاني الدمشقي (ت ٦٩٦هـ = ١٢٩٧م)<sup>(٦)</sup>، وقد أوقف أبو محمد القاسم بن محمد بن البرزالي بعض كتبه عليها، وفي الجامع وعلى كراسي الحديث<sup>(٧)</sup>.

---

(١) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية: العش، ص ١٧٨ - ١٧٩.

(٢) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية: العش، ص ٢٨١ - ٢٨٤.

(٣) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية: العش، ص ٤٣٥.

(٤) العبر في خبر من غبر: الذهبي، ج ٥، ص ٢١٤. الدارس في تاريخ المدارس: النعمي، ج ١، ص ٧٢.

(٥) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٨، ص ٤١٢ - ٤١٣. من ذبول العبر: الحسيني، ص ٢٠٩.

(٦) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٧، ص ٧٠١. الدارس في تاريخ المدارس: النعمي، ج ١، ص ٨٤.

(٧) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٨، ص ٤١٣. الدرر الكامنة: ابن حجر، ج ٣، ص ٣٢١ - ٣٢٢.

المدرسة الشبلية: بناها كافور بن عبد الله الحسامي (ت ٦٢٣هـ = ١٢٢٦م)، وهي بسفح قاسيون، بالقرب من جسر ثوري، وقد بنى تربة وخانقاه أيضاً<sup>(١)</sup>، وقد جعل بها خزانة كتب، ومن الكتب التي أوقفت عليها كتاب «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن إسحاق الاصفهاني (ت ٤٣٠هـ = ١٠٣٩م)، حيث قام كافور بن عبد الله الحسامي بوقفه في مدرسته سنة (٦٢١هـ = ١٢٢٤م)<sup>(٢)</sup>.

والمدرسة الرواحية: وهي شرقي مسجد ابن عروة بالجامع الأموي، شمالي جيرون وغربي الدولعية وقبلي الشريفة الحنبلية، بناها الزكي بن رواحة هبة الله بن محمد الأنصاري التاجر (ت ٦٢٣هـ = ١٢٢٦م)، وكان قد بنى مدرسة أخرى في حلب<sup>(٣)</sup>، وقد جعل بها خزانة كتب جلييلة<sup>(٤)</sup>، وقد أوقف البرهان السويدي (ت ٦٥٦هـ = ١٢٥٨م) كتبه بهذه المدرسة<sup>(٥)</sup>.

والمدرسة الناصرية الجوانية: داخل باب الفراديس شمالي الجامع الأموي والرواحية، أنشأها الملك يوسف بن صلاح الدين وقد فرغ من بنائها سنة (٦٥٣هـ = ١٢٥٥م)<sup>(٦)</sup>، وقد كانت بها خزانة كتب، ومن بين هذه الكتب مصنف لفتح الدين أبي محمد عبد الله بن محمد القيسراني (ت ٧٠١هـ = ١٣٠١م) في أسماء أصحاب النبي ﷺ الذين خُرج لهم في الصحيحين، وشيء من أحاديثهم في مجلدين كبيرين<sup>(١)</sup>، والمدرسة السيفية بناها الأمير سيف الدين بكتمر

(١) الدارس في تاريخ المدارس: النعمي، ج ١، ص ٤٠٧. العبر في خبر من غير: الذهبي، ج ٥، ص ٩٥.

(٢) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية: العث، ص ٢٧٨ - ٢٨٠.

(٣) الدارس في تاريخ المدارس: النعمي، ج ١، ص ١٩٩. العبر في خبر من غير: الذهبي، ج ٥، ص ٩٢. البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٧، ص ١٤٩.

(٤) الذيل على الروضتين: أبو شامة ص ١٤٩.

(٥) الذيل على الروضتين: أبو شامة، ص ١٩٩.

(٦) مناداة الأطلال: عبد القادر بدران، ص ١٤٩. الدارس في تاريخ المدارس: النعمي، ج ١، ص ٣٥٠.

(١) دور الكتب العربية العامة وشبه العامة: العث، ص ٢٣٧. كشف الظنون: حاجي خليفة، ج ٢، ص ١٧٣٩.

سنة (٧٢٤هـ = ١٣٢٤م)، وقد درّس بها الشيخ شهاب الدين داود بن سليمان الكوراني (ت ٧٣٤هـ = ١٣٣٣م)، وقد أوقف بها جملة من الكتب على الطلبة المشتغلين بها<sup>(١)</sup>.

والمدرسة الجوزية: وهي بسوق القمح بالقرب من الجامع، أنشأها محي الدين أبو الفرج عبد الرحمن الجوزي (ت ٦٥٦هـ = ١٢٥٨م)<sup>(٢)</sup>، وهناك كتاب عليه علامة الوقف على هذه المدرسة<sup>(٣)</sup>.

المدرسة المقدمية الجوانية: وهي داخل باب الفراديس، أنشأها الأمير شمس الدين محمد بن المقدم (ت ٥٨٤هـ = ١١٨٨م)<sup>(٤)</sup>، وقد كانت بها خزانة كتب، ومن ضمن موجوداتها حديث لإسلام كعب بن زهير، وقصيدته «بانت سعاد»، وقد قام بتعليقه محمد بن علي بن سالم الحنفي المعروف بالقرعوني بهذه المدرسة سنة (٧٤٧هـ = ١٣٤٦م)<sup>(٥)</sup>.

وقد تولى أبو علي القيلوي الحسن بن محمد بن اسماعيل بن أبي العزّ بن علي (ت ٦٣٣هـ = ١٢٣٥م) خزانة الكتب بقرية حرّان، التي هي في غوطة دمشق، ومنها ينحدر شيخ الإسلام بن تيمية<sup>(١)</sup>.

---

(١) منادمة الأطلال: عبد القادر بدران، ص ١٠٣.

(٢) الدارس في تاريخ المدارس: النعمي، ج ٢، ص ٢٣. العبر في خبر من غير: الذهبي، ج ٥، ص ٢٣٧. البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٧، ص ٣٧٦.

(٣) دور الكتب العربية العامة وشبه العامة: العشي، ص ٢٣٨.

(٤) الوافي بالوفيات: الصفدي، ج ٤، ص ٣١. الدارس في تاريخ المدارس: النعمي، ج ١، ص ٤٥٦. منادمة الأطلال: عبد القادر بدران، ص ٢٠٦.

(٥) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية: العشي، ص ١٧٦.

(١) الوافي بالوفيات: الصفدي ج ١٢، ص ١٣٧.

وقد كان بدمشق أيضاً أسواق للكتب، وقد كان سوق الكتب بدمشق تحت شباك المدرسة الفاضلية بالكلاسة قرب الجامع الأموي، كما في جواره سوق لبيع الكتب يقال له سوق الكتبيين في باب البريد بدمشق<sup>(١)</sup>، وقد كانت هناك حلقات لبيع الكتب حيث قال ياقوت الحموي: «قال لي الشيخ أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي: إنّه حضر معه أعني الفصيحي حلقةً يباع فيها الكتب» وقد كان ينادى عليها كالمزاد<sup>(٢)</sup>.

ولقد انتشرت المدارس في حلب وألحقت المكتبات بها، ومنها:

المدرسة النورية: في سنة (٥١٧هـ = ١١٢٣م) حوّل ابن الخشاب التغلبي كاتدرائية حلب إلى مسجد، وفي سنة (٥٤٣هـ = ١١٤٦م) جعله نور الدين زنكي مدرسةً، وجعل بها قسماً من كتبه، وتُدعى أيضاً بالمدرسة الحلوية، وهي مقابل الجامع، ومن ناحية الغرب مكتبة هذه المدرسة<sup>(٣)</sup>، ومن الذين أوقفوا كتبهم عليها، أبو بكر بن أحمد بن علي المعروف بالظهير (ت ٥٥٣هـ = ١١٥٨م)<sup>(١)</sup>، ومحمد بن علي بن ياسر الأنصاري نزل بحلب (ت ٥٦٣هـ - ١١٦٧م) وقد تولى خزانة الكتب في المدرسة النورية، وأوقف كتبه لأصحاب الحديث<sup>(٢)</sup>، وأحمد

---

(١) العلوم العملية في العصور الإسلامية: عمر رضا كحالة، الناشر المطبعة التعاونية، دمشق (١٣٩٢هـ = ١٩٧٢م)، ص ٢٨٠.

(٢) معجم الأدباء: ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، تحقيق: عمر فاروق الطّباع، الناشر: مؤسسة المعارف، بيروت، ط١ (١٤٢٠ = ١٩٩٩م) ج ٥، ص ٣٧٩.

(٣) دور الكتب العربية العامة وشبه العامة، العرش، ص ٢٧٠.

(١) الجواهر المضية في طبقات الحنفية: عبد القادر بن أبي الوفاء محمد بن أبي الفداء القرشي أبو محمد، (٦٩٦- ٥٧٧هـ)، الناشر: مير محمد كتب خانة، كراتشي، ج ٢، ص ٢٧١.

(٢) التكملة لكتاب الصلوة: أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي، تحقيق: عبد السلام الهراس، الناشر: دار الفكر، بيروت (١٤١٥هـ = ١٩٩٥م)، ج ٢، ص ٣١. نفع الطيب من غضن الأندلس الرطيب: أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، ج ٢، ص ١٥٨.



بن محمود بن إبراهيم المعروف بابن الجواهري المحدث (ت ٦٤٣هـ = ١٢٤٥م) وعندما اقترب أجله أوقف كتبه وأجزائه بالمدرسة النورية<sup>(١)</sup>.

وقد بنى الملك الظاهر بن السلطان صلاح الدين صاحب حلب مدرسةً لأبي الحسن علي بن أبي بكر بن علي الهروي السائح (ت ٦١١هـ = ١٢١٤م)، وبتلك المدرسة بيوت كتب على باب كل بيت ما يليق به من الكتب<sup>(٢)</sup>، وأنشأ الملك الظاهر غازي الأيوبي (٥٦٨-٦١٣هـ) = (١١٧٢-١٢١٥م) المدرسة الظاهرية، وقد كان محباً للعلم والعلماء<sup>(٣)</sup>، وقد أوقف أوقف الملك الحسن أحمد بن يوسف بن أيوب وهو من أولاد السلطان صلاح الدين (ت ٦٣٤هـ = ١٢٣٦م) كتبه كلها وجعلها بمدرسة أخيه بحلب<sup>(٤)</sup>.

والمدرسة الشرفية: بناها الشيخ شرف الدين عبد الرحمن العجمي (ت ٦٥٨هـ = ١٢٥٩م)، وقد كان بها خزانة كتب ومن ضمن هذه الكتب، كتاب «الأم» للشافعي، و«تفسير الثعلبي» و«الحاوي الكبير» و«الإبانة»، و«التتمة»، و«الذخائر»، و«الشامل»، وكانت تضم جميع مؤلفات الغزالي، وأربعين نسخة من كتاب «التنبيه»<sup>(١)</sup>.

---

(١) الواقي بالوفيات: الصفدي، ج ٨، ص ١٠٩.

(٢) وفيات الأعيان وانباء الزمان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر، بيروت، ج ٣، ص ٣٤٧.

(٣) دور الكتب العربية العامة وشبه العامة: العشي، ص ٢٧١.

(٤) الواقي بالوفيات: الصفدي، ج ١٨، ص ١٨٤.

(١) دور الكتب في حلب قديماً وحديثاً: محمد راغب الطباخ، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، (١٣٤٥هـ =

١٩٢٧م)، ج ١٥، ص ٣٠٣

المدرسة السلطانية: يقول العثّر عنها: «ربّما يكون المؤسّس هو شمس الدين المزريّ (ت ٦٤٨هـ = ١٢٥٠م)»<sup>(١)</sup>، وفي المكتبة الظاهرية جزء عليه الوقف التالي «وقف الحافظ أبي الحجاج يوسف بن خليل على من ينتفع به من المسلمين ومقرّه بحلب بالمدرسة السلطانية»، ونسخ نجا بن سعد بن نجا ابن أبي الفضل شمس الدين بخطّه كتاب البدائع في سبعة مجلّدات، وهي وقف بالمدرسة الشيبليّة<sup>(٢)</sup>.

وعندما عاد ابن العديم مؤرّخ حلب عزّ الدين عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي (ت ٦٦٠هـ = ١٢٦١م)، وقد اجتاحتها التتار، ورموا كتبها ومصاحفها، ودمّروا مدارسها وجوامعها، فأنشد قصيدةً طويلةً يقول فيها:

«فيالك من يوم شديدٍ لغامه  
وقد درست تلك المدارس وارتمت  
وقد أصبحت فيه المساجد تهدم  
مصاحفها فوق الثرى وهي  
وفي سنة (٧٣٧هـ = ١٣٣٦م) أوقف الأمير صلاح الدين يوسف الأسعد الداودار  
الناصرى داره المعروفة بدار بني العديم الموجودة بحلب، وجعلها مدرسة للمذاهب الأربعة، وقد  
وضع بها خزّانة كتبه<sup>(١)</sup>، ودار الحديث البدرية: أنشأها الصاحب مؤيد الدين إبراهيم بن يوسف  
القفطى، تجاه محلّة الفردوس، ووهبها مُنشئها كتباً، ومن جملتها كتاب «المحمل» الذي شاهد  
ابن ذر جزءاً منه<sup>(٢)</sup>، والمدرسة الصلاحية: وهي بالقرب من الناصرية في درب بني كسرى كانت

(١) دور الكتب العربية العامة وشبه العامة: العث، ص ٢٧٣.

(٢) الجواهر المضية في طبقات الحنفية: عبد القادر بن ابي الوفاء القرشي، ج ٢، ص ١٩١.

(٣) تاريخ ابن الوردي: ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٠٨.

(١) المنتقى من درة الأسلاك في دولة الأتراك في تاريخ حلب الشهباء: الحسن بن عمر بن حبيب الحلبي، الدمشقي (ت ٧٧٩هـ = ١٣٧٧م)، انتقاه مؤلف مجهول من مخضرمي رجال القرنين الثامن والتاسع للهجرة، تحقيق: عبد الجبار زكار، الناشر: دار الملاح، ط (١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م)، ص ١٤٠.

(٢) كنوز الذهب: ابن العجمي، ج ١، ص ٣٧٩.

داراً لبني العدم في البداية ثم انتقلت إلى صلاح الدين بن يوسف بن الأسعد وجعلها مدرسة سنة (٧٣٧هـ = ١٣٣٦م) وقد كانت بها خزانة للكتب<sup>(١)</sup>، وفي أواسط القرن السابع أنشأ القاضي الأكرم جمال الدين يوسف بن إبراهيم وزير حلب داراً للكتب بحلب، وجمع بها من الكتب ما لا يوصف<sup>(٢)</sup>.

وفي مدينة حماة هناك الجزء الثالث من كتاب «الغريبين» لأبي عبيد أحمد بن محمد الهروي في المكتبة الظاهرية وعليه «وقفه شيخ الشيخ شرف الدين الأنصاري على ما شرطه في كتاب وقفه، ومقرّه بمدرسته بحماة المحروسة»<sup>(٣)</sup>، ومن خلال هذه الوثيقة يستدلّ على أنّ هذه المدرسة له، ولعلّ شرف الدين الأنصاري هو شرف الإسلام عبد الوهاب بن الشيخ أبي الفرج الحنبلي الأنصاري (ت ٥٣٦هـ = ١١٤١م)<sup>(٤)</sup>.

المدرسة الخاتونية: بنتها المؤنسة خاتون بنت الملك المظفر محمد عمّة الملك أبي الفداء (ت ٧٠٣هـ = ١٣٠٣م)، وكانت تسمى دار الأكرم التي ينزل بها الملوك والنواب الذين يزورون حماة<sup>(١)</sup>، وهي الآن بستان في مبدأ طريق محلة الجراجمة على يسار المنحدر إلى العاصي في زور الديماس، ويعرف سابقاً ببستان حمدان، وقد أوقفت عليها وقفاً جليلاً وكتباً<sup>(٢)</sup>.

---

(١) كنوز الذهب: ابن العجمي، ج ١، ص ٣٣٥ - ٣٣٧.

(٢) دور الكتب في حلب قديماً وحديثاً: محمد راغب الطباخ، مجلّة المجمع العلمي العربي، ج ١٥، ص ٣٠٢.

(٣) لغة، ٩٣، انظر دور الكتب العربية العامة وشبه العامة، العش، ص ٢٧٥.

(٤) شذرات الذهب: ابن العماد، ج ٦، ص ١٨٥ - ١٨٦. دور الكتب العربية العامة وشبه العامة ص ٢٧٥.

(١) تاريخ ابن الوردي: ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٤٥.

(٢) خطط الشام: محمد كرد علي، ج ٦، ص ١٢٤. تاريخ حماة: أحمد الصابوني، المطبعة الأهلية، حماة،

ص ١١١ - ١١٢. نيابة حماة في العصر المملوكي: إبراهيم شريف الأحمد، ص ٢٦٢.

المدرسة الحنفية: كانت في البستان الذي يعرف ببستان النوريات، بين الجامع النوري وشارع أبي الفداء الحالي، وقد تحول الآن إلى مساكن تسمى بالنوريات على اسم المدرسة المذكورة<sup>(١)</sup>. المدرسة النورية الشافعية (العصرونية): وهي في باب حمص من محلة الباشورة، على الضفة الغربية لنهر العاصي، وعلى جانبي قناطر ناعور المأمورية من الجنوب والشمال، وقد حوّلت أرضها مؤخراً إلى حديقة عامة<sup>(٢)</sup>.

مدرسة دار القرآن: تنسب إلى محمد بن أبي بكر الشافعي، وهي في محلة باب حمص، في القسم الشرقي من حي الباشورة<sup>(٣)</sup>.

المدرسة النجمية: تقع داخل قوس التوتان، بجوار مدرسة دار القرآن<sup>(٤)</sup>، أمر بعمارها الأمير الكبير نجم الدين توتان بن ياروق<sup>(٥)</sup> في سنة (٥٥٨٤ = ١١٨٨ م)<sup>(٦)</sup>.

المدرسة الفريجية: في القسم الشمالي من جامع الحسينين، تنسب إلى زين الدين فرج وزير الملك المنصور الأول محمد صاحب حماة<sup>(١)</sup>.

والمدرسة الطواشية: تقع في محلة المدينة، بناها الطواشي مرشد، الذي كان يقوم مقام الملك المنصور محمد حين تغيبه عن حماة<sup>(٢)</sup>، وقد كان عمر بن زقزق الحموي مدرساً بالمدرسة

---

(١) نيابة حماة في العصر المملوكي، إبراهيم شريف الأحمد، ص ٢٥٨.

(٢) نيابة حماة في العصر المملوكي: إبراهيم شريف الأحمد، ص ٢٥٩.

(٣) تاريخ حماة: أحمد الصابوني، ص ١١٢.

(٤) نيابة حماة: إبراهيم شرف الأحمد، ص ٢٦٠.

(٥) وفيات الأعيان: ابن خلكان، ج ٢، ص ٧٣.

(٦) نيابة حماة: إبراهيم شرف الأحمد، ص ٢٦١.

(١) نيابة حماة: إبراهيم شرف الأحمد، ص ٢٦١.

(٢) نيابة حماة: إبراهيم شرف الأحمد، ص ٢٦٢.

الجردكية، إلى أن بنى الطواشي مرشد المظفري مدرسته فاستدعاه إليها وذلك سنة (٦٥٢هـ = ١٢٥٤م)<sup>(١)</sup>.

والمدرسة الشيخية: أسسها القاضي نجم الدين عبد القاهر بن السفاح الحلبي، وتقع في باب البلد إلى الشرق الجنوبي من سوق المنصورية<sup>(٢)</sup>.

ومدرسة المظفري: تقع في جانب الجامع الكبير من جهة الغرب في محلة المدينة، بناها تقي الدين عمر<sup>(٣)</sup>.

وقد ضمت هذه المدارس في حماة مكتبات ضخمة، حوت على أمهات الكتب في مختلف العلوم التي كانت تدرّس في هذه المدارس، الأمر الذي ساعد على تطوير الحياة العلمية في حماة في العصر المملوكي<sup>(٤)</sup>.

ومكتبة القلعة: التي أنشأها الملك المنصور محمد الذي اهتم بالعلم والعلماء، واشتغل وصّف الكثير من المصنّفات، وقد جمع في خزانها من كتب العلم ما لا يزيد عليه، واعتنى بها جدًّا، وكان يكثر من مطالعة الكتب، ومراجعتها، واستحضر العلماء والبحث معهم، وقد باع

---

(١) الأعلام الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة: عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي إبراهيم ابن شداد (ت ٦٨٤هـ = ١٢٨٥م)، تحقيق: دومينيك سورديل، الناشر: المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية (١٣٧٢هـ = ١٩٥٣م)، ج ١، ص ١١٥ - ١١٦.

(٢) تاريخ حماة: الصابوني، ص ١١٣. وجيز الكلام في الذيل على دولة الإسلام، السخاوي، تحقيق: بشار عواد معروف - عصام فارس الحرساني - أحمد الخطيمي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١ (١٤١٥هـ = ١٩٩٥م)، ص ٤٨. نيابة حماة: إبراهيم شرف الأحمد، ص ٢٦٢.

(٣) تاريخ حماة: الصابوني، ص ١١٣. نيابة حماة: إبراهيم شرف الأحمد، ص ٢٦٣.

(٤) نيابة حماة: إبراهيم شرف الأحمد، ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

الملك الأشرف موسى آلاف الكتب والمصنّفات التي كانت بالقلعة بأجنس الأثمان، وذلك بعد هدم القلعة بناءً على طلب هولوكو<sup>(١)</sup>.

وكذلك أقبل الرهبان في حماة على التأليف والتصنيف ونسخ الكتب، وقد كانت هناك مكتبات في الكنائس والأديرة غنيّة بالمؤلفات المسيحية، التي تتناول موضوعات دينية وعلمية وأدبية<sup>(٢)</sup>.

ومن المدارس التي كانت في فلسطين، المدرسة الجركسية: وقد كان فيها الجزء الثامن من كتاب « المحيط في الفقه » للسرخسي برهان الدين رضي الدين محمد بن محمد الحنفي (ت ٥٧١ هـ = ١١٧٥ م)، ونسخ بالقدس سنة (٧٤٨ هـ = ١٣٤٧ م) بخط خضر بن محمد بن عبد الحق الحنفي، وقد وُفِّد على المدرسة الجركسية بالقدس<sup>(٣)</sup>.

والمدرسة السيفية: بمحلة الجلالية وقد كان فيها كتاب « شرح منهاج الوصول إلى علم الأصول » لعزّ الدين يوسف بن حسن التبريزي (٧٣٠ - ٨٠٢ هـ) = (١٣٣٠ - ١٤٠٠ م)، نُسخ سنة (٨٠٤ هـ = ١٤٠١ م) بخطّ سليمان بن أحمد بن سليمان الحدادي الخروشي في جزأين<sup>(٤)</sup>.

---

(١) مفرج الكروب في اخبار بني أيّوب: جمال الدين محمد بن سالم بن واصل (ت ٦١٧ هـ = ١٢٢٠ م)، تحقيق: حسنين محمد ربيع، الناشر: دار الكتب، القاهرة (١٣٧٢ هـ = ١٩٥٣ م)، ج ٤، ص ٧٧ - ٨٠.

(٢) المدارس ونظم التعليم في بلاد الشام في العصر المملوكي: أحمد خالد جوده، الناشر: المؤسسة الجامعية، ص ١٨٤ - ١٨٥.

(٣) فهرس مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى: سلامة، ج ٢، ص ١٥٧.

(٤) فهرس مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى: سلامة، ج ٢، ص ١٣٠.

والمدرسة الطولونية: وهي بداخل المسجد على الرواق الشمالي، بناها شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد الطولوني الظاهري<sup>(١)</sup>، وقد كانت بها خزانة كتب ومن كتبها «الترغيب والترهيب» للمنزري زكي الدين أبي محمد عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله (٥٨١-٦٥٦هـ) = (١١٨٥-١٢٥٨ م)، وقد نُسخ سنة (٨٣١ هـ = ١٤٢٧ م) بخط أحمد بن محمد القلقيلي في المدرسة الطولونية في المسجد الأقصى<sup>(٢)</sup>.

والمدرسة العلائية: وقد كان فيها كتاب «شريعة الإسلام إلى دار السلام» للإمام زاده محمد بن أبي بكر الجوغني الحنفي (٤٩١-٥٧٣هـ) = (١٠٩٨-١١٧٧ م)، نُسخ في المدرسة العلائية سنة (٩٧٥ هـ = ١٥٦٧ م) بخط محمد بن خضر بن شبلي<sup>(٣)</sup>.

والمدرسة الناصرية: وسميت بالناصرية نسبةً إلى المكان الذي كانت به، وهو ببرج باب الرحمة، ثم عرفت بالغزالية نسبةً لأبي حامد الغزالي، أنشأها الملك المعظم عيسى (ت ٦٥٦هـ = ١٢٥٨ م)، وجعلها زاويةً لقراءة القرآن والاشتغال بالنحو، ووقف عليها كتباً من جملتها «إصلاح المنطق» لابن السكيت، واطّلع مجير الدين الحنبلي (ت ٩٢٧هـ = ١٥٢٠ م) على كراسةٍ منه بخط ابن الخشاب، وعلى ظهر الكراسة إشارة الوقف، وهو مؤرخ في التاسع من ذي الحجة سنة عشر وستمئة هجرية = ثلاث عشرة ومئتين وألف ميلادية<sup>(١)</sup>.

---

(١) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل: مجير الدين أبو اليمن القاضي الحنبلي، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباته، الناشر: مكتبة دنديس، عمان (١٤٢٠هـ = ١٩٩٩ م)، ج ٢، ص ٤٠.

(٢) فهرس مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى: سلامة، ج ٢، ص ٦٨.

(٣) فهرس مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى: سلامة، ج ٢، ص ٣٤.

(١) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل: مجير الدين أبو اليمن، ج ٢، ص ٣٤.

مدرسة الحنابلة: حيث عثر على كتاب عليه علامة وقف في المكتبة الظاهرية موقوفاً على مدرسة الحنابلة في القدس حيث تقول: «والناظر فيه إمام الحنابلة بالقدس الشريف»<sup>(١)</sup>.

### مكتبات البيمارستانات:

البيمارستان النوري: أنشأه نور الدين زنكي (ت ٥٦٩هـ = ١١٧٣م)، وقد أوقف جملةً كثيرةً من الكتب على الخزانيتين اللتين بصدر الإيوان، وكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون ويجلسون بين يدي أبي المجد الباهلي محمد بن عبید الله (ت ٥٧٠هـ = ١١٧٤م) «ويقرئ التلاميذ، ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب»<sup>(٢)</sup>.

والمدرسة الدخوارية: وهي بالصاغة العتيقة بقرب الخضراء قبلي جامع بني أمية، أنشأها مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد المعروف بالدخوار (ت ٦٢٨هـ = ١٢٣٠م) وقد بناها في سنة (٦٢١هـ = ١٢٢٤م)، وقد نسخ كتباً كثيرةً بخطه بلغت أكثر من مئة مجلد في الطب وغيره<sup>(٣)</sup>، وأوقف هذه الكتب على المدرسة للأطباء<sup>(٤)</sup>.

---

(١) الظاهرية: حديث ٣٧٩، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٣٧٥.  
(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء: موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ = ١٢٦٩م)، تحقيق: نزار رضا، الناشر: دار مكتبة الحياة، بيروت، ص ٦٢٨. الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج ٢، ص ١٠٨.  
(٣) الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج ٢، ص ١٠٠. الوافي بالوفيات: الصفدي، ج ١٨، ص ٢٣٣ مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان: الأمام أبي محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي اليميني الكندي (ت ٧٦٨هـ = ١٣٦٦م)، تحقيق: خليل منصور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ (١٧٤١هـ = ١٩٩٧م)، ج ٤، ص ٥٣. عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ابن أبي أصيبعة، ص ٧٢٨.

(٤) دور الكتب العربية العامة وشبه العامة: العش، ص ٢٦٣.



وفي حماة البيمارستان النوري: أنشأه نور الدين محمود الزنكي سنة (٥٥٠هـ = ١١٥٥م) إلى جوار جامع في الجنوب، لا يفصله عنه سوى ممر، كان نافذاً من الشرق إلى الغرب، يؤدى إلى مدرسته (الشافعيتين) اللتين أقامهما أيضاً في حماة، كما كانت به قاعة تحوي على خزانة كتب، ومكاناً لإلقاء المحاضرات والدروس<sup>(١)</sup>.

### مكتبات الخوانق

الخانقاه السميساطية: وهي عند باب جامع الأمويّ الشمالي، وكان هذا الباب يسمّى باب الناطفانيين، وتنسب الخانقاه السميساطية إلى أبي القاسم علي بن محمد بن يحيى السلمى الحبشي (ت ٤٥٣هـ = ١٠٦١م)<sup>(٢)</sup>، ولقد أوقف المسعودي شارح المقامات محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مسعود المسعودي الخرساني (ت ٥٧٩هـ = ١١٨٣م) كتباً نفيسة على الخانقاه<sup>(٣)</sup>، وقد أوقف العلائي (ت ٧٦١هـ = ١٣٦٠م) كتبه على الخانقاه السميساطية<sup>(٤)</sup>، ومن الكتب الموقوفة بالسميساطية كتاب «التذكرة الكندية» للشيخ علاء الدين علي بن المظفر الكندي الاسكندراني ثمّ الدمشقي (ت ٧١٦هـ = ١٣١٦م)، في خمسين مجلداً فيه علوم جمّة أكثرها أدبيات<sup>(٥)</sup>، وكذلك كتاب «مختصر الشفا» للقاضي عياض<sup>(٦)</sup>، وقد عمّر السلطان الناصر في سنة (٧٢٥هـ = ١٣٢٥م) على الطريق الآخذ إلى الشام في حماة بالقرب من العشر

(١) مفرج الكرب في أخبار بني أيّوب: ابن واصل، ج ١، ص ٢٨٣. خطط الشام: محمد كرد علي، ج ٦، ص ١٦١. نيابة حماة، إبراهيم شرف الأحمد، ص ٢٤٥.

(٢) الدارس في تاريخ المدارس: النعمي، ج ٢، ص ١١٨. منادمة الأطلال: عبد القادر بدران، ص ٢٧٦.

(٣) الوافي بالوفيات: الصفدي، ج ٣، ص ١٩٢ - ١٩٣.

(٤) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٨، ص ٦٠٠.

(٥) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٨، ص ١٥٦ - ١٥٧.

(٦) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية: يوسف العشر، ص ٦٩.

خانقاه، وأنزل جماعة من الصوفية بها، وقد قام صاحب حماة بإرسال هديّة تليق بالخانقاه المذكور مثل كتب وبسط وغير ذلك<sup>(١)</sup>.

الخانقاه الباسطية بالقدس، وهناك نصّ وقفية على هذا الخانقاه لكتاب «الجامع الصحيح» للبخاري أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي (١٩٤-٢٥٦هـ) = (٨١٠-٨٧٠ م)، وعليه ما يدلّ على أنّ محمد بن أبي الحياة قد أنهى قراءته في ١٢ شعبان سنة (٨٣٨هـ = ١٤٣٤ م) في الخانقاه الباسطية في القدس<sup>(٢)</sup>.

### مكتبات الترب

التربة الأشرفية: في سنة (٦٣٥هـ = ١٢٣٧ م) توفي الأشرف موسى بن العادل باني دار الحديث الأشرفية بالقلعة المنصورة ودفن بها، ثمّ نقل إلى تربته بعد أن أُجرت، وهي شمالي الكلاسة<sup>(٣)</sup>، وقد كان فيها خزانة كتب، ومن ضمن موجوداتها ديوان ابن أبي الصقر الواسطي (ت ٤٩٦هـ = ١١٠٢ م)<sup>(٤)</sup>، وديوان البهاء السنجاري (ت ٦٢٢هـ = ١٢٢٥ م)<sup>(٥)</sup>.

التربة البهنسية: وهي بسفح قاسيون، بناها المجد البهنسي وزير الملك الأشرف (ت ٦٢٨هـ = ١٢٣١ م)، ولما توفي دفن بتربته التي أنشأها بسفح قاسيون، وجعل بها كتبه وقفاً

---

(١) تاريخ أبي الفداء: أبي الفداء، مج ٢، ج ٧، ص ١١٠.

(٢) فهرس مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى: خضر إبراهيم سلامة، ج ٢، ص ٦١.

(٣) الدارس في تاريخ المدارس: النعمي، ج ٢، ص ٢٢٤-٢٢٥.

(٤) وفيات الأعيان: ابن خلكان، ج ٤، ص ٤٥٠.

(٥) وفيات الأعيان: ابن خلكان، ج ١، ص ٢١٤. البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٧، ص ١٤٢.

عليها<sup>(١)</sup>، كما أنشأ الخواجه أبو بكر بن العيني تربةً له شمالي التربة الخاتونية، وجعل بها خزانة للكتب، وقد أوقف ولده شيخ الإسلام زين الدين عبد الرحمن ابن العيني كتبه عليها<sup>(٢)</sup>.

كذلك بنى المؤرخ أبو بكر محفوظ بن معتوق ابن البزوري البغدادي الأصل التاجر، تربته في سفح قاسيون، وجعل بها خزانة للكتب، وقد أوقف كتبه عليها<sup>(٣)</sup>، ومن محتويات هذه المكتبة كتاب «مناقب الأئمة» لأحمد بن علي الباقلاني (ت ٤٠٣هـ = ١٠١٢م)، وهو كتاب يثبت الإمامة للأئمة الأربعة، وإيضاح مطاعن الزارين عليهم، والقول في تفضيلهم، وتفضيل الصحابة بعضهم على بعض، وقد أوقف في سنة (٦٩٤هـ = ١٢٩٥م)<sup>(٤)</sup>، وقال ابن كثير في حوادث سنة (٦٩٩هـ = ١٢٩٩م): إن التتار نهبوا خزانة ابن البزوري<sup>(٥)</sup>.

التربة السيفية: أوقف الجناب العالي محمد بن السيفي أرغون شاه الناصري سنة (٧٦٠هـ = ١٣٥٨م) على تربة أبيه ربةً شريفة، وهذه الربة توجد اليوم في متحف دمشق<sup>(٦)</sup>.

التربة العزبة البدراية الحمزية الصالحية بدمشق: أنشأها حمزة بن موسى بن أحمد بن الحسين بن بدران المعروف بابن شيخ السلامية (ت ٧٦٩هـ = ١٣٦٧م)، وقد أوقف درساً وكتباً، وعيّن لذلك الشيخ زين الدين بن رجب<sup>(١)</sup>.

---

(١) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٧، ص ١٨٩. المدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج ٢، ص ١٨٣. منادمة الأطلال: عبد القادر بدران، ص ٣٢٨.

(٢) المدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج ٢، ص ١٩١.

(٣) العبر في خبر من غير: الذهبي، ج ٥، ص ٣٨٣ - ٣٨٤. المدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج ٢،

(٤) فهرس المخطوطات دار الكتب الظاهرية: يوسف العش، ص ٨٤ - ٨٥.

(٥) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٧، ص ٧٢٢.

(٦) ع ع ٢٩١، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٢٦٨.

وفي المعرّة توفي في سنة (٧٣٩هـ = ١٣٣٨م) إبراهيم بن عيسى بن عبد السلام المفستّر، وكان قد نسخ كتب الدقاق وغيرها الكثير، ووقف كتبه على زوايا وأماكن في المعرّة<sup>(٢)</sup>.

وقد كان هناك ترب في نيابة صفد في العصر المملوكي، منها التربة التي شيّدها نائب السلطنة طغريل (٦٦٥-٦٧٣هـ) = (١٢٦٦-١٢٧٤م)<sup>(٣)</sup>، وكذلك التربة السيفية التي شيّدها نائب السلطنة أرقطاي لزوجته، التي تقع إلى الشمال من الجامع الظاهري، وذكر الصفدي عنها «تربة حسناء بالنسبة إلى عمائر صفد»<sup>(٤)</sup>، وتربة الشيخ عمر بن هدبة بن يونس الصالحي، وقد قام بأنشائها بيته<sup>(٥)</sup>، وكذلك التربة التي أنشأها أحد الأمراء الطبلخانات، وهو نجم الدين فيروز في حدود سنة (٧٢٧هـ = ١٣٢٦م)، وكانت هذه الترب تحتوي على خزانات للكتب، حيث كانت تُقرأ بها كتب الحديث وتلاوة القرآن الكريم<sup>(٦)</sup>.

## مكتبات الربط

ذكر ابن كثير في سنة (٦٥٤هـ = ١٢٥٦م) أنّ الناصر: «أمر بعمارة الرباط الناصري بسفح قاسيون»<sup>(٧)</sup>، وكان قد أُسر عند هولوكو، وقد قال الذهبي عنه: «فلمّا بلغه كسرة بيدار

---

(١) القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية: محمد بن طولون الصالحي (ت ٩٥٣هـ = ١٥٤٦م)، تحقيق: محمد أحمد دهان، الناشر: مجمع اللغة العربيّة، دمشق، ج ١، ص ٣٢٥. الدارس في تاريخ المدارس: النعمي، ج ٢، ص ٢٠١. شذرات الذهب: ابن العماد، ج ٨، ص ٣٦٧.

(٢) تاريخ ابن الوردي: ابن الوردي، ج ٢، ص ٣١٤.

(٣) نيابة صفد في العصر المملوكي: رسالة ماجستير، هاني صالح الموعد، أشراف: عمار محمد النهار، جامعة دمشق (٢٠١٠-٢٠١١م)، ص ٢٢٥.

(٤) أعيان العصر: الصفدي، ج ١، ص ٤٧٧.

(٥) نيابة صفد في العصر المملوكي: هاني صالح الموعد، ص ٢٢٦.

(٦) نيابة صفد في العصر المملوكي: هاني صالح الموعد، ص ٢٢٥.

(٧) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٧، ص ٣٤٢.

على حمص استشاط هولاءكو غضباً وأمر بقتله وقتل أخيه الظاهر»، وكان ذلك سنة (٦٥٨هـ = ١٢٠٦م)<sup>(١)</sup>، وذكر ابن كثير في حوادث سنة (٦٩٩هـ = ١٢٩٩م) أنّ التتار نهبوا كتباً كثيرةً ومنها الكتب التي في الرباط الناصري<sup>(٢)</sup>.

---

(١) العبر في خبر من غير: الذهبي، ج٥، ص٢٥٦ - ٢٥٧.

(٢) البداية والنهاية: ابن كثير، ج١٧، ص٧٢٢.

## الفصل الرابع: نظام المكتبات في عصر المماليك

## أولاً: التزويد سياسته ومصادره

إنّ عملية تزويد المكتبة بالكتب هي أول عملية تقوم بها المكتبات، فبدونها لا تتم أيّ عملية من قراءة ونسخ ومطالعة... إلخ، ولا بدّ أن تقاس المكتبة من خلال الكتب الموجودة بها، وليس من حيث العدد فقط، إنّما من حيث نوعيّة الكتب التي تحتوي عليها، وهل هي قادرة على تلبية متطلبات المجتمع الذي تكون فيه واحتياجاتهم في نوعية القراءة التي تهتمّهم؟ وقد كان التزويد يتمّ على أسس رشيدة مناسبة، وسياسة مستقرّة، فذلك يساعد على تقديم خدماتها المطلوبة منها، وتحقيق أهدافها الإعلامية والتعليمية والتربوية.

وإنّ عملية تزويد المكتبة بدون قوانين مكتوبة يجعلها تتعود بلا شعور على تطبيق مبادئ عامة معيّنة، وذلك نتيجة للخبرة والدراسة والإحساس العام، ولكن لا بدّ من وجود قوانين وسياسة محدّدة مكتوبة تقوم بتنظيم هذه المكتبات<sup>(١)</sup>، ومن الطبيعي أنّه إذا كان للمكتبة سياسة مكتوبة لتزويدها بالكتب فإنّها لا تتأثر بتغير الموظفين بها، وتساعد على تنميتها، ويجب أن تكون سياستها مرنة وتُراجع باستمرار، لأنّه يجب أن تُراعي ظروف العصر التي تعيش فيه، وقد تتغيّر أهداف المكتبة أيضاً، وقد دلّ على هذا الأمر الوثائق، وهي بمثابة اللوائح التنظيمية للمؤسّسات المملوكية وما تحتويها من المكتبات، فهي غالباً ما تتضمن الغرض من إنشائها، وتعيين الموظفين فيها، والصفات والدرجات العلمية التي يجب أن تتوفر فيهم، والمجالات التي يجب أن تغطيها مجموعة الكتب في المكتبة<sup>(٢)</sup>، ولقد كانت عملية تزويد المكتبات تتم من خلال:

---

(١) تزويد المكتبات بالمطبوعات: شعبان عبد العزيز خليفة، الناشر: دار الثقافة، القاهرة، ط ٢، ص ١٢.  
(٢) وثيقة تغري بردي: رقم ٩٨، محفظة ١٦، دار الوثائق. وثيقة أزيك من ططخ: رقم ١٩٨، محفظة ٣١، دار الوثائق. وثيقة حسام الدين لاجين: رقم ١٧، محفظة ٣، دار الوثائق. وثيقة الجمالي يوسف: رقم ١٠٥، محفظة ١٦، دار الوثائق. وثيقة السلطان حسن: رقم ٨٨١ أوثاف. وثيقة بيبرس الجاشنكير: رقم ٢٣، محفظة

## الشراء

وهو المصدر الرئيسي لعملية تزويد المكتبات، يقول ابن جماعة في كتاب «تذكرة السامع» عند الحديث عن الأدب مع الكتب إنّه على طالب العلم أن يقوم: «بشراء الكتب التي يرغب بها ما أمكنه»<sup>(١)</sup>، وبسبب الإقبال على اقتناء الكتب فمن الطبيعي أن تزدهر صناعة الورّاقين<sup>(٢)</sup>، وتصبح كسلعة اقتصادية، وقد كانت لهم أسواق وحوانيت «ولم تكن الحوانيت مجرد دور للنسخ وإنّما كانت مجلس للعلماء والشعراء وملتقى للطبقات المثقفة، وبعبارة أعمّ نستطيع أن نقول إنّها كانت مركزاً للنشاط العلمي ومستودعاً لكلّ ما أنتجه العقل الإسلامي في شتى فروع المعرفة»<sup>(٣)</sup>.

ومن هذه الأسواق سوق الورّاقين الذي بجوار المدرسة الأشرفية برسبائي<sup>(٤)</sup>، وهناك أيضاً سوق الكتبيين، وهو بين الصاغة والمدرسة الصالحية أنشئ في سنة (٧٠٠هـ = ١٣٠٠م)، وقد نقل من موقعه إلى القيسارية فيما بين سوق الدجاجيين المجاور للجامع الأحمر وبين سوق

---

٤، دار الوثائق. وثيقة جمال الدين يوسف الإستاذار: رقم ١٠٦، محفظة ١٧. وثيقة برسبائي: رقم ٨٨٠ أوقاف. وثيقة الإيشادي: رقم ٢٧٨، محفظة ٤٣. وثيقة المؤيد شيخ: أوقاف رقم ٩٣٨. وثيقة صيرغتمش: رقم ٣١٩٥ أوقاف. وثيقة خوند بركة: رقم ٤٧ محفظة ٧، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٦٠.

(١) تذكرة السامع والمتكلم في أداب العالم والمتعلم: بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله ابن جماعة (٦٦٩-٧٣٣هـ) = (١٢٧٠-١٣٣٢م)، تحقيق: محمد بن مهدي العجمي، الناشر: دار البشائر الإسلامية، ط ١ (١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م)، ص ١١٦.

(٢) الوراق: وهي صناعة للاستنساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين واختصت بالأمصار العظيمة العمران. ونستطيع القول أن الوراق هي نشر الكتب والتجارة وهي بمكانها دور النشر في العصر الحالي. مقدمة ابن خلدون: ابن خلدون، ص ٥٣٢.

(٣) نستطيع القول أن الورقة: هي نشر الكتب والتجارة بها أما الحوانيت فهي كدور النشر إذا ما قارناها في العصر الحالي. لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات: عبد الستار الحلوجي، ص ٣٨.

(٤) وثيقة برسبائي: رقم ٨٧٣، محفظة ٢٧، دار الوثائق. وثيقة برسبائي: رقم ٨٨٠ أوقاف، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٦١.



الحصريين، وكان يعلو هذه القيسارية ربع فيه مساكن فتضررت الكتب من نداوة أقبية البيوت وفسد بعضها، فعادوا إلى سوق الكتب الأوّل، وما برح هذا السوق مجتمعاً لأهل العلم يترددون إليه<sup>(١)</sup>، وقد كان هذا السوق موجود تجاه الجانب الشرقي من جامع عمر بن العاص، في أوّل زقاق القناديل، وقد استمر حتى سنة (٥٧٨٠هـ = ١٣٧٨م)<sup>(٢)</sup>، وتذكر وثيقة أزبك بن ططخ أنّ هناك سوقاً للكتبيين كان بخطّ خان الخليلي<sup>(٣)</sup>، وعن أحمد بن محمد بن معين الكتبي يقول السخاوي: «وكان يكتب القصص بالرملة ويبيع الكتب تحت الصرغتمشية فينظر شيئاً من نظمه»، وهذا يدلّ على وجود سوق تحت الصرغتمشية<sup>(٤)</sup>.

وقد كانت بدمشق أيضاً أسواق للكتب، وقد كان سوق الكتب بدمشق تحت شباك المدرسة الفاضلية بالكلاسة قرب الجامع الأمويّ، كما في جواره سوق لبيع الكتب يقال له سوق الكتبيين في باب البريد بدمشق<sup>(٥)</sup>.

وقد كان جماعو الكتب يهتمون ببيع الكتب عن طريق الدلال إلى هواة الكتب، فمثلاً عند بيع كتب موفق الدين المطران (ت ٥٨٧هـ = ١١٩١م) بعث القاضي الفاضل يستعرضها، فبعثوا إليه بملء خزانة صغيرة منها، فنظر فيها ثمّ ردّها<sup>(٦)</sup>.

---

(١) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٣، ص ٣٣٨ - ٣٣٩. الانتصار لواسطة عقد الأمصار: ابن دقماق، ج ٤، ص ٤٤ - ٦١ - ٩٥.

(٢) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٣، ص ٣٣٨.

(٣) وثيقة أزبك من ططخ: رقم ١٩٨، محظفة ٣١، دار الوثائق، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٦١.

(٤) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٢، ص ٢٠٧.

(٥) العلوم العملية: كحالة، ص ٢٨٠.

(٦) عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ابن أبي أصيبعة، ص ٦٥١ - ٦٥٥.

ومن الذين عملوا في بيع الكتب محمد بن إبراهيم بن يحيى جمال الدين الكتبي المعروف بالوطواط (ت ٧١٨هـ = ١٣١٨م)، وكانت صناعته الوراقة وبيع الكتب<sup>(١)</sup>، وعبد اللطيف بن عبد العزيز الحراني الأصل الشافعي المعروف بابن المرحل وكان تاجراً في بيع الكتب<sup>(٢)</sup>، وعبد المؤمن بن عبد الرحمن العجمي صاحب الخطّ المنسوب (ت ٧٤١هـ = ١٣٤٠م)، وهو من حلب وقدم القاهرة وأبجر في الكتب فحصل منها مالاً جمّاً<sup>(٣)</sup>.

وممن عمل بسوق الكتب والورق محمد بن يوسف بن سليمان الكتبي ويعرف بالأمشاطي (ت ٨٣٣هـ = ١٤٣٠م)، وقد عمل بحانوت ببيع الكتب دهرًا، وكان خبيراً بها، وكانت له معرفة بالكتب<sup>(٤)</sup>، وموسى بن سليمان بن عبد الكريم الشامي ثمّ القاهري الكتبي (ت ٨٣٧هـ = ١٤٣٤م)، وقد تكسّب في الكتب وبرع في ذلك جدّاً<sup>(٥)</sup>، ومحمد بن محمد بن أبي بكر المليحي ثمّ القاهري الحريري (ت ٨٨٢هـ = ١٤٧٧م)، وقد كتب بخطّه أشياء وقد عمل في حانوت بالوراقين<sup>(٦)</sup>، وحسين بن حسن بن يوسف الهوريني ثمّ القاهري الكتبي (ت ٨٥١هـ = ١٤٤٧م) «ودرس وأفاد وتكسّب بالكتبيين وصار رأس الجماعة وأحسن من رأيته منهم وانتفع به الطلبة في ذلك» كما ذكر عنه السخاوي<sup>(٧)</sup>، ومحمد بن علي بن موسى القاهري الماوردي المعروف بابن موسى (ت ٨٧٠هـ = ١٤٦٥م) وقد كتب المنسوب وتكسب في

---

(١) الأعلام للزركلي: خير الدين الزركلي، الناشر: دار العلم للملايين، ط ١٠ (١٤١٢هـ = ١٩٩٢)، ج ٥،

ص ٢٩٧. الدرر الكامنة: ج ٣، ص ٣٨٥ - ٣٨٦.

(٢) الدرر الكامنة: ابن حجر، ج ٣، ص ٢٢ - ٢٣.

(٣) الدرر الكامنة: ابن حجر، ج ٣، ص ٣٣.

(٤) الضوء اللامع: السخاوي، ج ١٠، ص ٩٤.

(٥) الضوء اللامع: السخاوي، ج ١٠، ص ١٨٢.

(٦) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٩، ص ٧٠.

(٧) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٣، ص ١٤٤.

الوراقيين<sup>(١)</sup>، وعبد اللطيف بن أحمد بن إقبال الحريري الحنفي المعروف بابن إقبال (ت ٨٧٨هـ = ١٤٧٣م)، وتكسب في حانوت بالوراقيين<sup>(٢)</sup>، وأحمد بن محمد الشهاب البالسي الأصل القاهري الماوردي توفي بعد سنة (٨٩٠هـ = ١٤٨٥م)، نسخ بخطه أشياء مع تكسبه بالوراقيين<sup>(٣)</sup>، وحسين بن علي بن سالم الفوي الأصل القاهري (ت ٨٩١هـ = ١٤٨٦م) وقد تكسب بسوق الكتب<sup>(٤)</sup>، وأحمد بن محمد بن معين الدين أبو العباس القاهري الكتي، وكان يكتب القصص بالرملة، ويبيع الكتب تحت الصرغتمشية<sup>(٥)</sup>.

ولم تكن عملية شراء الكتب في العصر المملوكي مأمونة من أمور الغش والتلاعب حيث يقول السخاوي عن محمد بن محمد القاهري إمام الصرغتمشية وابن إمامهم (ت ٨٦٤هـ = ١٤٥٩م): «وتعاني التجارة في الكتب وصار ذا براعة تامّة في معرفتها، وخبرة زائدة بخطوط العلماء والمصنّفين، حيث أنّه يشتري الكتاب بالثمن اليسير ممّن لا يعلمه، ثمّ يكتب عليه بخطه إنّه خطّ فلان فيروج، وقد يكون ذلك غلطاً لمشابته له، بل وربّما يتعمّد لأنّه لم يكن بعمدة حتّى أنّه ربّما يقع له الكتاب المخروم فيوالي بين أوراقه أو كراريسه بكلام يزيد من عنده أو بتكرير تلك الكلمة، حيث يتوهّمه الواقف عليه قبل التأمل تامّاً، وقد يكون الحرم من آخر الكتاب فيلحق ما يوهّم به تمامه، ولما مات وجد عنده من الكتب ما يفوق الوصف ممّا لم يكن في الظنّ أنّه عنده، ومن العجيب أنّه كان يتفق الاحتياج لبعض الكتب فأذكر له ذلك فيحيء به إليّ موهماً أنّه من عند غيره، ولا يمكن منه إلا بإجارة يومية أو نحوها، وربّما

(١) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٨، ص ٢٢٢.

(٢) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٤، ص ٣٢١.

(٣) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٢، ص ٢١٦.

(٤) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٣، ص ١٤٩ - ١٥٠.

(٥) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٢، ص ٢٠٧.

تكون الأجرة موازية للثمن أو أكثر لشدة تعسره، وكذا كان يشارط في الدفع على التحديث مع عدم احتياجه»<sup>(١)</sup>.

ولقد كان هناك من تخصص في عملية الدلالة أي عملية الترويج والدعاية للكتب، وقد لقبوا بدلال الكتب، وقد كان لهذه الفئة ضوابط، ويذكر السبكي في كتابه «معيد النعم ومبيد النقم» أنه من حق دلال الكتب: «ألا يبيع كتب الدين لمن يعلم أنه يضيعها، أو ينظرها لانتقادها والظعن عليها، وألا يبيع من كتب أهل البدع والأهواء، وكتب المنجّمين، والكتب المكذوبة كسيرة عنتره وغيرها، ولا يحلّ له أن يبيع كافراً له المصحف ولا شيئاً من كتب الحديث والفقهاء»<sup>(٢)</sup>، ومن الذين عملوا في هذه المهنة محمد بن عمر بن محمد دلال الكتب<sup>(٣)</sup>.

وكان الوراقون يسافرون ومعهم الكتب، ويقدمونها للهواة الذين يشترون الكتب، مثل ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ = ١٢٢٩م)، حيث أنه كان يشتري الكتب في سفره ويقدمها للملوك، أو للشخصيات البارزة<sup>(٤)</sup>.

ومن المكتبات التي زوّدت بالكتب عن طريق الشراء مدرسة جمال الدين محمود الإستاذار، فقد اشترى خزانة كتب القاضي برهان بن جماعة، وكانت تحوي حوالي أربعة آلاف مجلد، وجعلها في مكتبة المدرسة المحمودية<sup>(٥)</sup>، وأيضاً جمال الدين يوسف الإستاذار قام بشراء

---

(١) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٩، ص ١٤٨ - ١٤٩.

(٢) معيد النعم ومبيد النقم: السبكي، ص ١١٠.

(٣) الضوء اللامع: السخاوي، ج ١١، ص ٢٣١.

(٤) وفيات الأعيان: ابن خلكان، ج ٦، ص ١٢٧.

(٥) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر ج ١ ص ٣٩ - ٤٠. إنباء الغمر بأنباء العمر: ابن حجر

العسقلاني، ج ١، ص ٢٩٣.

الكثير من كتب المدرسة الأشرفية بعد هدمها، بمبلغ ستمائة دينار وجعلها وقفاً في مدرسته<sup>(١)</sup>، وكان بعضهم لا ينتظر من يأتي لبيع الكتب، بل يبعث لشراء الكتب مثل ما حصل لأرغون الداودار (ت ٧٣١هـ = ١٣٣٠م)، حيث أرسل ألفي دينار إلى مصر لشراء الكتب من تركة قجلس الناصري، وجّهز إلى بغداد ليستنسخ فتاوى ابن قاضي خان<sup>(٢)</sup>، وكان الأمير يشبك بن مهدي الظاهري الداودار محبباً لجمع الكتب النفيسة شراءً واستكتاباً<sup>(٣)</sup>، وكذلك واقف الضيائية بدمشق ضياء الدين المقدسي محمد بن عبد الواحد، فقد حرص على تزويد مكتبته بالشراء والنسخ والهبات<sup>(٤)</sup>.

## النسخ

كان النسخ يعملون بالنسخ داخل المكتبات، وذلك لتزويد المكتبة بما تحتاجه من الكتب، وبهذه العملية يقومون بإغناء المكتبة حتى بالكتب التي قد تكون نادرة في غيرها، وتزيد من نشاط الحياة في المكتبة علمياً وعملياً.

وبما أنّ الهدف الرئيسي لهذه المكتبات هو المطالعة والنسخ، فلقد قامت هذه المكتبات على اختلافها بهذه المهمة على أتم وجهه، ويذكر ابن خلدون في مقدمته: «وأما الكتابة وما يتبعها من الوراقة، فهي حافظة على الإنسان حاجته، ومقيّدة لها عن النسيان ومبلغة ضمائر النفس إلى البعيد الغائب، ومخلّدة نتائج الأفكار والعلوم في الصحف، ورافعة رتب الوجود للمعاني»<sup>(٥)</sup>، وكذلك يقول عن الخطّ: «وهو رسوم وأشكالٌ حرفية تدلّ على الكلمات

(١) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ٢، ص ٦٣٦.

(٢) الوافي بالوفيات: الصفدي، ج ٨، ص ٢٣٢.

(٣) الضوء اللامع: السخاوي، ج ١٠، ص ٢٧٢ - ٢٧٤.

(٤) مجموع ٩٧ (٢)، انظر دور الكتب العربية: العشي، ص ٢٤٤.

(٥) مقدمة ابن خلدون: ابن خلدون، ص ٥٠٨.

المسموعة الدالّة على ما في النفس فهو ثاني رتبةً من الدلالة اللغوية، وهو صناعة شريفة، إذا الكتابة من خواص الإنسان التي يُميّز بها عن الحيوان»<sup>(١)</sup>.

وكان هناك طريقتان للنسخ: الأولى هي أن ينسخ الناسخ من المخطوط مباشرةً دون مساعدة أحد، وبعد الفراغ من النسخ يراجعها غيره للتأكد من صحة ما نُسخ، والثانية تقوم بجلوس عدد من النساخ، ويملي عليهم شخص آخر، وبعد الفراغ من عملية النسخ تجري المقابلة على النسخ<sup>(٢)</sup>.

ولم تكن هناك شروط تعيق النسخ والمطالعة، بل كان للفرد الحق في الاستفادة من هذه الخدمة، وساعد على ذلك منشئو المكتبات، حيث اهتمّوا بالجوّ العام الخاص بالمكتبة، والاعتناء بكلّ ما له صلة بالمبنى وتجهيزاته، وإمداده بالأدوات الخاصّة بالنسخ، والمحابر، والأقلام، والأوراق وغيرها<sup>(٣)</sup>، وقد ذكر ابن جماعة في ذكره للأدب مع الكتاب عدة أمور على الناسخ أن يتّبعتها ويراعيها:

أ- إن كان طالب علمٍ، فعليه النسخ إذا أمكنه ذلك، ولم يشتغل بنسخه ولا ينبغي أن يشغل بدوام النسخ إلّا فيما يتعذر عليه تحصيله، لعدم قدرته على دفع ثمنه، أو أجره النسخ.

ب - لا ينسخه بدون إذن صاحبه.

ج - إذا نسخ كتاباً لا يضعه مفروشاً منشوراً على الأرض، بل يجعله بين كتابين أو شيئين أو على كرسي الكتب المعروف، كيلا يسرع تقطيع حبه، وإذا وضعه في مكان مصفوف فليكن على كرسي، أو تحت خشب أو نحوه.

(١) مقدمة ابن خلدون: ابن خلدون، ص ٥٢٤.

(٢) المكتبات في الإسلام: محمد ماهر حمادة، ص ١٧٥ - ١٧٦.

(٣) تاريخ المكتبات: النشار، ص ٢٠٢.

د - إذا نسخ شيئاً من كتب العلوم الشرعية، فعليه أن يكون على طهارة، مُستقبلاً  
القبلة، ويبتدئ بكتابة «بسم الله الرحمن الرحيم»، وكلما ذكر اسم الله أتبعه بالتعظيم، وكلما  
ذكر اسم النبي يكتب الصلاة عليه والسلام وبلسانه أيضاً، وإذا ذكر اسم صحابي يترضى عنه.  
هـ - وأن يتجنب الكتابة الدقيقة في النسخ، فإن الخطّ علامة فعلي أن يبيّن أحسنه.

و- وإذا صحّح الكتاب والمقابلة على أصله الصحيح أو على شيخ له، أن يشكّل  
المشكل ويعجم المستعجم ويضبط الملتبس، ويتفقد مواضع الصحيح، إذا احتاج ضبط ما في  
متن الكتاب إلى ضبطه في الحاشية، وكذا إن احتاج إلى ضبطه مبسوطاً في الحاشية وبيان  
تفصيله<sup>(١)</sup>.

ويقول ابن طولون عن الناسخ: «ومن النساخ من لا يتقي الله، ويكتب على عجلة، أو  
يحذف في أثناء الكتاب شيئاً، رغبة في إنجازها، إذا كان قد استؤجر على نسخة جملة، وهذا  
خائن لله تعالى في تضييع العلم، وجعل الكلام بعضه غير مرتبط ببعض، ولمصنف الكتاب في  
تبتيه تصنيفه، وللذي استأجره في سرقة منه هذا القدر»<sup>(٢)</sup>.

ومن حق الناسخ ألا يكتب شيئاً من الكتب المضلّة ككتب أهل البدع والأهواء،  
وكذلك لا يكتب الكتب التي لا ينفع الله بها، كسيرة عنتره وغيرها من الموضوعات المختلفة  
التي يضيع الزمان بها، وليس للدين بها حاجة، وكذلك كتب أهل المجون وما وضعوه في أصناف  
الجماع، وصفات الخمر وغيرها من المحرمات<sup>(٣)</sup>.

(١) تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم: ابن جماعة، ص ١١٦ - ١٢٤.

(٢) نقد الطالب: ابن طولون، ص ١٧٨. معيد النعم ومبيد النقم: السبكي، ص ١٠٣.

(٣) نقد الطالب: ابن طولون، ص ١٧٨. معيد النعم ومبيد النقم: السبكي، ص ١٠٣.

ويقول السبكي على من يستأجر ناسخاً «أن يبين له عدد الأوراق والأسطر في كلّ صفحة، ونوع الحبر وإذا لم يحدّد فيستخدم الحبر العادي»<sup>(١)</sup>، وتذكر وثيقة وقف مدرسة السيفي أزيك من ططخ أنّه على خازن الكتب مناولة الكتب وتقديمها: «لمن يريد المطالعة فيها والكتابة منها»<sup>(٢)</sup>، وكذلك وثيقة الجمالي يوسف عند ذكره لواجبات خازن الكتب: «لمن يريد المطالعة والنسخ»<sup>(٣)</sup>، ووثيقة الغوري: «أنه ينبغي تقديم الكتب لطالبها للانتفاع بها داخل المدرسة في النسخ منها أو المطالعة فيها أو المقابلة عليها»<sup>(٤)</sup>، ويقول السبكي عن دار الحديث الاشرافية: «ويصرف في شراء ورق وآلات النسخ من مركب وأقلام ودوي وكراسي»<sup>(٥)</sup>، وتذكر وثيقة قاني باي الرماح: «وكل من حضر إليه من طلبة العلم الشريف يمكنه الانتفاع بما يحتاج إليه من الكتب المذكورة في نسخ أو مقابلة أو مطالعة، إلى أن ينهي حاجته ثم يرد الكتاب إلى

---

(١) معيد النعم ومبيد النقم: تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي، ص ١٠٤. نقد الطالب لزغل المناصب: شمس الدين محمد بن طولون (٨٨٠ - ٩٥٣هـ) = (١٤٧٥ - ١٥٤٦م)، تحقيق: محمد أحمد دهمان - خالد محمد دهمان، الناشر: دار الفكر المعاصر، بيروت، ص ١٧٨.

(٢) وثيقة أزيك من ططخ: رقم ١٩٨، محفظة ٣١، محكمة، انظر تاريخ المكتبات: النشار ص ٢٠١.

(٣) وثيقة الجمالي يوسف ناصر: الخواص الشريفة، رقم ١٠٥، محفظة ١٦ محكمة، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٢٠١.

(٤) وثيقة الغوري: رقم ٨٨٣ أوقاف، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٢٠١.

(٥) فتاوى السبكي: الإمام أبي الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي (٦٨٣ - ٧٥٦هـ) = (١٢٨٤ - ١٣٥٥م)، تحقيق: حسام الدين القدسي، الناشر، دار الجليل، بيروت، ط ١ (١٤١٢هـ = ١٩٩٢م)، ج ٢، ص ١١٠.



محلّه»<sup>(١)</sup>، وكذلك الأمير صرغتمش فقد أوقف في مدرسته كتباً ويظهر على بعضها أنّها وقفت للانتفاع بها في القراءة والنسخ<sup>(٢)</sup>.

ومن الذين عملوا في النسخ، شرف الدين الناسخ<sup>(٣)</sup>، وسيف الدين الناسخ (ت ٧٢١هـ = ١٣٢١م) المنادي على الكتب<sup>(٤)</sup>، ومن أكثرهم شهرةً عمر بن حسن بن عمر بن حبيب (ت ٧٢٦هـ = ١٣٢٥م) الدمشقي المحدث محتسب حلب، وقد نسخ الكثير، وعمل لنفسه فهرساً حافلاً<sup>(٥)</sup>، وكذلك شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت ٧٣٣هـ = ١٣٣٢م) حيث كتب الكثير، وكتب البخاري ثماني مرّات، وكان يكتب النسخة ويقابلها، وينقل الطباق عليها ويجلدها ويبيعهها بسبعمئة درهم وألف، وباع تاريخه للقاضي جمال الدين الكفاة بألفي درهم، وكان يكتب في النهار الطويل ثلاثة كرّاريس، وجمع تاريخاً كبيراً في ثلاثين مجلداً، وقد باعه بألفي درهم<sup>(٦)</sup>، وكذلك إبراهيم المقدسي الذي كان يكتب المصاحف ويغالي الناس بثمانها ولا سيّما أهل دمشق، لحسن خطّه ودقة الضبط، ومن مخرّفاتة مصحف كتبه بخطّه سنة (٨٠٩هـ = ١٤٠٦م)<sup>(٧)</sup>، والشيخ الصالح أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله (ت ٧١٧هـ = ١٣١٧م)، وكان فاضلاً، وكتب ونسخ «التنبيه» و«العمدة» وغير ذلك، وكان

- 
- (١) وثيقة قاني باي الرماح: رقم ١٠١٩ أوقاف، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٢٠٢.
- (٢) ربعة صرغتمش: رقم ١٥٠ مصاحف، دار الكتب، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٢٠٢. تاريخ المكتبات: النشار، الملحق الأوّل، لوحة رقم ١، ص ٢٦٣.
- (٣) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٨، ص ١٧.
- (٤) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٨، ص ٢١٤.
- (٥) أعيان العصر وأعوان النصر: الصفدي ج ٣، ص ٦٠ - ٦٢. الدرر الكامنة: ابن حجر، ج ٣، ص ٢٣٤.
- (٦) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٨، ص ٣٥٩. أعيان العصر: الصفدي، ج ١، ص ٢٨١ - ٢٨٢. الدرر الكامنة: ابن حجر، ج ١، ص ٢٠٩ - ٢١٠.
- (٧) العلوم العملية في العصور الإسلامية: عمر رضا كحالة، ق ١، ص ٢٩٠.

الناس يتنفعون به ويقابلون عليه ذلك ويصححون عليه<sup>(١)</sup>، وأبو العباس العسكري الأندلسي الصوفي، شيخ العربية بالشام (ت ٧٥٠هـ = ١٣٤٩م)، نسخ بخطه «تهديب الكمال» واختصره<sup>(٢)</sup>، ومحمد بن داود بن ياقوت الصارمي المحدث (ت ٦٦٠هـ = ١٢٦٢م)، وقد كتب كثيراً، وكان ديتاً خيراً، يعير كتبه ويداوم على الاشتغال بسماع الحديث<sup>(٣)</sup>.

والشيخ نجم الدين موسى بن علي الحلبي ثمّ دمشقي (ت ٧١٦هـ = ١٣١٦م) الكاتب الفاضل المعروف بابن البصيص، شيخ صناعة الكتابة في زمانه لا سيما في المزوج والمثلث، وقد أقام يكتب الناس خمسين سنة<sup>(٤)</sup>، والشيخ بهاء الدين أبو محمد القاسم بن الشيخ بدر الدين بن عساكر الدمشقي الطبيب (ت ٧٢٣هـ = ١٣٢٣م) الذي خدم الكتاب في عدّة جهات، ثمّ ترك ذلك ولزم بيته لإسماع الحديث<sup>(٥)</sup>، وتاج الدين أبو القاسم عبد الغفار بن محمد بن عبد الكافي السعدي الشافعي (ت ٧٣٢هـ = ١٣٣٢م) في مصر، وقد كتب الكثير ونسخ نحو خمسمائة مجلداً<sup>(٦)</sup>.

ولم تكن عملية النسخ حكراً على الرجال فلقد شاركت النساء في ذلك مثل فاطمة بنت الحافظ علم الدين أبو محمد البرزالي، فقد نسخت البخاري في ثلاثة عشر مجلداً، فقابلها لها أبوها، وقد أصبحت نسختها أصلاً معتمداً يكتب منها للناس<sup>(٧)</sup>.

---

(١) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٨، ص ١٧٠. الدرر الكامنة: ابن حجر، ج ٣، ص ١٨٥.

(٢) أعيان العصر: الصفدي، ج ١، ص ٢١٦.

(٣) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٧، ص ٤٤٤.

(٤) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٨، ص ١٥٩. من ذبول العبر: الذهبي والحسيني، ص ٨٩.

(٥) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٨، ص ٢٣٢ - ٢٣٣. من ذبول العبر: الذهبي والحسيني، ص ١٣٠ - ١٣١.

(٦) من ذبول العبر: الذهبي والحسيني، ص ١٧١.

(٧) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٨، ص ٤١٣.

وكذلك الأمراء ومنهم الأمير الصالح الخيّر ركن الدين أبو أحمد بن عبد الله التركي القيمري ثمّ الظاهري (ت ٧٠٤هـ = ١٣٠٤م)، عندما كان بمصر لازم الشيخ شرف الدين الدميّاطي، واستنسخ بعض مصنّفاته<sup>(١)</sup>، وهبة الله بن عبد الرحيم القاضي الكبير شمس الدين الجهنّي الحموي البارزي الشافعي قاضي حماة (ت ٧٣٨هـ = ١٣٣٧م)، كان إذا سمع بتصنيفٍ لأحدٍ من أهل عصره جهّز الدراهم واستنسخ ذلك<sup>(٢)</sup>، وعلي بن داود بن إبراهيم القاهري الجوهري المعروف بابن الصيرفي (ت ٩٠٠هـ = ١٤٩٤م) اشتغل بنسخ الكتب، ومنها كتاب «البداية والنهاية» لابن كثير، وكتاب «الدرر الكامنة» لابن حجر، وكتاب «إنباء الغمر بأبناء العمر» لابن حجر<sup>(٣)</sup>، والقاعدة شبه العامّة عند كبار جماعي الكتب أنّه ينبغي على النساخ والخطّاطين المشهورين أن يستمرّوا في تزويد المكتبات<sup>(٤)</sup>.

وقد كان جماعو الكتب يهتمون بالدقة، فيعهدون بالنسخ لمن هو أعرف بالكتاب المراد نسخه، أو لمن يملك أفضل نسخة منه<sup>(٥)</sup>، ولكي تكون النسخة مطابقة للأصل الذي ينسخ منه، يتطلّب من الناسخ مقابلة نصّها بدقّة، فإنّ من يرغب بشراء الكتاب لا يهتمّ فقط بالكتاب، إنّما بدقّته أيضاً، وللقيام بهذه المهمة يستعينون بالعلماء لمقابلة النصوص مع النساخ<sup>(٦)</sup>، وتكون الرغبة في النسخة الأصلية في الدرجة الأولى، ولذلك يقول ابن حجر عن

(١) أعيان العصر: الصفدي، ج ٢، ص ٨٣ - ٨٤.

(٢) أعيان العصر: الصفدي، ج ٥، ص ٥٣٢ - ٥٣٤.

(٣) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٥، ص ٢١٧ - ٢١٨.

(٤) دور الكتب العربية: يوسف العث، ص ٢٩٩.

(٥) دور الكتب العربية: العث، ص ٣٠١.

(٦) دور الكتب العربية: العث، ص ٣٠٠.

إبراهيم بن عبد الرحيم بن جماعة (ت ٧٩٠هـ = ١٣٨٨م): «واقفني من الكتب النفيسة بخطوط مصنفيها وغيرهم ما لم يتهياً لغيره»<sup>(١)</sup>.

وكان العمل التقني والدؤوب الذي يتطلبه أسلوب النسخ النفيس يقوم بناءً على رغبة جماعي الكتب، الذين يُقيمون أيضاً الخطّ الجميل غير الخاضع لقواعد النسب<sup>(٢)</sup>، وقد كان العلماء ينسخون الكتب الكثيرة فابن الجوزي (ت ٥٧٩هـ = ١١٨٣م) يقول: «كتبت بإصبعي هاتين ألفي مجلدة»<sup>(٣)</sup>، وكذلك أحمد بن عبد الدايم بن نعمة المقدسي الصالحي (ت ٦٦٨هـ = ١٢٦٩م)، حيث ذكر أنه كتب بيده ألفي مجلدة وكان يكتب خطأً حسناً، ويكتب سريعاً، فكتب ما لا يوصف كثرةً من الكتب الكبار، والأجزاء المنشورة لنفسه وبالأجرة، حتى كان يكتب في اليوم إذا تفرغ تسع كراريس أو أكثر، ويكتب مع اشتغاله بمصالحه الكراسين والثلاث، وكتب «الخرقي» في ليلة واحدة، وكتب «تاريخ الشام» لابن عساكر مرتين، و«المغني» للشيخ موفق الدين مرات<sup>(٤)</sup>، وكتب عمر بن أحمد بن هبة الله بن العدم الحلبي (ت ٦٦٠هـ = ١٢٦٢م) كتباً تعدل ثلاث خزائن<sup>(٥)</sup>، وتدلّ هذه الأرقام على سرعة العلماء في عملية الكتابة والنسخ، فإن لم يكتبوا بخطوطهم فأهم كانوا يقومون بتصحيحها، ويقابلونها، ويشرحونها<sup>(٦)</sup>، مثل أبي بكر بن سليمان بن صالح الشرف الداديجي الحلبي (ت ٨٠٣هـ = ١٤٠٠م)، وقد ناب في تدريس المدرسة الصحايبية وسكنها وكتب الكثير من كتب العلم<sup>(٧)</sup>، وحمادة بن عبد الرحيم بن علي

(١) الدرر الكامنة: ابن حجر، ج ١، ص ٣٩ - ٤٠.

(٢) دور الكتب العربية: العث، ص ٣٠٦.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة: ابن رجب، ج ٢، ص ٤٨١.

(٤) ذيل طبقات الحنابلة: ابن رجب، ج ٤، ص ٩٦ - ٩٩.

(٥) معجم الأدباء: ياقوت الحموي، ج ٦، ص ٩.

(٦) دور الكتب العربية: العث، ص ٣١٠.

(٧) داديج: هي قرية من عمل سمرين من غريبات حلب، الضوء اللامع: السخاوي، ج ١١، ص ٣٤.

الجمال الفخر المارديني الأصل المصري (ت ٧١٩هـ = ١٣١٩م)، وكان يتكسّب بالنسخ، حيث كتب الكثير جداً<sup>(١)</sup>، وكذلك عمل الشيخ شرف بن أمير السراي ناسخاً بالمدرسة الأشرفية برسبائي، وتذكر نصّ وثيقة السلطان برسبائي: «ويصرف للشيخ شرف الله موسى المكتب الرومي في كلّ شهر من الشهور من الفلوس المذكورة ثلاثمائة دراهم أو ما يقوم مقامها من النقود، وفي كلّ يوم من الخبز القرص المذكور ثلاثة أرطال»<sup>(٢)</sup>.

وهناك بعض المكتبات اعتمدت على النسخ كمصدر رئيسي في عملية تزويد المكتبة، كمكتبة السلطان حسن بن قلاوون، حيث كان ينسخ بخطّه، ومن الكتب التي نسخها كتاب «دلائل النبوة»<sup>(٣)</sup>.

ومن الطبيعي أن تعتمد أسواق الكتب على النساخ الذين يقومون بكتابة النسخ من الكتب وبيعها على سوق الكتب والورّاقين، ولكنّ بعض هؤلاء النساخ استأثروا بهذا العمل، فأصبح لهم دكاكينهم الخاصّة بهم لبيع الكتب التي ينسخونها، ومن هؤلاء ابن الوحيد محمد بن شريف بن يوسف الزرعي ثمّ المصري الذي ولد بدمشق (ت ٧١١هـ = ١٣١١م)، ويقول عنه ابن حجر: «وبلغ الغاية في قلم التحقيق وفضاح النسخ فلم يكن في زمانه من يدانيه فيهما»، «وكان يبيع المصحف نسخاً بلا تذهيبٍ ولا تجليدٍ بألفٍ حتّى أنّ بعض تلامذته كان يُحاكي خطّه فكان هو يشتري المصحف من تلميذه بأربعمائة ويكتب في آخره كتبه محمد بن الوحيد فيشتري منه بألف»، وقد كتب ربعة بليقة الذهب وقد أوقفها بجامع الحاكم<sup>(٤)</sup>.

(١) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٣، ص ١٦٢.

(٢) وثيقة برسبائي: رقم ٨٨٠ أوقاف، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٧٤.

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج ٣، ق ١، ص ١.

(٤) الدرر الكامنة: ابن حجر، ج ٤، ص ٧٣ - ٧٤ - ٧٥.

وتحتفظ دار الكتب المصرية بالعديد من المصاحف والمخطوطات المذهبة التي ترجع للعصر المملوكي منها كتاب «البرهان في متشابه القرآن» لتاج القراء برهان الدين الكرمانى (ت ٥٠٥هـ = ١١٠٩م)<sup>(١)</sup>، وكذلك الجزء الثاني من كتاب «التكملة والذيل والصلة» للحسن بن محمد الصاغانى (ت ٦٥٠هـ = ١٢٥٢م)، وقد كان وقفاً على المدرسة الصرغتمشية<sup>(٢)</sup>.

## الوقف

كان الوقف من أهم وسائل تزويد المكتبات بالكتب، فلم يقتصر الوقف على المباني والبساتين والأراضي والحمامات والأفران وغيرها فقط - وإن ساعد أيضاً على تزويد المكتبات - بل كان هناك أيضاً وقف للكتب.

وعملية وقف الكتب أكثر من أن تُعدّ، وتكاد لا تكون هناك مكتبة في العصر المملوكي في الشام أو مصر إلا وقد أوقفت عليها الكتب، وسوف نذكر بعض الأمثلة عن هذا الوقف.

يذكر السبكي: «للناظر في دار الحديث الأشرفية أن يستنسخ للوقف أو يشتري ما تدعو الحاجة إليه من الكتب والأجزاء ثم يقف ذلك إسوة ما في الدار من الكتب»<sup>(٣)</sup>، ومن الذين أوقفوا كتبهم الشيخ أبو الفتح محمد بن أبي بكر الكوفي الأبيوردي (ت ٦٦٧هـ = ١٢٦٧م)<sup>(٤)</sup>، ويحيى بن عبد الوهاب الدمهورى الشافعى (ت ٧٢١هـ = ١٣٢١م)، وقد أوقف كتبه بالجامع الظاهري<sup>(٥)</sup>، وأحمد بن هارون الشهاب الشيروانى، وقد أوقف كتبه على الجامع

(١) دار الكتب المصرية رقم ٥٠٩ تفسير، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٦٥.

(٢) دار الكتب المصرية، رقم ٣ لغة، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٦٥.

(٣) طبقات الشافعية: السبكي: ج ٢، ص ١١١.

(٤) عقد الجمان: العينى، ج ٢، ص ٥٥. العبر في خبر من غير: الذهبى، ج ٥، ص ٢٨٦ - ٢٨٧.

(٥) الدرر الكامنة: ابن حجر، ج ٥، ص ١٩٧.

الأزهر<sup>(١)</sup>، وقد أوقف الشيخ علي الإيشادي كتبه على الفقراء والمساكين القاطنين بالجامع الأزهر<sup>(٢)</sup>، والشيخ عيسى بن عبد الرحمن الزواوي المغربي أوقف بعض كتبه على المغاربة الذين في جامع الأزهر، على مكتبة رواق المغاربة<sup>(٣)</sup>، كذلك أوقف الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير نحو خمسمائة مجلداً من كتب العلوم، والآداب، والتواريخ، وختمات شريفة، وربعات وغير ذلك، على خزانة الكتب بالجامع الحاكمي<sup>(٤)</sup>، ومحمود بن أحمد بن محمود العنتابي وقد عمّر المدرسة بقرب الجامع الأزهر وقد أوقف بها كتبه<sup>(٥)</sup>.

وأوقف السلطان المنصور قلاوون عدّة أحمال من الكتب على القبّة المنصورية<sup>(٦)</sup>، كذلك أوقف كثير من كتب الطب على البيمارستان المنصوري<sup>(٧)</sup>، وأوقف الأمير بكتمر الساقى عدداً من الكتب على تربته<sup>(٨)</sup>، ولقد أوقف كتاب «الإحاطة في أدباء غرناطة» لذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الخطيب على خانقاه سعيد السعداء<sup>(٩)</sup>، وقد أوقف القاضي أمين الدين الأشتري أبو العباس أحمد بن شمس الدين أبو بكر عبد الله بن محمد الحلبي المعروف بالاشترقي الشافعي

---

(١) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٢، ص ٢٤٠.

(٢) وثيقة الإيشادي: رقم ٢٧٨، محفظة ٤٣، نشر عبد اللطيف إبراهيم، ص ١٣ - ١٤، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٦٨.

(٣) وثيقة عيسى الزواوي: رقم ٢٥٣، محفظة ٤٠، ص ١٣، انظر تاريخ المكتبات: النشار ص ١٦٨.

(٤) وثيقة بيبرس الجاشنكير: رقم ١٣، محفظة ٤، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٦٨. نهاية الأدب في فنون الأدب: ج ٣٢، ص ٥٨ - ٦٠.

(٥) معجم الشيوخ: عمر بن فهد الهاشمي، ص ٢٩٢ - ٢٩٥.

(٦) خطط المقريري: المقريري، مج ٤، ج ٢، ص ٥٢٠.

(٧) خطط المقريري: المقريري، مج ٤، ج ٢، ص ٦٩٧.

(٨) انظر نصّ الوقفية على ربة الأميكر بكتمر الساقى، مصاحف دار الكتب رقم ٧٢، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٧٠. تاريخ المكتبات: النشار الملحق الأول، لوحة رقم ٣، ص ٢٥٦.

(٩) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب: أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، ج ٧، ص ١٠٢ - ١٠٥. تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٧٢ - ١٧٣.

(ت ٦٨١هـ = ١٢٨٢م) أجزاءً بدار الحديث الأشرفية<sup>(١)</sup>، وأوقف الشيخ الإمام الحافظ ابن البرزالي علم الدين أبو محمد القاسم بن محمد بن البرزالي مؤرخ الشام (ت ٧٣٩هـ = ١٣٣٨م) بعض كتبه عليها<sup>(٢)</sup>.

والوقف يقسم إلى قسمين حسب المستفيدين منه: الوقف الخيري (للسالحي العام)، والوقف الأهلي (للسالحي الخاص) أو وقف الأسرة<sup>(٣)</sup>، ويمكن أن نقسمها إلى قسمين: ١- وقف عام: وهو للمسلمين دون تمييز. ٢- ووقف شبه عام: ويكون على مؤسسة معينة أو لأشخاص معينين، ولا بد من حيث المبدأ أن يصل الشكلا إلى الوقف العام<sup>(٤)</sup>.

ومن الأمثلة على الوقف الأهلي، ففي سنة (٧٧٨هـ = ١٣٧٦م) أوقف أحد الأشخاص ويسمى عبد الله (٥) كتاباً في الفقه الحنبلي، أوقف على الحاج محمد ابن الحاج جبرائيل<sup>(٥)</sup>، وفي سنة (٨١٣هـ = ١٤١٠م) أوقف كتاب لابن ناصر الدين محمد بن أبي بكر، ولكنه يذكر أيضاً أنه بعد وفاته عليه أن يضعه في دار الحديث الضيائية، وعلى فئة لها به حقّ النفع أي المحدثين<sup>(٦)</sup>.

وكانت هناك طريقة أخرى في الوقف، حيث يشترط الواقف أنه بعد وفاة الموقوف عليه أن يضع الكتاب في مؤسسة للانتفاع به، وقد يُوقف الواقف الكتب على ذريته من بعده، مثل

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، ج ١٧، ص ٥٨٧.

(٢) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٨، ص ٤١٢، ٤١٣. من ذبول العبر: الذهبي، ص ٢٠٩.

(٣) دور الكتب العربية: العرش، ص ٣٨٦.

(٤) دور الكتب العربية: العرش، ص ٣٨٦.

(٥) الظاهرية، الفقه الحنبلي، ٧٣، انظر دور الكتب العربية: العرش، ص ٣٨٧.

(٦) الظاهرية، السيرة ٢٨. دور الكتب العربية، ص ٣٨٧.



محمد بن قوام الحنفي عام (ت ٨٣٨هـ = ١٤٣٤م)، فقد أوقف كتباً لنفسه، ثمّ على ذريته من الذكور المتصفيين بالعلم الشريف، ثمّ على طلبة العلم بدمشق<sup>(١)</sup>.

وقد يُوقف الواقف الكتب على شخص ثمّ على ذريته من بعده، مثل تاج الدين الكندي (ت ٦١٣هـ = ١٢١٦م)، حيث أوقف كتباً نفيسة على معتقه ياقوت، ثمّ على ولده من بعده، ثمّ على العلماء، حيث جعلت هذه الكتب بمقصورة ابن سنان الحلبية<sup>(٢)</sup>، وقد أوقف في سنة (٥٨٣هـ = ١١٨٧م) الحسين بن عبد الله بن ابي البركات بن شافع القرشي كتاباً في الحديث على من أراد الانتفاع به من المسلمين، وجعل الانتفاع به لنفسه مدّة حياته<sup>(٣)</sup>.

وهناك شكل آخر من الوقف، حيث يوضع الكتاب تحت تصرف شخص ينتفع به قبل شخص آخر، أو وضعه عند من يحتفظ به عنده ويسمح باستعماله<sup>(٤)</sup>، وفي عام (٨١٣هـ = ١٤١٠م) تشير وقفية إلى شخص معين ابن ناصر الدين محمد بن أبي بكر، وقفت له كتاباً، ولكن تذكر تخصيص وقفه النهائي بعد وفاته على دار الحديث الضيائية، وعلى فئة لها به حقّ النفع أي المحدثين<sup>(٥)</sup>، ونلاحظ هنا أنّ الوقف ينتهي بالأخير لكلّ الناس أي ينتهي للوقف

---

(١) الظاهرية، حديث ١١٢. وهذا الشخص أوقف كتاباً آخر (في الفقه الحنبلي ٦٤). على نفسه ومن بعده

على الطلاب، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٣٨٧.

(٢) الدارس في تاريخ المدارس: النعمي، ج ١، ص ٣٧١.

(٣) الظاهرية: الفقه الحنبلي ٧٣، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٣٨٧.

(٤) دور الكتب العربية: العش، ص ٣٨٨.

(٥) الظاهرية: السيرة ٢٨، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٣٨٧.

العام، وعلى المرء لكي ينتفع بالكتب أن يكون كفتاً<sup>(١)</sup>، فإن لم تتوفر الجدارة هنا، يحقق الوقف العام بشكلٍ نهائي<sup>(٢)</sup>.

ونلاحظ أن الوقف الأهلي أو الشبه العام يأخذ في نهاية الأمر وقف عام، ويسمح بإعارتها للجميع مثل كتب الكندي<sup>(٣)</sup>، ولم يكُ تحديد المنتفعين مشروطاً إلا لإثبات الترتيب في أولوية مطالعة الكتب، وهناك وقف يشير إلى هذا الأمر بوضوح حيث تنصّ الوقفية «موقوف على ذكور ابني الواقف زاهية وفاطمة، من ينتفع به منهم قُدّم على غيره في النفع به، ويكون عنده ما دام ينتفع به»<sup>(٤)</sup>، وهذا يدلّ على أنّ الترتيب يكون وقتياً وأولويةً فقط، وكذلك فليس ثمة ما يمنع من تداول الناس لهذه الكتب بعد الموقوف عليهم في الأوّل<sup>(٥)</sup>.

وقد يقسم الوقف الذي يتعلق بمنتفعي مؤسسة ما إلى قسمين: وقف لأصحاب المؤسسة، ووقف للمؤسسة نفسها، ومن الأمثلة على وقف الكتب على أصحاب المؤسسة، جاء في إحدى الوقفيات «أوقف هذا الكتاب لأهل العلم وطلاب الحديث في الخاناقاه الناصرية بالقاهرة»<sup>(٦)</sup>، وفي وقفية أخرى «هذا ما أوقف... رمضان العدري على طلبة العلم الشريف المقيمين في المدرسة الصالحية [الضبيانية]»<sup>(٧)</sup>.

---

(١) دور الكتب العربية: العش، ص ٣٨٨.

(٢) دور الكتب العربية: العش، ص ٣٨٨.

(٣) الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج ١، ص ٣٧١.

(٤) الظاهرية، مجموع ٩٥، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٣٨٨ - ٣٨٩.

(٥) دور الكتب العربية: العش، ص ٣٨٩.

(٦) مخطوط المكتبة الوطنية، القسم العربي: رقم ٥٨٦٦، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٣٨٩.

(٧) الظاهرية، الأصول ٩٠، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٣٨٩.

وتجدر الإشارة إلى أن كثير من الكتب تحمل علامة «وقف مؤيد في هذه المؤسسة»، وهذا لا يعني وقف مؤيد على أشخاص، إنما هو وقف على المؤسسة التي وضع فيها الكتاب، ومن الذين استعملوا هذا التعبير علي بن مسعود في عدة مرّات<sup>(١)</sup>، وكذلك أوضح في مرّات كثيرة أن كتبه وقفت على جميع المسلمين<sup>(٢)</sup>، وعن علي الحصري في إحدى وقفياته أنه وقف كتبه كلها وعين مقرّها المدرسة الضيائية<sup>(٣)</sup>، وفي موضع آخر يقول: «إنّ هذا الوقف لجميع المسلمين»<sup>(٤)</sup>، وكذلك قائمة عبد الغني جمال الدين أبي موسى المقدسي التي كانت موقوفة بالضيائية، عليها إشارة وقف على جميع المسلمين<sup>(٥)</sup>.

أمّا الوقف العام فيظهر له شكلان: وقف لطلبة العلم، ووقف لجميع المسلمين، فالأول كان شائعاً كثيراً، ونصادف كثيراً من الوقفيات التي تذكر دوماً «وقف لطلبة العلم»<sup>(٦)</sup>، والثاني وهو الوقف على جميع المسلمين دون تمييز، وهو أكثر شيوعاً<sup>(٧)</sup>، وهناك عدة أوقاف توقف الكتب على الفقراء، ومنها وقف الشيخ علي الإبشادي حيث أوقف كتبه على الفقراء

(١) الظاهرية، مجموع ١٧ (٩)، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٣٩١.

(٢) الظاهرية، مجموع ١٧ (٦)، ٢٣ (٥)، ٩٧ (١٣)، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٣٩٢.

(٣) الظاهرية، مجموع ١٠٤ (٦)، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٣٩٢.

(٤) الظاهرية، حديث ٣٤٤، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٣٩٢.

(٥) حديث الحامض المروزي: عبد الغني جمال الدين أبي موسى المقدسي: المكتبة الوطنية: وثيقة، رقم ٣٨٢٨ ت.

(٦) مخطوط المكتبة الوطنية القسم العربي ١٧٧٩، صفحة العنوان. المحكمة الشرعية، سجل ربيع الأول ١٣٢٠/ ٢٨٣. المجلة الآسيوية ٢٠٣، ١٦٥/١٩٢٨. الظاهرية، الفقه الشافعي ١٧٢-١٧٣، انظر دور الكتب العربية، العش، ٣٩٣.

(٧) تبين كذب المفتري: علي بن هبة الله ابن عساكر الدمشقي (ت ٥٧١هـ = ١١٧٥م)، الناشر: دار الكتب العربية، بيروت، ط ٣ (١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م)، ص ٢٦٩. الظاهرية، مجموع ١١٦ (٣)، ٩٣ (١٥). لغة ٤٢، ٥١، حديث ٢١، انظر دور الكتب العربي: العش، ص ٣٩٤.

والمساكين القاطنين بالجامع الأزهر<sup>(١)</sup>، وقد قال السبكي «أن يقوم في العارية الفقراء الذين يصعب عليهم تحصيل الكتب»<sup>(٢)</sup>.

### الإهداء

تغني مكتبات الهواة أحياناً بطريقةٍ غير مباشرة من الهداية التي كانوا يتقبلونها بقبول حسن<sup>(٣)</sup>، وهي عملية فردية تطوعية، يقوم فيها السلطان أو الأمير أو العلماء.. إلخ، بتقديم نسخة أو عدة نسخ إلى خزانة المكتبة التي يريد تزويدها، وقد يكون بعض هذه الكتب ذو قيمة علمية وفنية كبيرة، فقد يكون بخط المؤلف نفسه، وقد يكون نادراً، ومن هذه الكتب كتاب «تاريخ التتار»، الذي أهده الشاه اسماعيل الصفوي للمكتبة السلطانية الغورية مع مجموعة من الكتب<sup>(٤)</sup>، كذلك أهدي كاتب السرّ الشيخ ناصر الدين محمد البارزي (ت ٨٤٣هـ = ١٤٣٩م) خمسمائة مجلد على الجامع المؤيدي<sup>(٥)</sup>، وقد عمّر السلطان الناصر في سنة (٧٢٥هـ = ١٣٢٥م) على الطريق الآخذ إلى الشام في حماة بالقرب من العش خانقاه، وأنزل جماعة من الصوفية بها، وقد قام صاحب حماة بإرسال هدية تليق بالخانقاه المذكور مثل كتب وبسط وغير ذلك<sup>(٦)</sup>.

---

(١) وثيقة الإيشادي: رقم ٢٧٨، محفظة ٤٣، نشر عبد اللطيف إبراهيم، ص ١٣ - ١٤، انظر تاريخ المكتبات: النشر، ص ١٦٨.

(٢) معيد النعم ومبيد النقم: السبكي، ص ٩٠.

(٣) دور الكتب العربية: العش، ص ٣٠٤.

(٤) مجالس السلطان الغوري: عبد الوهاب عزام، ص ٤٣.

(٥) خطط المقرئ: المقرئ، مح ٤، ج ١، ص ٣٤٣. حسن المحاضرة: السيوطي، ص ١، ص ٤٦٧.

(٦) تاريخ أبي الفداء: أبي الفداء، مج ٢، ج ٧، ص ١١٠.

ثانياً: الإجراءات الفنية (التسجيل، السجلات، الجرد، الفهرسة، الفهارس، التنضيد، التصنيف)

لم يكن لهذه المكتبات أن تقوم بعملها على أكمل وجه من قراءة ونسخ ومطالعة، لو لم تكن على درجة عالية من تنظيم الكتب وترتيبها، ليسهل على روادها تناولها، ولا يتعبون في البحث عنها<sup>(١)</sup>، فكان التنظيم يبدأ بتعيين أمين المكتبة<sup>(٢)</sup>، ثم تسجيل الكتب في سجلات خاصة، وكان الهدف من هذا العمل هو إثبات ملكية المكتبة عليها، ومن أجل تسهيل عملية المراجعة والجرد، وقد كانت عملية سجلّ الكتب معروفة قبل العصر المملوكية، حيث يقول ابن الجوزي: «ولقد نظرت في ثبت الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية فإذا به يحتوي على ستة آلاف مجلد»<sup>(٣)</sup>.

أما المكتبة المملوكية فتذكر وثيقة الغوري: «ويسلمه جميع ما فيها من الكتب من تفسير وحديث وفقه ولغة ومعان وبيان وبديع وأصول فقه وغيرها بغرض يجعل الناظر نسخة عنده»<sup>(٤)</sup>، ومن خلال هذه الوثيقة نستنتج أنّ الخازن يقوم بتسلم الكتب، ويقوم بتسجيلها مع الاحتفاظ بنسخة عنده ونسخة عند الناظر، من أجل الجردّ والمراجعة<sup>(٥)</sup>، وكذلك في المدرسة

---

(١) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة: كمال الدين أبي الفضل عبد الرزاق بن الفوطي البغدادي: الناشر: دار الفكر الحديث، بيروت: ص ٣٢-٣٣.

(٢) تاريخ المكتبات: النشار، ١٧٥. دور الكتب العربية: العش، ص ٣٤٢.

(٣) صيد الخاطر: جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ = ١٢٠١م)، تحقيق: حسن المساحي سويدان، الناشر: دار القلم، دمشق، ط ١ (١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م) ص ١٢.

(٤) وثيقة الغوري: رقم ٨٨٣ أوقاف، انظر تاريخ المكتبات: النشار ص ١٧٦.

(٥) انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٣٣٩.

الأشرفية يقول الطَّبَّاح: «وكانت أسماء الكتب مثبتة عند اقاربه في درج كبير فذهب في محنة تيمور»<sup>(١)</sup>.

وقد استُخدمت كلمة «الاعتبار» في العصر المملوكي لتدل على كلِّ ما له صلة بالكتب، من تقويم وترتيب وجرد... الخ<sup>(٢)</sup>.

وكان من يضع كتاب أو كتب في المكتبة، يقوم بين الحين والآخر بمراجعتها والتأكد من سلامتها، فإذا نقص منها شيء يقوم بمعاينة، الخازن لأنَّ من مسؤولياته الحفاظ على الكتب، وهذا ما حصل للشيخ عثمان فخر الدين البكري التلاوي، عندما كان خازناً في مكتبة المدرسة المحمودية، وعندما اختُبرت فكانت ناقصةً أربعمئة مجلِّد، فعرِّم بأربعمئة دينار ممَّا اضطرَّه إلى بيع بيته<sup>(٣)</sup>، وعن علي بن أحمد بن اسماعيل القلقشندي حضر مبيع كتب، وكان من ضمن هذه الكتب كتاب «لسان العرب في اللغة» وكان بخطِّ مؤلفه، ولم يستطع شراءه، فلما استلم خزانة الكتب بالمدرسة الأشرفية كان من موجوداتها «أخرج له حين التسليم والعرض والأعمال بالنيات»<sup>(٤)</sup>، وهذا يدلُّ على أنَّ عملية التسليم والجرد كانت متبعة في العصر المملوكي.

وكذلك من الأمور المساعدة على الوصول للكتب بسهولة هي عملية الفهرسة وهي كلمة فارسية، أي الكتاب الذي تجمع فيه الكتب<sup>(١)</sup>، ومن الذين عملوا فهارس للمكتبات في

---

(١) دور الكتب في حلب قديماً وحديثاً: الطَّبَّاح، ج ١٥، ص ٣٠٣.

(٢) لسان العرب: ابن منظور، مج ٤، ص ٥٢٩.

(٣) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٥، ص ١٤٣ - ١٤٤.

(٤) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٦، ص ١٦١ - ١٦٢. التبر المسبوك في ذيل السلوك: السخاوي، ص ٤٠٤ - ٤٠٥.

(١) لسان العرب: ابن منظور، مج ٦، ص ١٦٧. الألفاظ الفارسية المعربة: السيدادي شيد، الناشر، مطبعة

الكاثوليك للأباء اليسوعيين، بيروت (١٣٢٦هـ = ١٩٠٨م)، ص ١٢٢.

العصر المملوكي ابن حجر العسقلاني، الذي تولى خزانة الكتب في المدرسة المحمودية، وعمل لها فهرساً على الحروف، وعلى أسماء التصانيف ونحوها، وآخر على الفنون<sup>(١)</sup>، وهذا يدل على وجود نوعين من الفهارس، فهرس بعناوين الكتب وفهرس بالموضوعات.

وعن مكتبة عبد الله بن يعقوب أحد الموالى الرومية، أنه تولى قضاء حلب سنة (٩٢٢هـ = ١٥١٦م)، وعنده كتبٌ كثيرةٌ، وهي على ما يروى عشرة آلاف مجلد «وجعل فهرستها مجلداً مستقلاً، يذكر فيه الكتاب ومؤلفه ولم يعرف مؤلفي عدّة منها، فكتب أسماءها»<sup>(٢)</sup>، ومن خلال كلام الغزي نستنتج أن الفهرس يُكتب في كتاب لتسهيل عملية الاستدلال على الكتب الموجودة في المكتبة، وكذلك يكتب فيه اسم الكتاب ومؤلفه.

وفي وثيقة الشيخ عبد الله الزواوي التي ترجع لعام (٨٧٨هـ = ١٤٧٣م)، تذكر هذه الوثيقة فهرساً لمكتبته التي أوقفها في الجامع الأزهر، وقد رتب هذا الفهرس ترتيباً مصنفاً برؤوس موضوعات واسعة، وإن لم يبرز هذه الرؤوس في سطور مستقلة تميّزها، بل يسمى الموضوع ثم يسرد الكتب فيه، وسوف نذكر قسم من هذه الوثيقة فيما يختص بالفقه: «كتب الفقه المدونة كاملة في جزء التقييد على المدونة للغريانة في جزء ثلاثة تقايد على المدونة لم يعرف مؤلفها في ثلاثة أجزاء لابن يونس جزآن على المدونة ابن الحاجب أربعة أجزاء شرح ابن الحاجب للثعالبي ثلاثة أجزاء جزء واحد للقاشاني التلقين جزء شرح التلقين ثلاثة أجزاء عيون المسائل جزء المختصر للشيخ خليل أربع نسخ شرح المختصر ليهرام نسختان أربعة مجلّدات جزء واحد من يهرام الرسالة لابن أبي زيد أربع نسخ شرح الرسالة لابن ناجي جزء ثالث من كلام الجزولي على

(١) تاريخ المكتبات: النشار، الملحق الثالث، ص ٢٨٣.

(٢) الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة: نجم الدين الغزي، ج ٢، ص ١٨٨ - ١٨٩.

الرسالة جزء ثالث من شرح ابن جلاب شرح البيوع للقباب في جزء للقباب جزء مجموع للتليطي»<sup>(١)</sup>.

وقد حصر محقق الوثيقة عبد اللطيف إبراهيم الموضوعات على النحو التالي: «القرآن الكريم والتفسير (سطر ٥)، القراءات (سطر ٦)، الحديث ومصطلحه (سطر ٧)، التصوّف (سطر ٨)، الفقه (سطر ١٠)، أصول الفقه (سطر ١٧)، الفرائض والحساب (سطر ١٩)، النحو (سطر ٢١)، أصول الدين (التوحيد) (سطر ٢٧)، المنطق (سطر ٣٠)، الطبّ (سطر ٣٠ - ٣١)، التاريخ (سطر ٣٢) اللغة (سطر ٣٢)»<sup>(٢)</sup>.

ومن خلال دراسة هذا الموضوع نستنتج:

- ١- جاء ترتيب الفهرس موضوعياً، وتحت الموضوع يسرد الكتاب بدون نظام محدد.
- ٢- تضمّن كلّ كتاب البيانات البيولوجرافية الآتية: الكلمات الدالّة في عنوان الكتاب وليس العنوان الكامل، وعدد الأجزاء، وأحياناً عدد النسخ من كلّ كتاب.
- ٣- يذكر اسم المؤلف أحياناً، ويكتفي غالباً بالجزء الأشهر فقط دون ذكر الاسم كاملاً، وأحياناً يكتفي بذكر اسم المؤلف عوضاً عن عنوان الكتاب، وأحياناً أخرى كان يكتفي بعنوان الكتاب دون ذكر اسم المؤلف.
- ٤- خلو الفهرس من علامات الترقيم.

---

(١) وثيقة الإيشادي: رقم ٢٧٨، محفظة ٤٣، دراسة وتحقيق: عبد اللطيف إبراهيم، (١٣٨١هـ = ١٩٦٢م)، انظر تاريخ المكتبات: النشار ص ١٨٠.

(٢) وثيقة عيسى الزواوي: رقم ٧٨، محفظة ٢٨، دراسة وتحقيق ونشر عبد اللطيف إبراهيم، (١٣٨١هـ = ١٩٦٢م)، انظر تاريخ المكتبات: النشار ص ١٧٩.



٥- لا توجد خطة معينة استخدمها الفهرس لترتيب الكتب فيه.

٦- يختتم الفهرس بتوقيع الشهود وهم سبعة<sup>(١)</sup>.

وتذكر وثيقة الإيشادي: «... ومجموع فيه معين الحكام وما معه مجلد وتفسير المنايات جزء كبير مجلد والمستجد مجلد ومجموع فيه الازوردية مجلد وفتوح مصر مجلد وشواهد العيني الصغرى مجلد وحاشية المغني للدمايني مجلد ودولة الإسلام للذهبي مجلد وزويله السخاوي مجلد والشفا مجلد وسراج الملوك مجلد وشرح الموطأ مجلد وابن عقيل مجلد والانتفاء للقرايى مجلد والقدورى حمائلى مجلد والشامل ليهرام مجلد وحيوة الحيوان مجلد»<sup>(٢)</sup>.

ونلاحظ على هذه الوثيقة أنّها مثلها مثل غيرها خالية من علامات الترقيم، وتذكر اسم الكتاب ومؤلفه، وفي بعض الاحيان لا يذكر اسم المؤلف مع ذكر عدد المجلدات التي يتألف منها الكتاب.

وقد قام الكندي بفهرسة كتبه التي وقفها على ياقوت بحسب المواد<sup>(٣)</sup>، وقد كتب أحد رجال الحكومة أسماء كتب مرتضى الدولة- صاحب حلب- في فهرس على شكل لفافة<sup>(٤)</sup>، ووضع ابن عبد الهادي (ت ٩٠٩هـ = ١٥٠٣م) فهرساً لمكتبته التي وقفها على أولاده ثم على أنسالة وأعقابه ثم من بعدهم على من ينتفع بها من الحنابلة، وقد ذكر فيه اسم الكتاب، واسم

---

(١) الفهرسة الوصفية للمكتبات: شعبان عبد العزيز خليفة، ص ٣٧- ٣٨. تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٧٩- ١٨٠.

(٢) وثيقة على الإيشادي: رقم ٢٧٨، محفظة ٤٣، دراسة وتحقيق: عبد اللطيف إبراهيم، ١٩٦٢، ص ٤٥- ٤٦، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٨١.

(٣) الذيل على الروضتين: أبو شامة، ص ٩٨.

(٤) دور الكتب العربية: العرش: ص ٣٤٣.

المؤلف، وعدد المجلدات، وقد ذكر أحياناً حجم المجلدات، ولم يرتبه وفق خطة معينة، فلم يكن مرتباً حسب المواضيع، وكذلك لم يكن مرتباً حسب الحروف، ويذكر كل كتاب في سطر<sup>(١)</sup>.

وكذلك قائمة عبد الغني جمال الدين أبو موسى المقدسي وهي بعنوان «حديث الحامض المروزي» لعبد الله بن محمد، وكان موقوفاً بالمدرسة الضيائية، وقد ذكر فيه فهرس للكتب، وقد رتبه حسب حروف الهجاء، ويذكر اسم المؤلف<sup>(٢)</sup>.

وكذلك كانت هناك طريقة أخرى استعملت وهي البطاقات، التي تستخدم كسجلٍ وفهرسةٍ، حيث نصح ابن الصيرفي الموظفين في زمنه باستعمال ما أسماه التذاكير، حيث يسجل فيها كاتب الديوان مهمات الأمور التي يحتوي عليها كل كتاب، وتكون موجودة تحت يده لتساعده على الإجابة عن الأسئلة التي تطرح عليه فوراً<sup>(٣)</sup>، وهذا الأمر يجعل الفهرسة فناً سهلاً، وقد لا تحتاج المكتبة إذا كانت صغيرة إلى فهرسة، أما إذا كانت كبيرة فمن الضرورة أن تكون لها فهرس<sup>(٤)</sup>، فمكتبة القاضي الفاضل احتاجت إلى سبعة مجلدات لفهرستها<sup>(٥)</sup>.

وعندما يتعلّق الأمر بالمكتبات التي بناها العلماء، وغذاها وقف من تبعهم بوضع الكتب في المكتبة، فإنّ فهرستها تكون هزيلة، فمثلاً المكتبة الضيائية التي تشكلت من أوقاف مختلفة، كان لها القوائم المفهرسة الصغيرة، التي تكون أحياناً على شكل لفافات<sup>(١)</sup>، وقد

---

(١) فهرست كتب ابن عبد الهادي: يوسف بن حسن بن عبد الهادي ابن المبرد، المكتبة الوطنية: رقم ٣١٩٠.

(٢) حديث الحامض المروزي: عبد الغني جمال الدين أبو موسى المقدسي، المكتبة الوطنية، وثيقة، رقم ٣٨٢٨ت.

(٣) دور الكتب العربية: العرش، ص ٣٤٤.

(٤) دور الكتب العربية: العرش، ص ٣٤٥.

(٥) دور الكتب العربية: العرش، ص ٣٤٥.

(١) دور الكتب العربية: العرش، ص ٣٤٥.

فُهرست مكتبة المدرسة الأشرفية بحلب على لفافة طويلة<sup>(١)</sup>، وهناك شكل آخر للفهرسة تكتب على أوراق وتلصق على أبواب الخزانة، تذكر فيها الكتب التي تحويها تلك الأبواب، وقد استعملت هذه الطريقة في مكتبة الفاطميين بالقاهرة<sup>(٢)</sup>.

أما التصنيف: فهو تجميع الكتب ذات المواضيع الواحدة في مكان واحد، لتسهيل تناولها من قبل رواد المكتبة والعاملين فيها، ويقول طاش كبرى زاده عن التصنيف: «هو علم باحث عن التدرج من أعمّ الموضوعات أي أخصّها ليحصل بذلك موضوع العلوم المندرجة تحت ذلك الأعمّ»<sup>(٣)</sup>.

ويذكر المقرئزي أنّ الفاطميين عرفوا هذه العملية، حيث أنّ خزانة القصر كانت مصنّفة إلى موضوعات، لكلّ موضوع مكان محدّد توضع فيه الكتب التي تكون في نفس الموضوع، وعلى كلّ خزانة لائحة مثبت فيها ما في الخزانة من كتب، وعلى الأغلب أنّ الأيوبيين أخذوا هذا من الفاطميين.

وبما أنّ الأيوبيين هم أساتذة المماليك، فلا بدّ أن يتأثروا بهم ويأخذوها منهم<sup>(٤)</sup>، ويذكر أبو شامة عن هذه الخزانة بعد خرابها بقوله: «واختلط أدبيها بنجومها وشرعيها بمنطقيها وطبيها بمندسيها وتواريخها بتفاسيرها ومجاهيلها بمشاهيرها»<sup>(٥)</sup>، وهذا الكلام يدلّ على أنّها كانت مقسّمة المواضيع، حيث أنّ لكلّ موضوع مكانه المحدّد، ولكنّها اختلطت بعد خرابها، ولم تذكر الكتب ولا الوثائق عن عملية التصنيف في العصر المملوكي في ترتيبهم للكتب،

(١) دور الكتب في حلب قديماً وحديثاً: الطباخ، ج ١٥، ص ٣٠٣.

(٢) خطط المقرئزي: مج ٢، ص ٣٥٨.

(٣) مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم: طاش كبرى زاده، ج ١، ص ٣٠٠.

(٤) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٢، ص ٣٥٨.

(٥) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: أبو شامة، ج ٢، ص ٤٤٥.

ولكنهم عرفوا هذا التصنيف في كتاباتهم، أي أنّ بعض الكتب التي تحدثت في حركة التأليف قد قامت بتصنيف الكتب حسب مواضيعها، مثلاً العلوم الإلهية: وهي تنقسم إلى علم القراءات وعلم رواية الحديث وعلم التوحيد... الخ، وبهذا الشكل قسّم المؤلفون في كتاباتهم العلوم بشكل نظري، أي قام العلماء بالتحدّث عن الكتب، وقاموا بتصنيفها في كتاباتهم مثل كتاب «إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد» للأكفاني (ت ٧٤٩هـ = ١٣٤٨م)، وكتاب «موسوعات العلوم» للبطامي (ت ٨٨٩هـ = ١٤٨٤م)، وكتاب «إتمام الدراية لقراء النقاية» للسيوطي (ت ٩١١هـ = ١٥٠٦م)، وكتاب «إنموذج العلوم» للدوايني (ت ٩٢٠هـ = ١٥١٤م)، وغيرها من الكتب.

وسوف نتحدث عن كتاب «إرشاد القاصد» للأكفاني حيث كان في عصر المماليك، ودرّس الطبّ في جامع ابن طولون والبيمارستان المنصوري، حيث قسّم العلوم في كتابه إلى قسمين:

أولاً- علوم مقصودة لذاتها وهي نوعان:

١- العلوم الحكيمة النظرية: وتشتمل على ثلاث أقسام:

أ- العلم الإلهي أو العلوم الشرعية: وهو علم القراءات وعلم رواية الحديث وعلم التوحيد (أصول الدين) وعلم اللغة وعلم دراية الحديث... الخ.

ب- العلم الطبيعي: ويشتمل على عشرة فروع منها علم السحر وعلم الفراسة وعلم الطبّ... الخ.

ج- العلوم الرياضية: وهي علم الهندسة، والهيئة، والعدد، والموسيقى،

٢- العلوم الحكيمة العملية: وهي ثلاث فروع:

أ- علم السياسة.

ب- علم الأخلاق.

ج- علم تدبير المنزل.

ثانياً- العلوم المقصودة لغيرها: وهي نوعان:

١- علم الأدب: وهو فيما يتعلّق باللغة العربية.

٢- علم المنطق: «وهو علم يتعلّم فيه الانتقال من أمور حاصلة في ذهن الإنسان إلى أمور مستحصلة فيه»<sup>(١)</sup>.

ونلاحظ أنّ معظم الذين كتبوا بهذا الأمر كانوا معتمدين على هذه الطريقة، ونجد هذا في «صبح الأعشى»، حيث قام القلقشندي بتقسيم العلوم مثل الأكفاني مع زيادة في الأمثلة<sup>(٢)</sup>، وكذلك طاش كبرى زاده في كتابه «مفتاح السعادة» فقد أخذ هذا التصنيف من الأكفاني، مع زيادة في ذكر الأمثلة من الكتب<sup>(٣)</sup>، وكانت بعض هذه الكتب موجودة في بعض المكتبات، مثل كتاب «إرشاد القاصد» الذي كان ضمن موجودات الجامع الأزهر التي أوقفها الإيشادي على مكتبته<sup>(٤)</sup>، وكذلك كتاب «تعريفات العلوم وموضوعاتها» كان ضمن

---

(١) إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد: محمد بن ساعد الأنصاري المعروف بابن الأكفاني (ت ٧٤٩هـ = ١٣٤٨م) تحقيق: حسن عبيّ، الناشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية، المملكة العربية السعودية، جدة، ط ١ (١٤١٤هـ = ١٩٩٤م) ص ٤٤-١٨٢.

(٢) صبح الأعشى: القلقشندي، ج ١، ص ٥٣٨.

(٣) مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم: أحمد مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده.

(٤) وثيقة الإيشادي: رقم ٢٧٨، دار الوثائق، نشر عبد اللطيف إبراهيم (١٣٨١هـ = ١٩٦٢م)، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٨٧.

موجودات المدرسة الجمالية الإستادارية، ثمّ انتقل إلى المدرسة الناصرية التي على أنقاض المدرسة الجمالية<sup>(١)</sup>.

ووجود مثل هذه الكتب في المكتبات يدلّ على علمهم ومعرفتهم بالتصنيف، ولكن هل قاموا بهذا التصنيف بشكل عملي في مكتباتهم؟ يبقى الأمر مجهولاً ولا يمكن الجزم فيه، ولكنّ ابن جماعة يلفت انتباهنا بقوله: «ويراعى الأدب في وضع الكتب باعتبار علومها وشرفها ومصنفيها وجلالتهما، فيضع الأشرف أعلى الكلّ ثمّ يراعي التدرّج فإن كان فيها المصحف الكريم جعله أعلى الكل، والأولى أن يكون في خريطة ذات عروة في مسمار أو وتدّ في حائط طاهر نظيف في صدر المجلس، ثمّ كتب الحديث الصرف كصحيح مسلم، ثمّ تفسير القرآن، ثمّ تفسير الحديث، ثمّ أصول الدين، ثمّ أصول الفقه، ثمّ الفقه، ثمّ النحو والصرف، ثمّ أشعار العرب، ثمّ العروض»<sup>(٢)</sup>، وهذا يدلّ على أنّهم عرفوا التصنيف وطبقوه بشكل عملي في المكتبات.

ومن أجل سهولة الوصول للكتاب يقول ابن جماعة: «وينبغي أن يكتب اسم الكتاب عليه في جانب آخر الصفحات من أسفل ويجعل رؤوس حروف هذه الترجمة إلى الغاشية التي من جانب البسملة»، وفائدة هذه الترجمة معرفة الكتاب وتيسر إخراجها من بين الكتب<sup>(٣)</sup>.

وكان هناك التقسيم العددي لمختلف أنواع الكتب التي وقفها أبو اليمن تاج الدين الكندي على ياقوت<sup>(١)</sup>، ونلاحظ أنّ مكتبة تاج الدين كانت مفهرسة، وقد قرأ أبو شامة فهرس

(١) تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٨٧.

(٢) تذكرة السامع: ابن جماعة، ص ١١٨.

(٣) تذكرة السامع: ابن جماعة، ص ١١٨.

(١) الذيل على الروضتين: أبو شامة ص ٩٨.

كتب تاج الدين في مقصورة ابن سنان فيقول: «فوجدتها سبعمائة وواحدًا وستين مجلدًا، في علوم القرآن مائة وأربعون، الحديث تسعة عشر، الفقه تسعة وثلاثون، اللغة مائة وثلاثة وأربعون، الشعر مائة واثنان وعشرون، النحو والتصريف مائة وخمسة وسبعون، علوم الأوائل من طب وغيره مائة وثلاثة وعشرون»<sup>(١)</sup>، وقد استمر وجود هذه المكتبة على الرغم من تفرق الكثير من كتبها حتى زمن ابن فضل الله العمر (ت ٧٤٩هـ = ١٣٤٨م)<sup>(٢)</sup>، وقد عاش أبو شامة في عصر الماليك (ت ٦٦٥هـ = ١٢٦٧م)، فلا بد أنّ الماليك قد عرفوا هذا التصنيف.

وفي وثيقة الشيخ عبد الله الزواوي التي ترجع لعام (٨٧٨هـ = ١٤٧٣م)، تذكر هذه الوثيقة فهرساً لمكتبته، أوقفها في الجامع الأزهر، وقد رتب هذا الفهرس ترتيباً مصنفاً برؤوس موضوعات واسعة، وإن لم يُبرز هذه الرؤوس في سطور مستقلة أو تمييزها، بل يسمى الموضوع ثم يسرد الكتب فيه، أي أنه صنّف الكتب حسب المواضيع بهذه الوثيقة، حيث يذكر الموضوع ومن ثم يسرد الكتب التي تختصّ بهذا الموضوع<sup>(٣)</sup>.

وقد بنى الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين صاحب حلب، لأبي الحسن علي الهروي السائح (ت ٦١١هـ = ١٢١٤م) مدرسة بظاهر حلب «وبنى له مدرسة بظاهر حلب ودفن في قبة المدرسة وكتب على كلّ باب منها ما يليق به»<sup>(١)</sup>، وهذان المثالان دليلان على أنّ الأيوبيين والماليك قد عرفوا عملية التصنيف، ونلاحظ من خلال الكتب التدرّج في أهمية

---

(١) الذيل على الروضتين: أبو شامة، ٩٨.

(٢) الذيل على الروضتين: أبو شامة، ٩٨. دور الكتب العربية: ص ٢٣٣.

(٣) وثيقة عيسى الزواوي: رقم ٧٨، محفظة ٢٨، دراسة وتحقيق ونشر عبد اللطيف إبراهيم، ( ١٣٨١ هـ = ١٩٦٢م)، انظر تاريخ المكتبات: النشار ص ١٧٩.

(١) الوافي بالوفيات: الصفدي، ج ٢٠، ص ١٦٣.

الكتب ومراعاة ذلك حيث يقول طاش كبرى زاده عن التصنيف: «هو علم باحث عن التدرّج من أعمّ الموضوعات أي أخصّها ليحصل بذلك موضوع العلوم المندرجة تحت ذلك الأعمّ»<sup>(١)</sup>.

ونجد هذا عند ابن حجر الهيتمي حيث يذكر التصنيف على حسب أهمية الكتب في الترتيب: «المصاحف فالحديث فالتفسير ثم شرح الحديث فأصول الدين فأصول الفقه فالتحوي فالصرف وعلوم المعاني والبيان والبديع... الخ»<sup>(٢)</sup>، ومن خلال هذا الكلام نلاحظ أنّ العلوم الدينية كانت لها الأهمية الكبرى، وكانت تسمى بالعلوم النقلية وتنضم إليها العلوم الأدبية، ومن ثمّ العلوم العقلية وهي بالدرجة الثانية<sup>(٣)</sup>.

ومن خلال دراستنا للمكتبات في الشام نلاحظ أنّ كلّ مكتبة لها اهتمام خاصّ وخاصةً في دمشق، مثل الضيائية ودار الحديث الأشرفية، حيث أنّ المحدثين الشافعيين كانوا يهتمون بدار الحديث الأشرفية، والأطباء يوقفون كتبهم في البيمارستانات، والصوفية في الرباطات والخانقاهات والزوايا، والمصاحف وكتب العبادات في المساجد والمشاهد، وقد كان هذا الأمر بشكل عام<sup>(٤)</sup>.

وقد أوقف القاضي تاج الدين الحسيني الذي كانت له يد في النظر على المكتبة الضيائية<sup>(٥)</sup>، مجموعة من كتبه في الفقه الشافعي على المدرسة العمرية<sup>(٦)</sup>، ولكنّ هذه القاعدة لم

---

(١) مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم: أحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى زاده، ج ١، ص ٣٠٠.

(٢) الفتاوى الحديثة: أحمد شهاب الدين ابن حجر الهيتمي المكي، الناشر: دار الفكر، ص ١٦٣.

(٣) مقدمة ابن خلدون: ابن خلدون، ص ٥٤٩ - ٥٥٠. كشف الظنون: حاجي خليفة، مقدمة الكتاب، ج ١، ص ٤٠.

(٤) دور الكتب العربية: العث، ص ٣١٩.

(٥) دور الكتب العربية: العث، ص ٣١٩.



تكن ثابتة فقد وجدت بعض الكتب في مكتبات لها غير الاهتمام الذي تتناولها بعض هذه الكتب، مثل السميساطية ومشهد عروة والعمرية في دمشق، والفاضلية والمنصورية في مصر<sup>(٢)</sup>، وعلى الرغم من بعض الحالات الشاذة نلاحظ أنّ كلّ مكتبة في دمشق لها اختصاص معين وتصانيف معيّنة تغلب على كتبها، أي أنّ الممالك قد عرفوا تصنيف المؤسسات كلاً حسب اختصاصها.

والتنضيد: أي جعل الشيء بعضه فوق بعض<sup>(٣)</sup>، وهو وضع الكتب في أماكنها، مثل وضعها على الرفّ أو في الدولاب أو الصندوق، ويكتب عليها بعناوين الكتب الموجودة فيها، لسهولة الوصول إليها<sup>(٤)</sup>، وبما أنّ الخازن هو المسؤول عن الكتب وسلامتها وغيرها من الأمور الأخرى الموكلة إليه، فهو الذي يجب أن يقوم بعملية التنضيد، ويذكر ابن جماعة ما نصّه: «ويراعى الأدب في وضع الكتب باعتبار علومها وشرفها ومصنفها وجلالته، فيضع الأشرف أعلى الكلّ، ثمّ يراعى التدرّج، فإن كان فيها المصحف الكريم جعله أعلى الكلّ، والأولى أن يكون في خريطة ذات عروة في مسمار، أو وتد في حائط طاهر نظيف في صدر المجلس، ثمّ كتب الحديث الصرف كصحيح مسلم، ثمّ تفسير القرآن، ثمّ تفسير الحديث، ثمّ أصول الدين، ثمّ أصول الفقه، ثمّ الفقه، ثمّ النحو والتصريف، ثمّ أشعار العرب ثمّ العروض، فإن استوى كتابان

---

(١) القلائد الجوهريّة: محمد بن طولون، ج ١، ص ٢٧٣ - ٢٧٤.

(٢) دور الكتب العربيّة: العث، ص ٣٢٠.

(٣) لسان العرب: ابن منظور، مج ٣، ص ٤٢٣.

(٤) تاريخ المكتبات: النشار ص ١٨٧.

في فنٍ أعلى أكثرهما قرآناً أو حديثاً، فإن استويا فبجلالة المصنّف، فإن استويا فأقدمهما كتابةً وأكثرهما وقوعاً في أيدي العلماء والصالحين، فإن استويا فأصحهما»<sup>(١)</sup>.

ونلاحظ من هذا الكلام القرب بين عمليتي التصنيف والتنضيد، فالتصنيف يعني توزيع الكتب حسب المواضيع في الخزانة، والتنضيد هو كيفية توزيع الكتب على الخزانة على أفضل وجه، للحفاظ عليها وعلى سلامتها، وتنظيمها.

ونلاحظ أنّ الكتب كانت تنضد على أساس فلسفي دقيق، حيث يراعى فيها منزلة العلم الذي يحتويه الكتاب، وكذلك منزلة المؤلف وبما أنّ أشرف الكتب وهو كتاب الله عز وجل فهو أكثر كتاب في الخزانة نال الأهمية الأولى مع الاهتمام بباقي الكتب، ويقول ابن جماعة عن تنضيد الكتب حسب حجمها حفاظاً على سلامتها من أن تقع أو تعوج: «ولا يضع ذوات القطع الكبيرة فوق ذوات القطع الصغيرة، كيلا يكثر تساقطها»، وبهذه العملية يحفظ سلامة الخازن ورواد المكتبة من أن تقع عليهم<sup>(٢)</sup>، ولولا هذا الاهتمام بالكتب لما استمرت الكتب التي ألفت في العصر المملوكي إلى هذا العصر.

---

(١) تذكرة السامع: ابن جماعة، ص ١١٨. المعيد في أدب المفيد والمستفيد: عبد الباسط بن موسى بن محمد العلمي (ت ٩٨١هـ = ١٥٧٣م)، الناشر: المكتبة العربية، دمشق، ط ١، ص ١٣١.

(٢) تذكرة السامع: ابن جماعة، ص ١١٨. المعيد في أدب المفيد: العلمي، ص ١٣١.

## ثالثاً: التجليد والترميم

يعتبر التجليد من أهم الإجراءات في الحفاظ على الكتب، وهذه العملية لم تولد في العصر المملوكي بل كانت سابقةً له، وما هو معروف عند العرب أنهم أخذوه من الأقباط في مصر، وكانت بداية الكتابة تكون على أوراق البردي، وقد استخدم البردي أيضاً في تجليد الكتب الصغيرة، وكذلك استخدموا الخشب في تجليد الكتب الكبيرة، وقد استخدم البردي كذلك كمجلد رئيسي بعد استخدام الورق في الكتابة<sup>(١)</sup>.

وفي القرن الثالث الهجري التاسع ميلادي استخدم المجلد في فن التجليد، وهذا العامل ساعد بشكل كبير على تطوير هذه الصناعة، وفي القرن الرابع الهجري العاشر ميلادي استخدم اللسان في الجلد، وكانت وظيفة اللسان لتغطية أطراف الورق، وكذلك يستفاد منه لتحديد الموضوع الذي يصل إليه القارئ في عملية القراءة، وكانوا يحافظون على الكتب بتبطينها بالورق والحريز والقماش، وكانوا يزودون الجلود بالرسوم والزخارف النباتية والهندسية<sup>(٢)</sup>.

ولقد قام المماليك بتطوير هذا الفن وخاصة في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، ومما يدل على ذلك آلاف الكتب التي هي بين أيدينا حالياً، وقلما يكون هناك كتاب غير مجلد<sup>(٣)</sup>، وقد كانت هناك أسواق خاصة للتجليد سميت بسوق المجلدين للكتب، وقد اعتاد كبار المجلدين أن ينقشوا أسماءهم على أغشية المخطوطات أو السنة التي جلدوا

(١) المخطوط العربي: عبد الستار الحلوجي، ط٢ (١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م)، الناشر: مكتبة مصباح، السعودية،

جدة، ط٢ (١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م)، ص٢٣٣ - ٢٣٦ - ٢٣٨.

(٢) المخطوط العربي: عبد الستار الحلوجي، ص٢٤٠ - ٢٤١.

(٣) المخطوطات الدمشقية: إياد خالد طباع، الناشر: الهيئة العامة السورية للكتاب (١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م)،

ص١٦٩ - ١٧١. وثيقة جمال الدين الإستاذار: رقم ١٠٦، محفظة ١٧. وثيقة رقم ٨٨٠ أوقاف. وثيقة المؤيد

شيخ: رقم ٩٣٨ أوقاف. وثيقة جوهري الالالا: رقم ١٠٢١ أوقاف. وثيقة فرح بن برقوق: رقم ٦٦، محفظة ١١.

وثيقة الغوري: رقم ٨٨٣ أوقاف، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص١٩٠.

فيها<sup>(١)</sup>، وعندما دخل السلطان العثماني سليم الأوّل دمشق أخذ علماء التجليد إلى عاصمته استانبول، فتعلم الأتراك هذا الفن وأبدعوا فيه<sup>(٢)</sup>.

ومن الذين عملوا بهذه الصنعة، عمر بن محمد بن إبراهيم الكتبي (ت ٨٤٤هـ = ١٤٤٠م)<sup>(٣)</sup>، ومظفر الكتبي الذي كانت له خبرة تامّة بترميم المصاحف الرثّة<sup>(٤)</sup>، ومحمد بن إبراهيم الكتبي الحلبي (ت ٨٥٢هـ = ١٤٤٨م)<sup>(٥)</sup>، وسالم بن محمد بن محمد سالم القرشي القاهري الكتبي (ت ٨٧٦هـ = ١٤٧١م)<sup>(٦)</sup>، ومحمد بن أحمد علي الإبياري المعروف بابن السدار (ت ٨٨٤هـ = ١٤٧٩م) الذي جمع بين الكتابة والتجليد والتذهيب<sup>(٧)</sup>، ومحمد بن محمد بن أحمد الأزهري وهو أيضاً ممن جمع بين التجليد والتذهيب والكتابة<sup>(٨)</sup>.

وبالإضافة للتجليد كان هناك الترميم الذي يعد من مهام أمين المكتبة، وذلك لأنّ الكتب والمكتبات بحاجة بين الحين والآخر إلى ترميمها، لأنّها ليست من الأمور المتجددة، بل هي من الأمور التي تتلف مع الوقت، وبحاجة إلى ترميم ويكون ذلك من الرطوبة أو كثرة الاستخدام وغيرها، فهي بحاجة بين الحين والآخر إلى الصيانة والتجليد والترميم، والوثائق تدلّ على أنّ من مهام أمين المكتبة القيام بترميم الكتب والمكتبة.

---

(١) العلوم العملية: عمر رضا كخالة، ص ٢٧٩.

(٢) المخطوطات الدمشقية: طباع، ص ١٦٤.

(٣) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٦، ص ١١٥.

(٤) العلوم العملية في العصور الإسلامية: عمر رضا كخالة، ص ٢٧٨.

(٥) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٦، ص ٢٧٤.

(٦) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٣، ص ٢٤٢.

(٧) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٧، ص ٢٢.

(٨) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٩، ص ٦.

ومن هذه الوثائق وثيقة أزبك من ططخ حيث يقول: «على أن يتولى أجزاء الكتب المذكورة ونفضها من الغبار وتعهدتها كالعادة وصورها عما يفسدها»<sup>(١)</sup>، وكذلك وثيقة فرج بن برقوق: «على أن يتولى حفظها ونفضها ويتفقد أحوالها بالإصلاح ووضعها بمواضعها بالخزانة المرصدة»<sup>(٢)</sup>، ووثيقة حسام الدين لاجين: «بصونها وينظفها ويمسح الغبار عليها»<sup>(٣)</sup>، وفي نصّ وثيقة ربعة بكتمر الساقى: «وشرط الواقف أن لا تخرج من التربة المذكورة ولا تعار ولا تخرج إلا للإصلاح»<sup>(٤)</sup>، وقد ذكر السبكي الترميم عندما تحدث عن مهام خازن الكتب في دار الحديث الأشرافية: «وحقّ عليه الاحتفاظ بها، وترميم شعنها، وحبكها، عند احتياجها للحبك»<sup>(٥)</sup>، وكذلك وثيقة الإيشادي: «وعلى خازن المذكور... ترميم كراريس الكتب وأوراقها من عند نفسه، هذا إن كان له قدرة على ذلك»<sup>(٦)</sup>، وكذلك يقول «ويصرف من الربيع لترميم الكتب المذكورة»<sup>(٧)</sup>.

ولكن كيفية هذا الترميم لم تذكر في العصر المملوكي، ولا بدّ أنّهم قد استفادوا من الذين سبقوهم، فيذكر ابن خلكان عن سعيد بن المبارك بن علي المعروف بابن الدهان النحوي (ت ٥٦٩ = ١١٧٣ م) بأنّ كتبه قد غرقت مرتين فتلّفت، وكان قد أفنى عمره في تحصيلها،

(١) وثيقة أزبك من ططخ: رقم ١٩٨، محفظة ٣١، دار الوثائق، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٩١.

(٢) الوثائق والعمارة: صالح لمعي مصطفى، ص ٢٩.

(٣) وثيقة السلطان حسام الدين لاجين: رقم ١٧، محفظة ٢، دار الوثائق، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٩٢.

(٤) ربعة بكتمر الساقى، رقم ٧٢ مصاحف، دار الكتب المصرية، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٩٢. تاريخ المكتبات: النشار، الملحق الأول، لوحة رقم ٣، ص ٢٦٥.

(٥) معيد النعم، السبكي، ص ٩٠.

(٦) وثيقة الإيشادي: رقم ٢٧٨، محفظة ٤٣، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٩٢.

(٧) وثيقة الإيشادي: رقم ٢٧٨، محفظة ٤٣، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٩٢.

فعندما نُقلت إليه من بغداد إلى الموصل: «أشاروا عليه أن يطيبها بالبخور ويصلح منها ما أمكن، فبخرها باللاذن، ولازم ذلك إلى أن بخرها بأكثر من ثلاثين رطلاً لا ذناً، فطلع ذلك إلى رأسه وعينه فأحدث له العمى وكف البصر..»<sup>(١)</sup>.

وهذه العملية تؤكّد أنّ عملية الترميم كانت قد سبقت عصر المماليك، وأنّ المماليك لا بدّ أنّهم قد عرفوها ولكن هل استخدموا غيرها؟ فالمصادر لا تُسعفنا على إيضاح هذا الأمر، ولكن لا بدّ أنّهم استخدموا طريقةً ما لإصلاح الكتب، ففي عصرهم كانت المكتبات والحوادث كثيرة، ولا بدّ من ترميم هذه الكتب، وكان من يقوم بهذه المهمة هم المجلّدون وإن لم يكن قد خصّص لها مكان محدد، ولكنّ هذا الأمر يعكس المكانة التي تحتلها الكتب والمكتبات في حياتهم<sup>(٢)</sup>، ويمكن أن نضيف النسخ أنّه من عملية الترميم حيث إذا تُلف أحد الكتب قد يقوم بتجديد الذي تُلف من خلال النسخ وتبديل الكتاب بنسخة منه.

---

(١) وفيات الأعيان: ابن خلكان، ج ٢، ص ٣٨٢-٣٨٣.

(٢) المخطوط العربي: عبد الستار الحلوجي، ص ٢٤٥.

## رابعاً: مواعيد فتح المكتبات

يتّضح من دراسة المصادر الخاصة بالعصر المملوكي ولاسيّما الوثائق الخاصة بالمكتبات ومؤسّساتها أنّ مواعيد فتح المكتبات لم يكن موحداً، بل كان يختلف من مؤسّسة إلى أخرى، وذلك حسب شروط الواقف، ونشير أولاً إلى أنّ دار العلم في الموصل كانت تفتح أبوابها كلّ يوم<sup>(١)</sup>، ففي بلاد الشام ليس بين يدينا ما يوضّح هذا الأمر، ولكن كانت المدرسة الأحمديّة بحلب في العصر العثماني تفتح أبوابها أربعة أيّام من كلّ أسبوع، وهي أيّام الأحد والاثنين والثلاثاء والخميس، والمكتبة العثمانية تفتح أبوابها يومي الاثنين والخميس من كلّ أسبوع، وكانت المكتبات في العصر العباسي قد سبقتهم في اتخاذ هذه الطريقة، والحقيقة أنّ المكتبات التي كانت تسمح بالإعارة الخارجية يكون توقيت فتحها أقلّ من المكتبات التي لا تسمح إلاّ بالإعارة الداخلية<sup>(٢)</sup>.

أمّا في مصر فتذكر وثيقة الغوري على سبيل المثال أنّها تفتح أبواب المكتبة في أيّام محدودة: «ويفتح الخزانة أيّام الدروس يومين في الجمعة لطلبة العلم»<sup>(٣)</sup>، ووثيقة جوهر اللّالا تحدّد الأيام التي تفتح أبوابها فيها<sup>(٤)</sup>، ووثيقة برقوق تبين أنّ مهام خازن المكتبة تجري: «في كلّ يوم من أيّام الأسبوع خلال يومي الثلاثاء والجمعة»<sup>(٥)</sup>، وعند ما تحدث السبكي عن النسخ في المدرسة الاشرفية بدمشق ذكر أنّهم: «يجتمعون في خمس ليال ولهم أن يبتدئوا بعد صلاة

(١) معجم الأدباء: ياقوت الحموي، ج ٣، ص ١١٤ - ١١٥.

(٢) دور الكتب العربية: العشي، ص ٣٨٥ - ٣٨٦.

(٣) وثيقة الغوري: رقم ٨٨٣، أوقاف، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٩٨.

(٤) وثيقة جوهر اللّالا: رقم ٨٥، محفظة ١٤، محكمة، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٩٨.

(٥) وثيقة برقوق: رقم ٥١، محفظة ٩، محكمة، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٩٨.

الظهر»<sup>(١)</sup>، وهذا يدلنا على أنّها كانت تفتح أبوابها خمسة أيام في الأسبوع، وهناك مكاتب كانت تفتح أبوابها كلّ يوم مثل المدرسة المحمودية، حيث أنّ الإمام أبا حجرٍ كان يفتح أبوابها يومياً للاطلاع والقراءة والنسخ والاشتغال بالعلم الشريف<sup>(٢)</sup>، وكذلك تدلّ الأخبار عن النقاش الذي كان يدور في تلك المكتبات على أنّها لم تكن تغلق في أوقات محدّدة لكنّها تكون تبعاً للظروف، وبما أنّ الخازن من العلماء فبقاؤه في المكتبة شبه دائم للبحث والقراءة وغيرها، فذلك يفتح المجال لغيره من الرواد والمستفيدين للبقاء في المكتبة طول فترة بقاءه في المكتبة<sup>(٣)</sup>.

وعلى الأغلب أنّ فترة فتح المكتبات تكون من طلوع الشمس حتّى غروبها، كما في مكتبي المدرسة الجمالية الأستدارية والمدرسة الناصرية<sup>(٤)</sup>، وكذلك وثيقة القاضي يحيى أشارت إلى أنّ فتح المكتبة في كلّ يوم من بعد طلوع الشمس حتّى قبيل الغروب<sup>(٥)</sup>، وأمّا المدرسة الصرغتمشية كانت تفتح أبوابها ليلاً ونهاراً، أي بشكل دائم حيث أنّ هناك مخطوطات كان من ضمن محتوياتها «ليتنفعون بذلك للاشتغال والكتابة ليلاً ونهاراً»<sup>(٦)</sup>، ومن خلال ما سبق نستدلّ على أنّه لا يوجد توافق في وقت فتح المكتبات ولكن على الأغلب كان فتحها من طلوع الشمس حتّى غروبها.

---

(١) فتاوى السبكي: الإمام أبي الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي (٦٨٣ - ٧٥٦هـ) = (١٢٨٤ - ١٣٥٥م)، تحقيق: حسام الدين القدسي، الناشر، دار الجليل، بيروت، ط١ (١٤١٢هـ = ١٩٩٢م)، ج٢، ص١١١.

(٢) تاريخ المكتبات: النشار، ص١٩٨.

(٣) الوقف وبنية المكتبة العربية: ساعاتي، ص١١٦.

(٤) وثيقة جمال الدين يوسف الأستدار: رقم ١٠٦، محفظة ١٧، محكمة. وثيقة بن برقوق: رقم ٦٦، محفظة ١١، محكمة، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص١٩٩.

(٥) وثيقة القاضي يحيى زين الدين: رقم ١١٠، محفظة ١٧، محكمة، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص١٩٩.

(٦) تاريخ المكتبات: النشار: ص١٩٩.





## خامساً: الخدمات المكتبيّة ( الاطلاع الداخلي - الإعارة الخارجيّة )

قال الخطيب البغدادي في كتابه «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» عن سفيان الثوري أنّه قال: «من بخل بعلمه ابتلي بثلاث: إمّا أن ينساه ولا يُحفظ، وإمّا أن يموت ولا ينتفع به، وإمّا أن تذهب كتبه»<sup>(١)</sup>، وهذا ما حصل لإبراهيم بن أحمد بن حسن بن الفرس الدمشقي (ت ٨٨٨هـ = ١٤٩٩م)، ويقول عنه السخاوي: «من الكتب والأجزاء وتصانيف شيخه ما لم ينتفع به وعطلّ على غيره الانتفاع بها، لعدم سماحه بإعارتها حسبما استفيض عنه، حتّى نقل عنه أنّه كان يقول إذا عانيت الموت ألقيتها في البحر» وبعد موته أخذها الناس بأبخس الأثمان<sup>(٢)</sup>.

ولابدّ من الذكر أنّ هناك من أساء في إعارة الكتب، مثلاً هناك كتابٌ موقوفٌ في المدرسة العمريّة في دمشق مكتوب عليه: «هذا الكتاب عند الفقير عبده تعالى رمضان بن موسى الحنفي عارية من الكتب الموقوفة بمدرسة أبي عمر»<sup>(٣)</sup>، وهذا يدلّ على أنّ الكتاب كان عنده، ولم يكن يرغب في إعادته إلى المكتبة.

وكان البعض منهم يكره أعارة الكتب مثل أبي العتاهية، حيث قال له رجل: «أعربي كتبك، فقال: إنّي أكره ذلك، فقال أما علمت أنّ المكارم موصولة بالمكاره فأعاره»<sup>(٤)</sup>،

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي أبو بكر (٣٩٢-٤٦٣هـ) = (١٠٠٢ - ١٠٧١م)، تحقيق: محمود الطحان، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض (١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م)، ج ١، ص ٢٤٠.

(٢) الضوء اللامع: السخاوي، ج ١، ص ١٢ - ١٣.

(٣) دور لكتب العربية: العش، ص ٤٠٦.

(٤) تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم: ابن جماعة، ص ١٦٦.

وفطيس عبد الرحمن بن محمد، كان إذا ألحَّ عليه أحد المستعيرين كان يدفع الكتاب المطلوب إلى الناسخ فينسخه، ثمَّ يسلمه لطالبه<sup>(١)</sup>.

ومن الذين يسمحون بإعارة كتبهم، صالح بن عمر بن رسلان القاضي شيخ الإسلام البلقيني (ت ٨٦٨هـ = ١٤٦٣م) وقد كان سمحاً بإعارة الكتب<sup>(٢)</sup>، وقد كان يستعير الكتب من مكتبة المدرسة المحمودية<sup>(٣)</sup>، وكذلك يحيى بن محمد بن محمد المناوي القاهري (ت ٨٧١هـ = ١٤٦٦م)<sup>(٤)</sup>، وقد كان يستعير أيضاً الكتب من مكتبة المدرسة المحمودية<sup>(٥)</sup>، وقد كان الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي (ت ٧٤٣هـ = ١٣٣٣م) «يعير كتبه لأهل البلد وغيرهم من أهل البلدان من يعرف ومن لا يعرف»<sup>(٦)</sup>، وكذلك سليمان بن يوسف بن مفلح الياسوفي (ت ٧٨٩هـ = ١٣٨٧م) فقد كان يُعين الطلبة وخاصةً «أهل الحديث على مقاصدهم بجاهه وكتبه وماله»<sup>(٧)</sup>.

وكانت هناك بعض المكتبات تُوقف عليها بعض الكتب للإعارة فقط، أو لها المرتبة الأولى من حيث الأهمية، حيث تذكر وثيقة أحد كتب اللغة أنه: «وقف على سائر المسلمين، مقره

(١) دور الكتب العربية: العرش، ص ٤٠٦.

(٢) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٣، ص ٣١٢-٣١٣.

(٣) بذل المجهود في خزانة محمود: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ) = (١٤٤٥-١٥٠٥م)، مكتبة المصطفى الألكترونية: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com).

(٤) الضوء اللامع: السخاوي، ج ١٠، ص ٢٥٤. حسن المحاضرة: السيوطي، مج ١، ص ٣٧٢.

(٥) بذل المجهود في خزانة محمود: السيوطي.

(٦) الدرر الكامنة: ابن حجر، ج ٢، ص ١٥٦.

(٧) الدرر الكامنة: ابن حجر، ج ٢، ص ٢٦١-٢٦٢.

بالمدرسة الجوزية بدمشق المحروسة، ينتفع به من له به حاجة، ثم يرده إليها»، وهذه العبارة تنصّ على أنّه مخصص للإعارة الخارجية<sup>(١)</sup>.

وعن حسين بن علي بن سالم البدر الفوي القاهري الكتبي (ت ٨٩١هـ = ١٤٨٦م) تكتسب بسوق الكتب، وكان يسمح بإعارة كتبه لرفقائه<sup>(٢)</sup>، وقد أفرد الخطيب البغدادي في كتابه «تقييد العلم» فصلاً في ذكر الإعارة وأصولها وآدابها وتحسينها وذمّ البخل في ذلك<sup>(٣)</sup>.

وقد كان هناك شروط للإعارة لتنظيم هذه العملية، حيث يمكن للمستعير إتلاف الكتب عندما يكون بعيداً عن نظر الخازن، حيث لا يسمح بالإعارة إلا لمن يعرفون بالمحافظة على الكتب المعارة<sup>(٤)</sup>، ويقول ابن حجر الهيتمي «ينبغي للمستعير أن يشكر للمعير ذلك ويجزيه خيراً ولو بالدعاء، وليردّ الكتاب بعد فراغ حاجته أو عند طلب مالكة، ولا يجوز أن يصلحه بغير إذن صاحبه أي بقيده السابق، ولا يُجشّيه شيئاً في مغاضن فواتحه وخواتمه إلا إذا علم رضا صاحبه، ولا يسوّده ولا يُعير غيره ولا يودعه لغير ضرورة، حيث يجوز شرعاً، ولا ينسخ منه بغير إذن صاحبه إذ مطلق الاستعارة لا تتناول النسخ إلا إذا قال له المالك لتنتفع به كيف شئت، ولا بأس بالنسخ من موقوف على من ينتفع به غير معين، ولا بإصلاحه ممن هو أهل لذلك، وحسن أن يستأذن ناظره، ولا ينسخ منه والقرطاس بباطنه وعلى كتابته، ولا يضع المحبرة

---

(١) دور الكتب العربية: العث، ص ٤٠٠.

(٢) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٣، ص ١٤٩-١٥٠.

(٣) تقييد العلم: أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي أبو بكر، الناشر: دار إحياء السنة النبوية، ط ٢ (١٣٩٤ = ١٩٧٤م)، تحقيق: يوسف العث، ص ١٤٦-١٥٠.

(٤) المعيد في أدب المفيد والمستفيد: العلموي، ص ١٣٠.

عليه، ولا يَمَرّ بالقلم الممدود من الخبر فوق كتابته، وإذا نسخ منه أو طالع فيه فلا يضعه في الأرض مفروشاً منشوراً بل يجعله بين شيعين أو على كرسي لئلا ينقطع حبه»<sup>(١)</sup>.

ولقد قامت الوثائق المملوكية بتبيان الخدمة الخارجية، فإنّ الإعارة الخارجية لم تترك بدون قيود، لتنظيم المكتبة وتحسينها من جهة، والمحافظة على الكتب من الضياع من جهة أخرى، وقد ذكرت الوثائق هذا الأمر، منها وثيقة السلطان فرج بن برقوق: «... أنه من حضر إليه يطلب شيئاً من ذلك فإن كان أهلاً لمطالعة ذلك، والاشتغال به، وكان من أهل المكان وممن يوثق به، دفعه إليه، وأخذ منه، فإذا أعاده إليه، دفع إليه خطه ولا يمكنه من التأخير مدة بعيدة يخشى منها حصول النسيان، بل يتعهد بالسؤال وأخذ ما أخذه منه فإذا طلب غيره أجابه ذلك، وفعل كما فعل أولاً وإن كان الطالب من خارج المكان لا يعطيه شيئاً من ذلك»<sup>(٢)</sup>.

وهذه الوثيقة تثبت عدّة شروط وهي:

- ١- أنّ الإعارة الخارجية تكون على طلاب المدرسة وعلمائها، وهذا ما عبّرت عنه من خلال مصطلح «أهل المكان» وأمّا غيرهم فله الاطلاع الداخلي والنسخ فقط.
- ٢- أن يكون المستعير أهلاً لمطالعة ما يستعار من الكتب، لأنّه على المكتبة أن لا تمدّ القارئ بما يريد فقط، بل لا بدّ من أن يكون هناك توجيه، لما يمكن أن يستفيد منه، وهذا ما يتحدث عنه خبراء المكتبات بنظريتي الإعداد والتوجيه.

(١) الفتاوى الحديثة: ابن حجر الهيتمي، ص ١٦٣. المعيد في ادب المفيد: العلمي، ص ١٣١.

(٢) وثيقة فرج بن برقوق: رقم ٦٦ محفظة ١٦ محكمة، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٢٠٤.

٣- أن يكون المستعير أهل ثقة وأمانة، ذلك لأنّ الكتب التي كانت موجودة مخطوطة وبعضها نادرة.

٤- تسجيل اسم المستعير وتوقيعه، وهذا عبّرت عنه الوثيقة بمصطلح: «أخذ خطه منه».

٥- متابعة الكتب المعارة بالسؤال عنها إذا تأخر المستعير عن ردّها.

وأما مكتبة الإبشادي تطلب تسجيل اسم المستعير والكتاب المعار في سجلّ خاصّ، حيث تقول إنّ على المعير أو الخازن: «كتابة اسم من يطلب منه كراساً ويأخذه منه ثمّ إنّ أعاده مسح اسمه بجزر يشتره من عند نفسه»<sup>(١)</sup>، ووثيقة جمال الدين الإستادار حدد بها أن يكون من أهل الخانقاه، وأن يكون ثقة وأميناً، وأن يكون معروفاً للخازن، ولم تكن مدّة الإعارة تتجاوز الشهر حيث تنصّ الوثيقة على ما يلي: «من حضر من طلبة العلم الشريف من أهل الخانقاه المذكورة لاستعارة شيء من الكتب المذكورة يشتغل فيه سلمه إليه، إن كان ثقة، وإن كان ممن يخشى منه منعه إلا أن يضمه ثقة من أهل الخانقاه المذكورة، ولا يقر شيئاً من الكتب المستعارة بيد المستعير أكثر من شهر واحد من حين استعارته، بل يأخذه منه بعد مضي الشهر»<sup>(٢)</sup>.

وللحفاظ على كتب المكتبة من عدم إرجاعها أو المماثلة في إرجاعها وضعت الرهون، ويقول السبكي عند ذكره للخازن: «وكثيراً ما يشترط الواقف ألا يخرج الكتاب إلا برهن يجرز قيمته، وهو شرط صحيح معتبر»<sup>(٣)</sup>، ومن الكتب التي كانت موقوفة بالضيائية الكثير من

(١) وثيقة الإبشادي: رقم ٢٧٨، محفظة ٤٣ محكمة، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٢٠٥.

(٢) وثيقة جمال الدين الإستادار: رقم ١٠٦، محفظة ١٧، محكمة، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٢٠٦.

(٣) معيد النعم: السبكي، ص ٩٠.

الرسائل، ويظهر على إحداها أنّ الواقف اشترط أن لا تباع أو تورث أو تعار إلا برهن يحفظ القيمة<sup>(١)</sup>، وهناك وقفية أخرى للحديث موقوفة في الضيائية تذكر أنّه «لا يعار إلا برهن، فإن أعير بغير رهن فكفارته رده إلى مقره بعد قضاء الحاجة منه»<sup>(٢)</sup>.

وبسبب اختلاف الفقهاء على صحة عملية الرهن، تساهل بعض الفقهاء بأخذ الرهن<sup>(٣)</sup>، وهي عملية لاسترداد الكتب من قبل المستعير<sup>(٤)</sup>، ولتجنب الجدل النظري في هذه المسألة استعمل بعض الواقفين كلمة تذكرة، بدون كلمة رهن، أي الشيء المودع ليذكر بشيء آخر، وقد وافق الفقهاء على هذه العملية<sup>(٥)</sup>، فاشترط ابن الحاجب في أحد كتبه ألا يخرج إلا بتذكرة حسنة<sup>(٦)</sup>، وكذلك على إحدى الأجزاء من السيرة النبوية التي أوقفه عز الدين بن الحاجب عمر بن محمد بن منصور (ت ٦٣٠هـ = ١٢٣٢م) ما نصّه: «وقف مؤبد وحبس محرم حارم على طلبه العلم، بشرط ألا يخرج من مقره إلا بتذكرة حسنة»<sup>(٧)</sup>.

وقد يجعل الراهن الرهن ضعفي الكتاب حتى يسمح بالإعارة لمن يرغب بذلك، ففي مكتبة ابن البزوري اشترط أن تكون قيمة الرهن تساوي ضعفي قيمة الكتاب<sup>(٨)</sup>، وقد أوقف الحافظ ضياء الدين محمد رحمه الله، كتاباً وشرط أن يكون بمدرسته بجبل الصالحية، ولا يعار إلا

(١) مجموع ١٠٨ (٣)، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٢٤٩.

(٢) الظاهرية، حديث ٢٩٧، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٢٥٠.

(٣) معيد النعم: السبكي، ص ٩٠.

(٤) حاشية إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين لشرح قرّة العين بمهمات الدين: محمد شطا الدميّاطي

(ت ٩٧٨هـ = ١٥٧٠م)، الناشر: دار الفكر، بيروت، ج ٣، ص ١٧٢.

(٥) دور الكتب العربية: العش، ص ٤٠٣.

(٦) الظاهرية، ميموع ٩٧ (١)، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٤٠٤.

(٧) مجموع ٩٧ (١١). دور الكتب العربية: العش، ص ٢٥٢.

(٨) الظاهرية، التاريخ ٦٦، التصوف ١١٨، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٤٠٤.

برهن حافظ للقيمة، ولا يخرج إلى بلد ولا قرية أخرى سوى دمشق<sup>(١)</sup>، وكذلك أوقف الحافظ ضياء الدين أبي عبد الله، كتاباً واشترط أن لا يعار إلا برهن يحفظ القيمة، ولا يعار إلى غير دمشق والجليل<sup>(٢)</sup>، وهذا يدل على أنه كانت هناك إعارة خارج حدود البلد التي تكون فيه المكتبة.

وقد اشترط ابن البزوري على من يستعير أي كتاب من وقفه أن يقرأ سورة الفاتحة مرةً واحدةً وسورة الإخلاص ثلاث مرّات، يهبها لروح الواقف ووالديه<sup>(٣)</sup>، بينما اكتفى محمد بن قوام الحنفي (ت ٨٣٨هـ = ١٤٣٤م) بأن يدعو الله بالمغفرة للواقف ووالديه وجميع المسلمين<sup>(٤)</sup>، وهناك وقفية للحديث موقوفة في الضيائية تذكر، «لا يعار إلا برهن، فإن أعير بغير رهن فكفارته رده إلى مقره بعد قضاء الحاجة منه»<sup>(٥)</sup>، ونلاحظ هنا أنّ ثمن إعارة الكتب كان رمزياً جداً، ومن المحتمل أنّ عبارة شروط الوقف كانت تعبّر عن عملية الإعارة أيضاً.

وكانت هناك طريقة أخرى للإعارة وهي بكفالة شخص، حيث ذكر تاج الدين الحسيني في وقفياته «لا يخرج هذا المجلد لا برهن ولا بكفيل»<sup>(٦)</sup>، ووثيقة جمال الدين الإستادار تنصّ على ما يلي: «من حضر من طلبة العلم الشريف من أهل الخانقاه المذكورة الاستعارة شيء من الكتب المذكورة يشتغل فيه سلمه إليه، إن كان ثقة، وإن كان ممن يخشى منه، منعه إلا أن يضمه ثقة من أهل الخانقاه المذكورة، ولا يقر شيئاً من الكتب المستعارة بيد المستعير أكثر من

(١) حديث ٢٠، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٢٤٧.

(٢) مجموع (١) ١١٤، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٢٤٧.

(٣) انظر المخطوطات التالية في الظاهرية: تاريخ ٦٦، تصوف ١١٧، أصول الفقه ٤٢، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٣٢٥.

(٤) انظر مخطوط الظاهرية: حديث ١١٢، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٣٢٥.

(٥) الظاهرية، حديث ٢٩٧، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٢٥٠.

(٦) الظاهرية، الحديث ١٤٨، الفقه الشافعي ٢، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٤٠٤.



شهر واحد من حين استعارته، بل يأخذه منه بعد مضي الشهر»<sup>(١)</sup>، ويمكن للمستعير إن أعاد الكتاب أن يستعير غيره<sup>(٢)</sup>.

ومن المكتبات التي اشترطت للإعارة الخارجية مكتبة المدرسة الأشرفية شعبان بن حسين، «أن لا يخرج من المكان المذكور إلا برهن يجرز قيمته»<sup>(٣)</sup>، وكذلك مكتبة أم السلطان خوند بركة حيث تذكر نصّ الوقفية: «شرط أن لا يخرج من المكان المذكور إلا برهن يجرز قيمته»<sup>(٤)</sup>.

وكان هناك أيضاً مكتبات منعت الإعارة الخارجية منعاً باتاً لا برهن ولا بغيره، ومن هذه المكتبات، مكتبة المدرسة الصرغتمشية فقد وجد على بعض الكتب التي قام بوقفها صرغتمش «ليتنفعون بذلك في الاشتغال والكتابة منه ليلاً ونهاراً حيث لا يخرج من المدرسة المذكورة ولا يباع ولا يرهن ولا يوهب ولا يبدل ولا يغير»<sup>(٥)</sup>، وهنا نستدلّ على عملية خطيرة وهي احتمال قيام بعض المكتبات بوهب أو تبديل أو تغيير الكتب الموجودة في المكتبة، وكذلك وثيقة الجمالي يوسف تذكر بأنّه على الخازن إخراج الكتب لمن يريد المطالعة أو النسخ داخلها، ولا يخرج شيئاً من ذلك من المدرسة لا برهن ولا بغيره<sup>(٦)</sup>، وأمّا المؤيد شيخ فقد كان في وثيقته

---

(١) وثيقة جمال الدين الإستاذار: رقم ١٠٦، محفظة ١٧، محكمة، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٢٠٦.

(٢) المعيد في أدب المفيد: العلمي، ص ١٣١.

(٣) مصحف السلطان الأشرف شعبان، رقم ٩ مصاحف، دار الكتب المصرية. النشار، ص ٢٠٦. تاريخ المكتبات: النشارة ملحق أول، لوحة رقم ٧، ص ٢٦٩.

(٤) مصحف خوند بركة، رقم ٦ مصاحف، دار الكتب المصرية، انظر تاريخ المكتبات: النشار ص ٢٠٦.

(٥) ريعه صرغتمش، رقم ١٥٠ مصاحف، دار الكتب المصرية، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٢٠٧. تاريخ المكتبات: النشار، ملحق الأول، لوحة رقم ١، ص ٢٦٣.

(٦) وثيقة الجمالي يوسف: رقم ١٠٥، محفظة ١٦، محكمة، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٢٠٧.

ما نصّه: «ولا يخرج من الجامع المذكور كتاباً في علم ولا أكثر منه مطلقاً»<sup>(١)</sup>، ووثيقة الغوري تذكر ما نصّه: «ومن طلب منه كتاباً في علم من العلوم أو فن من الفنون يدفعه له فينتفع به في المدرسة ولا يمكنه من الخروج به من المدرسة ولو دفع إليه شيئاً يساوي أضعاف قيمته، فإذا انتفع كلّ منهم بما طلبه في نسخ منه أو مطالعة فيه أو مقابلة عليه بالمدرسة رده الخازن إلى الخزانة»<sup>(٢)</sup>.

وهناك من لم يمنع الإعارة الخارجية فقط، بل حدّد من الاطلاع الداخلي أيضاً، وذلك على من عُرف عنه الإهمال والتفريط، حيث تنصّ وثيقة الإبشادي على أنّه: «لا يخرج من ذلك شيئاً من الأشياء من الجامع الأزهر برهن ولا بغيره، ولا يعطى من ذلك شيئاً لمن يعرف فيه التفريط»<sup>(٣)</sup>.

ولقد كان الهدف من هذا الحرص على الكتب هو الحرص على مقتنيات المكتبة، وذلك لإفادة أكبر قدر من طلبة العلم الذين يترددون عليها، أو لقيمتها العلمية، ولندرة وجودها، وقلة نسخها هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان في عصر المماليك من كان مولعاً في جمع الكتب بأي وسيلة كانت، حيث يذكر السخاوي عند ذكره ابن شحنة أنّه كان: «عظيم العناية بتحصيل الكتب ولو بالغضب والجحد، حتّى أنّه كان سبب في منع ابن شيخه البرهان عارية كتب أبيه أصلاً إلّا في النادر خوفاً منه» ويقول أيضاً: «ولقد توسل بي عنده القاضي علم الدين في ردّ ما استعاره منه وخازن الحمودية وغيرها، مع ضياع شيء كثير لي عنده وعند أصغر ابنه»<sup>(٤)</sup>، ويقول السخاوي عن محمد بن محمد الكناني القاهري المعروف

(١) وثيقة المؤيد شيخ: رقم ٩٣٨ أوقاف، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٢٠٧.

(٢) وثيقة الغوري: رقم ٨٨٣ أوقاف، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٢٠٧.

(٣) وثيقة الإبشادي: رقم ٢٧٨ محفظة ٤٣، محكمة، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ٢٠٧.

(٤) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٩، ص ٢٩٥ - ٣٠١.

بابن القطان (ت ٨٧٩هـ = ١٤٧٤م) وقد عرف عنه: «سوء عاريتة للكتب الملك والوقف، حيث لا يستعيد المعير منه ذلك إلا بمشقة كبيرة، وقد أخذ البلقيني بعد وفاته خمسمائة مجلد من كتبه وضاع للناس عنده من ذلك أشياء»<sup>(١)</sup>.

ويذكر السخاوي عن محمد بن إبراهيم القمي الازهري الذي كان خازن كتب المؤيدية: «كتب بخطه أشياء ونُسب إليه تفريط في بعض كتب المؤيدية»<sup>(٢)</sup>، ولقد كانت إباحة الاعارة الخارجية أو منعها مشكلة لدى القراء والباحثين في عصر المماليك.

ولقد درس هذه القضية السيوطي (ت ٩١١هـ = ١٥٠٦م) في رسالة «بذل المجهود في خزانة محمود»، وحاول من خلالها أن يسمح بإعارة الكتب، وأن يفسر هذه الشروط التي وضعها الواقف بما يسمح بإعارة الكتب لمن هم جديرون بالحفاظ على الكتب، وقد حاول أن يسمح بإعارة الكتب ولو كانت مخالفة لشروط الواقف، واستند في ذلك على أربعة أوجه، فيها اثنان ضعيفان، ووجه حسن حيث أن بعض الأئمة أجاز مخالفة شروط الواقف إذا كانت المصلحة تتطلب ذلك، والوجه الآخر هو أن نية الواقف كانت المحافظة على الكتب، وهذا ما منعه من عدم السماح بإعارة الكتب إلى الخارج، ولكن إذا كانت في أيدٍ أمينةٍ محافظةٍ عليها وتصونها فلا مانع من السماح بالإعارة الخارجية، ولم يترك السيوطي الأمر هكذا ولكن وضع شروطاً للإعارة وهي:

١- إذا كان الكتاب غير موجود في غير هذه المكتبة أي المحمودية فلا ينبغي إعارته، وهذا الشيء يطبق على باقي المكتبات.

٢- أن لا يبقى الكتاب عند المستعير إلا بقدر حاجته للقراءة أو النسخ<sup>(١)</sup>.

(١) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٩، ص ٢٤٨ - ٢٥٠.

(٢) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٦، ص ٢٥٢.

وبما أنّ الهدف الرئيس للمكتبة هي الإفادة فلا بدّ أولاً أن يستفاد منها في نظام الإعارة، وعندما تكون الإعارة الخارجية ممنوعة يسمح فقط لنزلاء المكتبة، مثل المدرسة المحمودية حيث يذكر المقرئ أن فيها خزانة كتب: «لا يعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلها، وهي باقية إلى اليوم لا يخرج لأحدٍ منها كتاب إلا أن يكون بهذه المدرسة»<sup>(٢)</sup>، وقد توكلت عملية الإعارة إلى الخازن فهو الذي يعرف بظروف المكتبة، والفائدة التي تسمح له بعملية الإعارة، كما نصت وقفية ابن الحاجب على المدرسة الضيائية في أحد كتبه: «أن تترك للخازن إمكانية إعارته، إذا رأى في ذلك فائدة»<sup>(٣)</sup>.

والإعارة الخارجية في المكتبات الشبه عامة نادرة، أمّا المكتبات العامة فقد كانت أكثر شيوعاً، فقد كان ياقوت الحموي يحتفظ في بيته بمئتي مجلد أو أكثر، وقد استعارها بدون رهن من مكتبة المدرسة الضيائية<sup>(٤)</sup>، وكذلك قبل أن يغادر الإمام النووي (ت ٦٧٦هـ = ١٢٧٧م) من دمشق أعاد الكتب التي كان قد استعارها<sup>(٥)</sup>.

وبقيت إعارة الكتب مشكلة المكتبات الخطيرة سواءً أكانت طويلة أم قصيرة<sup>(٦)</sup>، وذلك لأنّه لا توجد عقوبة شرعية على الذين لا يولّون الكتب اهتمامهم، ولولا ذلك لما أوجد الفقهاء عملية الرهن والتذكرة، ولا بدّ من أنّ هذا التشديد وضع لكي لا تضيع الكتب، مثل منع تاج

---

(١) بذل المجهود في خزانة محمود: السيوطي.

(٢) خطط المقرئ: مج ٤، ج ٢، ص ٥٩٢.

(٣) دور الكتب العربية: العث، ٣٣٥.

(٤) دور اكتب العربية: العث، ص ٤٠١ - ٤٠٢.

(٥) دور الكتب العربية: العث، ص ٤٠٢.

(٦) الظاهرية، التاريخ ٦٢، النحو ١٥٤، انظر دور الكتب العربية: العث، ص ٤٠٦.

الدين الحسيني لإعارة الكتب لا برهنٍ ولا بكفيل<sup>(١)</sup>، وقد لازم جلال الدين محمد بن سعد الدين القزويني، الذي قدم دمشق زمن تنكز (ت ٧٤١هـ = ١٣٤٠م) المكتبة العامة المشهورة في دمشق (٢)، لأنّ الإعارة الخارجية فيها كانت ممنوعة<sup>(٣)</sup>.

---

(١) الظاهرية، حديث ١٤٨ والفقهاء الشافعي ٢، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٤٠٧.

(٢) دور الكتب العربية: العش، ص ٣٩٥.

## الفصل الخامس: البنية التحتية والنظام الإداري للمكتبات

## أولاً: الموقع ومواصفاته

من المعروف أنه لا بدّ من توفر مواصفات معينة لموقع المكتبة لكي تقوم بمهامها على أكمل وجه، وقد كانت المكتبات المملوكية تحتلّ مكاناً متوسطاً ومناسباً من بناء المدرسة بين الإيوانات الأربع التي بها مساكن الطلبة، وبهذه الطريقة يسهل الوصول إليها، وتذكر وثيقة السلطان برسباي الدقماقي للمدرسة الأشرفية بالحريرين: «والقاعة التي بالدهليز الكبير جعلها محلاً لخزانة الكتب الوقف التي وقفها على طلبة العلم بالجامع المعين أعلاه»<sup>(١)</sup>، وتذكر وثيقة فرج بن برقوق ما نصّه: «بالجانب الشرقي باب يدخل منه إلى بيت بمنافع وحقوق وهو معد لوضع المصاحف والربعات الشريفة وكتب العلم»<sup>(٢)</sup>، ووثيقة عبد الغني الفخري تقول: «ويصدره (أي الدهليز الكبير) يدخل منه إلى خزانة برسم خزن الكتب، والإيوان الغربي يشتمل على خزانتين برسم الكتب وغيرها...»<sup>(٣)</sup>.

وقد تكون الخزانة في إيوان القبلة، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في وثيقة حسن بن قلاوون من أنّ: «...الإيوان القبلي منه [من المصلى] جعله أيضاً لإقامة الخطبة... وجعل البيت الذي على يمينة المصلى فيه مرصداً للخطيب على العادة فيه، وجعل الخزانة المقابلة له لخزن ما عساه أن يكون بالمكان المذكور من المصاحف والربعات الشريفة والكتب على جارى العادة في ذلك»<sup>(٤)</sup>، وهنا الكلام واضح بأنّ خزانة الكتب قد تكون في القبلة، أمّا خزانة الفخر ابن المالكي الشافعي محمد بن عمر بن عبد الكريم الإمام فخر الدين الحميري الدمشقي

(١) وثيقة برسباي: رقم ٨٨٠ أوقاف، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١١٦.

(٢) الوثائق والعمارة: صالح لمعي مصطفى، ص ٢٥.

(٣) وثيقة الأمير عبد الغني الفخري: رقم ٧٢، محفظة ١٢، دار الوثائق (المحكمة الشرعية)، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١١٦.

(٤) تذكرة النبيه: ابن حبيب، ج ٣، الملحق، ص ٣٨٨.

(ت ٦٤٣هـ = ١٢٤٥م) فكانت تجاه محراب الصحابة<sup>(١)</sup>، وكذلك مكتبة تاج الدين الكندي كانت موضوعة في مقصورة الحلبيين<sup>(٢)</sup>، وقد تكون مكان المحراب، فقد صلى العماد الحنبلي إبراهيم بن عبد الواحد (ت ٦١٤هـ = ١٢١٧م) إماماً للحنابلة مقابل خزاني كتب في الجامع الأموي، وحينما جُمعت بُني مكأتهما محراب، ولما أُعيدتا إلى مكأتهما الأول، وضعتا على جانب المحراب<sup>(٣)</sup>، وهذا يدل على الحرص على أن تكون قريبة من متناول أيدي العلماء والباحثين وطلاب العلم.

وقد اتُخذت بعض المدارس إيوانات أخرى كمقار لمكتباتها، ولكن مع ذلك بقي مكان المكتبة بشكل عام متوسطاً للمدرسة، مثل مدرسة القاضي يحيى زين الدين كانت بالإيوان الشمالي الغربي، وتذكر وثيقة وقفه: «... الإيوان البحري وبه أربعة أبواب متقابلة... والرابع يقابله عليه زوجا باب يدخل منه إلى خزانة الكتب»<sup>(٤)</sup>، ومكتبة المدرسة الإستادارية التي بناها الأمير جمال الدين يوسف الإستادار فكانت تعلو السباط<sup>(٥)</sup> الذي يربط بين المدرسة وحوض الدواب كما في وثيقة وقفه التي تنص: «... خازناً لما بالخانقاه المذكورة من الربعات الشريفة والمصاحف وكتب العلم الشريفة وما لعله يتحصل بها من نفائس الأشياء على العادة في مثل

---

(١) الوافي بالوفيات: الصفدي، ج ٤، ص ١٨٤.

(٢) الوافي بالوفيات: الصفدي، ج ١٥، ص ٣٣.

(٣) الذيل على الروضتين: أبو شامة، ص ١٠٤ - ١٠٦.

(٤) وثيقة القاضي يحيى زين الدين: رقم ١١٠ محفظة ١٧، دار الوثائق، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١١٧.

(٥) السباط أو الساباط: هي السقيفة بين حائطين أو بين دارين ومن تحتها طريق نافذ، وجمعها سوابيط أو

ساباطات. لسان العرب: ابن منظور، مج ٧، ص ٣١١.



ذلك على أن يتسلم المصاحف والربعات والكتب الجارية الوقف ويشهد عليه بتسلمها ويقرها بالإيوان العالي على السباط»<sup>(١)</sup>.

وإذا لم يكن في المؤسسة حياة عامّة اختير للمكتبة قاعة من البناء يناسب اتّساعها أهميّة تلك المكتبة<sup>(٢)</sup>، فمكتبة المدرسة الرواحية كانت تقوم في قاعة مقابل الدهليز الكبير من جهة الغرب<sup>(٣)</sup>، وفي المدرسة الضيائية القاعة المقابلة للمسجد<sup>(٤)</sup>، وعندما لا تحتاج الكتب إلى غرفة خاصّة بها لظرف ما، تُهيأ لها خزانة أو عدّة خزائن في مكان مألوف أو جميل، مثل البيمارستان النوري في دمشق، حيث كانت فيه خزانتان للكتب، وضعتا على الجدار في مكانٍ بارزٍ بالإيوان الكبير، وكان الطلاب يأتون إلى هاتين الخزانتين مع أستاذهم للاستماع إلى الدروس والمراجعة<sup>(٥)</sup>، وقد كانت خزانة الكتب لحفظ الكتب فقط، وقد كانت الإيوانات بالمدرسة تقوم فيها الأعمال المكتبية من بحث ونسخ وقراءة، لذلك كانت توضع الخزانة في الإيوان القبلي أو في مكان متوسط من المدرسة، ليسهل تناولها من قبل جميع الراغبين في الاستفادة منها، كما أنّ إيوان القبلة عادةً قريب من سكن الطلبة، فيسهل عليهم الوصول للخزانة<sup>(٦)</sup>.

ولتوفير أكبر قدر ممكن من الراحة والهدوء والبعد عن الضوضاء وللإستفادة بشكل أكبر، اختير مكان المكتبة في العادة في الإيوان القبلي، وذلك لارتفاعه عن أرضية الشارع،

---

(١) وثيقة جمال الدين الإستاندار: رقم ١٠٦ محفظة ١٧، دار الوثائق، نشر ودراسة وتحقيق: محمد عبد الستار عثمان، ص ١٦٣، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١١٨. خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ٢، ص ٦٣٦.

(٢) دور الكتب العربية: العش، ص ٣٥٤.

(٣) الذيل على الروضتين: أبو شامة، ص ١٤٩. دور الكتب العربية: العش، ص ٣٥٤.

(٤) القلائد الجوهريّة: ابن طولون، ج ١، ص ١٣٩ - ١٤٠.

(٥) دور الكتب العربية: العش، ص ٣٥٤-٣٥٥.

(٦) تاريخ المكتبات: النشار، ص ١١٨.

والبعد عن دورات المياه، والرطوبة، والمقابر، والمدافن<sup>(١)</sup>، ومن الطبيعي أن تكون حجم خزانة الكتب حسب الكتب الموجودة فيها وأهميتها، وحسب المؤسسة التابعة لها، وقد تكون غرفة صغيرة، وإذا نمت الخزانة وكبرت وضافت بما تحتوي، كانت تستخدم غرفة أخرى لاحتواء الكتب<sup>(٢)</sup>.

وقد تكون المكتبة مجرد دولاب واحد أو أكثر، وكان ذلك يتم باستخدام الحائط، وعمل دخلات فيه على شكل دواليب، ولذلك استخدم عليها لفظ كتيبات<sup>(٣)</sup>، وكانت أمر الدواليب قد استخدم بكثرة في الخزانات الخاصة والترب والخلاوة، وكذلك في بعض مكتبات المساجد والمدارس والخوانق، ولعل ذلك يفسر لنا ذكر مصطلح خزانتين أو ثلاث... الخ، إذ يقول ابن تغري بردي: عن الشيخ ناصر الدين شافع بن علي الكنايني العسقلاني (ت ٧٣٣هـ = ١٤٣٢م) أنه: «خلف ثمانى عشرة خزانة»<sup>(٤)</sup>، وتذكر وثيقة حسن بن قلاوون: «باب يدخل إلى مكان بصدرة محراب وخزانتان كتيبتان، وعلى يسرة السائر فيه بابان يدخل كل منهما إلى بيت به شباك مطل على الطريق يقابلهما خزانتان كتيبتان»<sup>(٥)</sup>، ونصت وثيقة الغوري عن الخانقاه: «وبها ثمان كتيبات متطابقة وخلوة برسم المصحف والربعات الشريفة»<sup>(٦)</sup>.

(١) وثيقة السلطان برسباي: رقم ٨٨٠ أوقاف، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١١٨.

(٢) وثيقة السلطان برسباي: رقم ٨٨٠ أوقاف. وثيق الغوري: رقم ٨٨٣. أوقاف، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١١٩. دور الكتب العربية: العرش، ص ٢٩٨.

(٣) وثيقة الأمير أخور كبير قراقاجا الحسني: دراسة وتحقيق ونشر: عبد اللطيف إبراهيم، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، مج ١٨، ديسمبر ١٩٥٦، ص ٢٢٦، تحقيق ٤، رقم ١٨، وما به من مصادر، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١١٩.

(٤) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ٩، ص ٢٠٧.

(٥) وثيقة السلطان حسن بن قلاوون: رقم ٨٨١ أوقاف، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١١٩.

(٦) وثيقة الغوري: رقم ٨٨٣ أوقاف، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٢٠.

وقد بقيت الخزانة تستأثر بسبب أهميتها بأكبر قاعة في البناء نسبياً، كما في بيمارستان قلاوون، حيث خصّص للمكتبة أوسع غرفة، وكانت أحسن ما في البناء هندسياً، وقد كانت الغرفة التي تعلوها القبّة، ومن الطبيعي أن تكون الغرفة الرئيسة التي يعقد فيها الاجتماعات الرسمية<sup>(١)</sup>، وقد كانت مكتبة المدرسة العادلية بدمشق في غرفةٍ فسيحةٍ، بالمجلس الكبير في صدر الإيوان، وهو الموضع الذي يجلس فيه غالباً للفتوى وغيرها، ومنه يخرج للصلاة في المدرسة<sup>(٢)</sup>، وتعقد فيها الاجتماعات العامة للمشاورات<sup>(٣)</sup>، وهكذا نلاحظ حرص أصحاب المؤسسات على أن تتمتع المكتبة بكافة الامتيازات في ذلك الوقت لإراحة مراجعيها.

---

(١) دور الكتب العربية: العرش، ص ٣٥٤. خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ٢، ص ٦٩٧.

(٢) دور الكتب العربية، العرش، ص ٢٣٥.

(٣) دور الكتب العربية: العرش، ص ٣٥٤، الروضتين في أخبار الدولتين: أبو شامة، ج ٢، ص ٢٦٤.

## ثانياً: الأثاث والأدوات الخاصة بحفظ الكتب

لقد اهتمّ المماليك بأثاث المكتبات والأدوات الخاصة بحفظ الكتب وصيانتها لتسهيل استخدامها وتداولها، وذلك حرصاً على راحة رواد المكتبة، وهذه التجهيزات تشمل البسط والحصر والفرش والستور والصناديق والرفوف المستخدم في حفظ الكتب، وكراسي الكتب وأدوات الكتابة كالأقلام والأحبار والأوراق وغيرها.

وبما أنّ المكتبة هي مكان للمطالعة والنسخ فيجب أن تكون مريحة وتفرش أرضيتها بالبسط أو الحصر، وقد كانت دار العلم بمصر مفروشة، وكان بها خدام وفرّاشون، وكانوا يعلّقون على جميع أبوابها وممراتها الستور، وكان بها ما يحتاجه النساخ من الحبر، والأقلام، والورق، والمحابر، وقد يكون هناك فرش خاصة للشتاء وفرش خاصة للصيف، حيث يقول المقرئ عن دار العلم في عصر الفاطميين: «ومن ذلك لثمن لبود للفرش في الشتاء خمسة دنانير، ومن ذلك لثمن طنفس في الشتاء أربعة دنانير»<sup>(١)</sup>، وقد جلبت المياه إلى بنائها، وقد حُدّد لذلك اثنا عشر ديناراً<sup>(٢)</sup>، وربما خُصّص لذلك نبع ماء للوضوء والشرب، كما كان في مشهد عروة<sup>(٣)</sup>، وكذلك كانت توجد بدار العلم أوراق للنساخ، وقد حُدّد لها تسعون ديناراً لشرائها<sup>(٤)</sup>، ويذكر المقرئ عن المدرسة الإقبغاوية: «فعمل بسطاً على قياسها بلغ ثمنها ستة آلاف درهم فضة»<sup>(٥)</sup>، وهذا من أجل الجلوس على الأرض أو ما يسمى بالجلسة العربية أو الشرقية.

(١) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٢، ص ٥٠٢.

(٢) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٢، ص ٥٠٣.

(٣) الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج ١، ص ٦٢.

(٤) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٢، ص ٥٠٣.

(٥) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ٢، ص ٥٤٤.

ومن أجل الحفاظ على الكتب وسلامتها وصيانتها استخدمت المكتبات ما يسمّى بكرسي الكتب، الذي يستخدمه الناسخ أو المطالع، من أجل عدم وضعه على الأرض<sup>(١)</sup>، حيث أوقف الإيشادي على مكتبة الجامع الأزهر ثلاثة كراسي<sup>(٢)</sup>، وكذلك استخدم في بعض المكتبات سلماً خشبياً مروحياً لإحضار الكتب من على الرفوف المرتفعة وإرجاعها إلى مكانها<sup>(٣)</sup>.

وكان الفرّاشون يقومون بتعليق الستائر أو السحابة من القماش السميك على دور قاعة المؤسسة في الصيف، لتخفيف شدة الحرارة والغبار، ويرفعونها في الشتاء لكي تصل أشعة الشمس إلى المؤسسة للتدفئة، ومن الطبيعي أن يكون هذا سائراً على المكتبة أيضاً بما أنّها جزءاً أساسياً من المؤسسة<sup>(٤)</sup>.

وبالإضافة إلى الكتيبات والدوايب التي ذكرناها استخدمت المكتبات المملوكية الصناديق، وكانت صناديق الكتب من الخشب أو الخشب المصفح بالنحاس المكّت بالذهب والفضة، وكانت بعض هذه الصناديق الخاصّة بالمصاحف والربعات الشريفة تقسّم من الداخل لوضع أجزاء الربعات فيها، وعلى الأغلب يكتب عليها اسم السلطان أو الأمير وألقابه على جوانب الصندوق بألوان مختلفة وخاصّة بالذهب، وقد ذكر المقرئزي سوق لهذه الصناديق، حيث تصنع فيه الصناديق وخزائن الكتب وتباع<sup>(٥)</sup>.

---

(١) تذكّرة السامع والمتكلم: ابن جماعة، ص ١١٧.

(٢) وثيقة الإيشادي: نشر: عبد اللطيف إبراهيم، ص ٤٥، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٢٣.

(٣) تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٢٥.

(٤) وثيقة الغوري: رقم ٨٨٣ أوقاف، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٢٤.

(٥) تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٢٤. خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٣، ص ٣٣٩.

وقد استخدمت أيضاً في بعض المكتبات رفوف خشبية حائطية، لكي توضع الكتب فيها، ويقول ابن جماعة: «وإذا وضعها في مكان مصفوف فلتكن على كرسي أو تحت خشب أو نحوه، والأولى أن يكون بينه وبين الأرض خلوة، ولا يضعها على الأرض كيلا تتندى أو تبلى»<sup>(١)</sup>، وكانت هذه الرفوف تساعد في عملية استخراج الكتب، ومن هذه المكتبات التي استخدمت الرفوف الخشبية، مدرسة القاضي يحيى زين الدين، حيث تنص وثيقة وقفه: «خزانة كتب بها رفوف خشب برسم الكتب الموقوفة بالجامع المذكور»<sup>(٢)</sup>، وكذلك مكتبة صلاح الدين الأيوبي في دمشق مرتبة في خزائن ذات رفوف<sup>(٣)</sup>، وقد كان في جامع حلب رفر<sup>(٤)</sup>.

ومن أجل النسخ والخطّاطين الذين يقومون بعملهم في المكتبة فقد حوت هذه المكتبات على الحبر والأقلام والورق والمساطر والبراكر<sup>(٥)</sup> والدوي<sup>(٦)</sup>، وهي لعملية النسخ<sup>(٧)</sup>، ويذكر السبكي: «يصرف في شراء ورق آلات النسخ من مركب وأقلام ودوي وكراسي ونحو ذلك ما يقع به الكفاية لمن ينسخ في الايوان الكبير أو قبالتة»<sup>(٨)</sup>، ولا بدّ من تواجد أدوات لعملية التجليد والحبك والترميم والصيانة، لعملية المحافظة على سلامة الكتب، التي كانت من

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم: ابن جماعة، ص ١١٧.

(٢) وثيقة القاضي يحيى زين الدين: رقم ١١٠، محفظة ١٧، دار الوثائق، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٢٥.

(٣) دور الكتب العربية: العشي، ص ٣٥٩.

(٤) ولعلّ هذه الرفوف لخزن الكتب، كنوز الذهب: ج ١، ص ٢٢٢.

(٥) البراكر: جمع بركار وهي آلة ذات ساقين ترسم بها الدوائر وتعرف بالبيكار. تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٢٦.

(٦) الدوي: جمع دواة ويقال لها المحبرة وهي الأنية التي تجعل بها الحبر من خزف أو قوارير. لسان العرب: ابن منظور، مج ١٤، ص ٢٧٩.

(٧) دور الكتب العربية: العشي، ص ٢٩٩.

(٨) فتاوى السبكي: ج ٢، ص ١١٠.

واجبات خازن الكتب، حيث يقول السبكي عند حديثه عن مهام الخازن: «وحقّ عليه الاحتفاظ بها، وترميم شعنها، وحبكها عند احتياجها للحبك»<sup>(١)</sup>.

وكذلك كان يوجد هناك الثبت أو ما يسمى بالسجل، لتسجيل ما في المكتبة من الكتب، وهو يستخدم في عملية الجرد أيضاً<sup>(٢)</sup>، وأغلب الكتب التي وصلت إلينا من العصر المملوكي توجد عليها تواريخ وأختام، فلا بدّ من وجود أدوات لهذه العملية، حيث توجد على الكتب أختام مختلفة منها المستدير ومنها البيضاوي ومنها المربع، وبعضها كبير الحجم، وبعضها صغير الحجم<sup>(٣)</sup>.

أمّا فيما يخصّ حجم الخزائن فقد كان هناك خزانات مختلفة، أمّا ما هو معروف ارتفاعها يكون بقامة رجل، وعرضها ثلاث أذرع<sup>(٤)</sup>، وهذا القياس مناسب لعملية الاستخدام عند تناول الكتب وعند استرجاعها، وفي نقل الخزائن، وكذلك الكوات التي تحفر ضمن الجدران السميكة، في غرفة أو غرف مخصّصة للكتب، أي تكون بدل الخزائن الخشبية وتسمّى بيوت الكتب<sup>(٥)</sup>، وقد كانت خزانة الكتب بالمدرسة الظاهرية بحلب على شكل الكوات، وقد كانت

---

(١) معيد النعم ومبيد النقم: السبكي، ص ٩٠.

(٢) دور الكتب العربية: العث، ص ٣٣٩-٣٤٣. تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٢٧.

(٣) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٢، ص ٣٥٧. المخطوطات الدمشقية: طباع، ص ٤٤١-٤٤٤. تاريخ المكتبات: النشار، الملحق الأول، ص ٢٦٣-٢٧٣.

(٤) دور الكتب العربية: العث، ص ٣٥٦.

(٥) دور الكتب العربية: العث، ص ٣٥٨.

لها أبواب لغلقتها، وكانت هذه الأبواب مزينة بكتابات مناسبة<sup>(١)</sup>، وكان الخشب هو المادة الوحيدة التي كانت الخزائن تصنع منها، وقد كانت خزائن مسجد منكوبغا من الخشب<sup>(٢)</sup>.  
وقد تستخدم المكتبات أدوات للإضاءة وخاصة في المكتبات التي تفتح بالليل، مثل المدرسة الصرغتمشية كانت تفتح أبوابها ليلاً ونهاراً، أي بشكل دائم حيث أنّ هناك مخطوطات كان من ضمن محتوياتها «لينتفعون بذلك للاشتغال والكتابة ليلاً ونهاراً»<sup>(٣)</sup>.

---

(١) دور الكتب العربية: العث، ٣٥٨.

(٢) دور الكتب في حلب قديماً وحديثاً: الطباخ، ج ١٥، ٣١٤.

(٣) تاريخ المكتبات: النشار: ص ١٩٩.



## ثالثاً: إيرادات المكتبة

وهي ما يدخل إلى المكتبة من موارد، وما يخرج منها، وكانت من أهم وسائل دعم المكتبة هي عملية الوقف، ومن الأمثلة على ذلك البيمارستان المنصوري قد بلغ ريع الأوقاف الخاصة ألف دينار كل يوم، ومن الطبيعي أن يصرف قسم منه على المكتبة<sup>(١)</sup>، ويذكر السخاوي أنّ الفائض من ريع أوقاف البيمارستان في سنة (٨٥١هـ = ١٤٤٧م) بلغ حوالي أربعة عشر ألف دينار بعد ما يقارب قرنين على إنشائه<sup>(٢)</sup>، فقد كان هذا البيمارستان في اليوم يستقبل أربعة آلاف مريض، وكان يقدم الأشربة والأكحال واللبوس<sup>(٣)</sup>.

ومدرسة السلطان حسن بن قلاوون بلغ جملة المصروفات الخاصة بأرباب الوظائف حوالي ستة وأربعين وخمسمائة وخمسين درهماً (٥٥٠ و ٤٦) شهرياً وكلها تكون من الوقف<sup>(٤)</sup>، وكذلك بلغ جملة الأراضي الزراعية التي وقفها الأمير سودون من زادة على مدرسته حوالي (٢٦١٦) فدّاناً، ويضاف إليها بستاناً للأشباب، وكذلك أرض للبناء مساحتها ألفاً ذراع<sup>(٥)</sup>، ومدرسة الأمير علاء الدين طيرس حيث أنّه أنفق عليها الكثير، وعندما أحضر إليه مباشرة

(١) رحلة ابن بطوطة: محمد بن عبد الله اللواتي الطبخي، ج ١، ص ٢٠٣.

(٢) التبر المسبوك: السخاوي، ص ١٨٧.

(٣) سعيد زغلول عبد الحميد «ملاحظات عن مصر كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة في القرنين السادس والسابع للهجرة» مقال بمجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مج ٨، ١٩٥٤، ص ١١٠، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٣٠.

(٤) ملحق تذكرة النبيه: ابن حبيب، ج ٣، ص ٣٦٦.

(٥) وثيقة سودون من زادة: رقم ٥٨ محفظة ١٠، دار الوثائق، نشر حسنى نصير، ص ٦٢، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٣٠ - ١٣١.

حساب مصروفاتها، استدعى بطست فيه ماء، وغسل الأوراق وقال: «شيء خرجنا عنه لله تعالى لا نحاسب عليه»<sup>(١)</sup>.

وبما أنّ المكتبة هي جزء من المؤسسة التي تكون فيها، فلا بدّ أن ينالها جزءاً من هذه المصروفات التي تكون للمؤسسة بشكل كامل، ومن خلال عملية الأوقاف والهبات والمبالغ التي تعطى لهذه المؤسسات تكون على الأغلب مصروفات هذه المكتبات الموجودة بهذه المؤسسات، وقد يكون هذا الوقف بستان أو أرض أو حمام أو مخبز... الخ، وهذه الأوقاف تساعد على تسديد مصروفات المؤسسة بشكل كامل ومنها المكتبة.

ويمكن أن نقسّم أوجه الإنفاق على خزائن الكتب إلى قسمين: إحداهما خاص بمرتبات العاملين بالمكتبة، والوجه الآخر خاص بصيانة وترميم بناء المكتبة والكتب وتجهيزاتها وأدواته... الخ.

وفيما يتعلّق بمرتبات العاملين في المكتبة نلاحظ اختلاف بين راتب خازن المكتبة من مؤسسة لأخرى، فلم يكن موحداً عند كلّ المؤسسات وذلك وفقاً لمركز الخازن وسمعته والعمل الموكّل إليه، وكذلك لا بدّ أن يكون حسب ميزانية المكتبة، أي حسب مقدار ريع الوقف السنوي، حيث تذكر وثيقة حسن بن قلاوون أنّه: «... يرتب رجلاً يحافظ على ما عساه أن يكون بالخزانة التي بالمكان المذكور من ختمات شريفات وربعات كتب يتولى حفظها وصونها وفعل ما جرت عادة أمثاله في مثل ذلك، ويصرف له في كلّ شهر مائة درهم واحدة نقرة»<sup>(٢)</sup>،

---

(١) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٤، ج ٢، ص ٥٤٠.

(٢) وثيقة السلطان حسن بن قلاوون: رقم ٨٨١ أوقاف، نشر محمد أمين، ص ٤٠٦، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٣٢. والدرهم النقرة: هي نوع من النقود يكون ثلثها من فضة وثلثها من نحاس وتطبع بدور الضرب بالسكة السلطانية. صبح الأعشى: القلقشندي، ج ٣، ص ٥٠٩ - ٥١٠.

ولخازن دار الحديث الأشرافية ثمانية عشر درهما في كلِّ شهر، وعليه الاهتمام بترميم الكتب، وإعلام الناظر ونائبه ليصرف فيه من فعل الوقف ما يفي بذلك<sup>(١)</sup>، وفي مسجد الناصرية في حلب يتقاضى عشر ليرات<sup>(٢)</sup>، وفي المسجد المؤيدي ينال أربعين نصفاً وأربعة أرتال من الخبز في اليوم<sup>(٣)</sup>، ونلاحظ هنا أنّها قد تكون نقدية وعينية مثل أخذ الخبز، ومن الأمثلة على ذلك أيضاً وثيقة السلطان قايتباي المحمودي التي تنصّ: «في كل يوم من الخبز الموصوف أعلاه رطلان»<sup>(٤)</sup>، وهذا ما عدا راتبه الشهري، حيث تذكر نفس الوثيقة: «... ويصرف لرجل من أهل الخير والدين والأمانة يكون خازناً للكتب... مائتي درهما»<sup>(٥)</sup>.

وكان هذا الراتب ضئيلاً فنجد بعض الخزنة عمل عملاً آخر مثل خازن المؤيدية، حيث كان يتولّى الخطابة أيضاً، وكان يُعطى على عمله هذا مئة نصف، وهذا الراتب مضاف إلى راتبه على وظيفة خازن<sup>(٦)</sup>، وكذلك خازن مسجد قايتباي في الصحراء كان يتقاضى مثل راتب القارئ وهو مئتا درهم نحاس، وهو مثل نصف راتب الإمام والخطيب تقريباً<sup>(٧)</sup>، وهنا نلاحظ أنّ راتب الخازن قد ارتفع، ففي عصر السلطان برسباي الدقماقي كان ينال الخازن ثلاثمئة درهم<sup>(٨)</sup>.

وكذلك كانت عملية شراء الكتب من مصروفات المكتبة، وقد ذكرنا عملية شراء الكتب سابقاً، ونكتفي هنا بذكر أنّ جمال الدين الاستادار اشترى خزنة القاضي برهان الدين

(١) فتاوى السبكي: السبكي، ج ٢، ص ١٠٩.

(٢) دائرة الأوقاف، سجل ١ / ٢٥، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٣٧٣.

(٣) دور الكتب العربية: العش، ص ٣٧٣.

(٤) وثيقة قايتباي المحمودي: رقم ٨٨٦ أوقاف، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٣٤.

(٥) تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٣٤ - ١٣٥.

(٦) دائرة الأوقاف، سجل ١ / ٩١، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٣٧٤.

(٧) دائرة الأوقاف، سجل ١ / ٧٠، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٣٧٤.

(٨) وثيقة برسباي: أوقاف ٨٨٠، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٧٤.

بن جماعة<sup>(١)</sup>، وحُصِّص مبلغ مئة نصف ليصرف على الكتب الموقوفة في مسجد كتخدا بالقاهرة<sup>(٢)</sup>.

وكذلك كان هناك راتب للناسخ حيث تذكر وثيقة برسبائي: «ويصرف للشيخ شرف الله موسى المكتب الرمي في كل شهر من الشهور من الفلوس المذكورة ثلاثمائة دراهم أو ما يقوم مقامها من النقود وفي كل يوم من الخبز ثلاث أرطال»<sup>(٣)</sup>، وللناظر أن يستنسخ للوقف أو يشتري ما تدعو الحاجة إليه من الكتب والأجزاء<sup>(٤)</sup>، وفي دار الحديث الأشرفية يذكر السبكي: «ويصرف في شراء ورق وآلات النسخ من مركب وأقلام ودوي وكراسي ونحو ذلك ما يقع به الكفاية لمن ينسخ في الإيوان الكبير أو قبالته الحديث أو شيئاً من علومه أو القرآن العظيم أو تفسيره ويصرف إلى من يكتب في مجالس الإملاء وإلى من يتخذ لنفسه كتباً أو استجازة»<sup>(٥)</sup>، وعندما تحدّث السبكي عن النساخ ذكر: «يجتمعون في خمس ليال ولهم أن يتدثوا بعد صلاة الظهر وللناظر أن يتخذ لهم طعاماً وله أن يجعل بدل الطعام كلّ ليلة ما يتم وله أن يشتري ما يليق من شمع وعود يبخّر به وكيزان وثلج ونحو ذلك وله أن يتخذ في شهر رمضان طعاماً أو يفرّق عوضاً عنه ألف درهم بالسوية على جميع أهل الدار من المرتبين والساكنين وذلك إذ رأى في فعل الوقف اتساعاً»<sup>(٦)</sup>.

---

(١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ج ١، ص ٣٩ - ٤٠. إنباء الغمر بأبناء العمر: ابن حجر العسقلاني، ج ١، ص ٢٩٣.

(٢) دور الكتب العربية: العث، ص ٣٨٢.

(٣) وثيقة برسبائي: رقم ٨٨٠ أوقاف، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٧٤.

(٤) فتاوى السبكي: السبكي، ج ٣، ص ١١١.

(٥) فتاوى السبكي: السبكي، ج ٢، ص ١١٠.

(٦) فتاوى السبكي: السبكي، ج ٢، ص ١١١.

ونرى هنا أنّ هناك أدوات للنسخ ومصروفات للناسخ تقوم المكتبة بتأمينها على حسابها، وللناظر في دار الحديث الأشرفية: «أن يشتري به ملكاً يقفه على الجهات المتقدمة وله أن يستفضل شيئاً من المغل لذلك وإذا رأى فض الفاضل على أهل الدار أصلح كان له - أي الموظفين»<sup>(١)</sup>، وهذا يدلّ على أنّه كان هناك تدرّج من حيث الرواتب للموظفين.

وهناك تدرّج أيضاً حسب الأهمية، فعندما لا تكفي العائدات ففي هذه الحالة يُضحى عموماً بالأشياء الزائدة من أجل الضرورية<sup>(٢)</sup>، فلا تنفق إلا في الضرورة القسوة، ونلاحظ الحرص على أن تُعطى رواتب بعض الموظفين مهما كانت الظروف، حيث يذكر السبكي: «ومهما كان في مغلّ نقص حيث لا يفي بجميع الجهات المذكورة فليجعل النقص في الأمور الزائدة دون الأصلية المهمة وليكمل للمؤذن والقيم والخازن والبواب والقارئ والشيخ وقراء السبع وطبقة المشتغلين ويخصّ بالنقص والحرمان والسامعون»<sup>(٣)</sup>، ونرى هنا أنّ الخازن كان من الذين يأخذون الراتب مهما كانت الظروف، فهو كان مفضّلاً على غيره، وذلك بسبب أهمّية عمله، لأنّ توقّف عمله يضّرّ بعمل المكتبة أكثر من غيره من الموظفين، وإن بقي قسم من العائدات يصرف في النفقات العامّة<sup>(٤)</sup>.

ويقول السبكي: «إذا مسّت الحاجة إلى تصحيح كتاب ومقابلته ويصرف إلى شخص يكون مرتّباً ونقيباً ثمانية عشر درهماً، وللشيخ أن يضم إليه في بعض ذلك شخصاً من الجماعة ويزيده على ذلك شيئاً على ما يراه»<sup>(١)</sup>، وفي وثيقة وافية دار الحديث الأشرفية: «وعلى الخازن

(١) فتاوى السبكي: السبكي، ج ٢، ص ١١٣.

(٢) دور الكتب العربية: العرش، ص ٣٨٣.

(٣) فتاوى السبكي: السبكي، ج ٢، ص ١١١-١١٢.

(٤) فتاوى السبكي: السبكي، ج ٢، ص ١١٣.

(١) فتاوى السبكي: السبكي، ج ٢، ص ١٠٩.

الاهتمام بترميم الكتب وإعلام الناظر أو نائبه ليصرف فيه من فعل الوقف ما يفي بذلك وكذا إذا مسّت الحاجة إلى تصحيح كتاب، ومقابلته»، وكذلك «للشيخ الناظر أن يستنسخ للوقف أو يشتري ما تدعو الحاجة إليه من الكتب والأجزاء، ثم يقف ذلك ما في الدار أسوة ما في الدار من كتبها»<sup>(١)</sup>، ويذكر المقرئ عن المدرسة الإقبغوية: «فعمل بُسطاً على قياسها بلغ ثمنها ستة آلاف درهم فضة»<sup>(٢)</sup>، وبما أنّ المكتبة كانت مجهزة من البسط والحصر والستور والصناديق والرفوف وكراسي الكتب وأدوات الكتب، كالأقلام والأحبار والأوراق وغيرها، فكلّ هذا الأثاث غير قابل للتجديد، فلا بدّ من مصاريف لتغييره مع الزمن أو لإصلاحه، فيذكر المقرئ عن دار العلم زمن الفاطميين: «ويكون العشر وثمان العشر لدار الحكمة لما يحتاج إليه في كلّ سنة من العين المغربي: مائتان وسبعة وخمسون ديناراً»<sup>(٣)</sup>، وكذلك أدوات التنظيف والكنس التي أشارت إليها وقفية دار الحديث الأشرفية<sup>(٤)</sup>، وتجدر الإشارة إلى أنّ شراء مثل هذه الأدوات متضمنة في النفقات المخصّصة لصيانة المؤسسة.

ولا لزوم لإضاءة المكتبة باعتبار أنّها لا تُفتح إلا في النهار<sup>(١)</sup>، ولكن بعض المكتبات فتحت أبوابها ليلاً ونهاراً مثل المدرسة الصرغتمشية فلذلك لا بدّ من أدوات للإضاءة لإتمام عملها ليلاً<sup>(٢)</sup>.

---

(١) فتاوى السبكي: السبكي، ج ٢، ص ١٠٩ - ١١١.

(٢) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٤، ج ٢، ص ٥٤٤.

(٣) خطط المقرئ: المقرئ، مج ٢، ص ٥٠٣.

(٤) فتاوى السبكي: السبكي، ج ٢، ص ١٠٩.

(١) دور الكتب العربية: العرش، ص ٣٨١.

(٢) تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٩٩.

## رابعاً: العاملون في المكتبة

ولقيام المدرسة بعملها فلا بدّ من وجود موظفين لهذه المكتبة يديرون أمرها، ويحافظون على المكتبة وما تحتوي عليه من الكتب، ومن أهمّ من يعمل فيها هو خازن الكتب، وقد أوضح السبكي عمله بقوله: «وحقّ عليه الاحتفاظ بها، وترميم شعثها، وحبكها عند احتياجها للحبك، والضنّة بها على من ليس من أهلها، وبذلها للمحتاج إليها، وأن يقوم في العارية الفقراء الذين يصعب عليهم تحصيل الكتب على الأغنياء»<sup>(١)</sup>، وكذلك عليه أن يقوم بحراستها وصونها من السرقة أو الضياع، ويقوم بتنظيم الكتب وترتيبها، وأن يساعد القراء بالاطّلاع عليها، حيث تذكر وثيقة جوهر اللّالا ما نصّه: «.. على أن يتولى خزن الكتب التي بالمدرسة المذكورة ونفضها وحراستها وعمل مصالحتها على العادة...»<sup>(٢)</sup>، وتذكر وثيقة فرج بن برقوق: «... أن يتولى [خازن الكتب] حفظها ونفضها...»، «وعلى أنه من حضر إليه يطلب شيئاً من ذلك فإن كان أهلاً لمطالعة ذلك والاشتغال به وكان من أهل المكان ومن يوثق به دفعه إليه...»<sup>(٣)</sup>.

وكان يجب أن تتوفر فيه عدّة ميزات وصفات، مثل أن يكون أميناً متديناً واسع الاطّلاع، عارفاً بشؤون الكتب<sup>(٤)</sup>، وقد كان يُختار الخازن من أهل الفقه أو عالمٍ تراعى فيه سعة العلم والأمانة<sup>(٥)</sup>، وقد يُشترط على الخازن أن يكون منتمياً لمذهبٍ معيّن، فقد ذكرت وثيقة صرغتمش ما نصّه: «ويرتب الناظر في هذا الوقت شخصاً حنفي المذهب ثقة أميناً ديناً خازناً

(١) معيد النعم ومبيد النقم: السبكي، ص ٩٠.

(٢) وثيقة جوهر اللّالا: رقم ٦٨، محفظة ١٤، دار الوثائق، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٣٨.

(٣) الوثائق والعمارة: صالح لمعي مصطفى، ص ٢٩.

(٤) مصر في عصر دولة المماليك البحرية: سعيد عبد الفتاح عاشور، الناشر: دار النهضة المصرية، ص ١٩٥.

(٥) المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك: سعيد عبد الفتاح عاشور، ص ١٦٢.

للكتب والختمات والربعات الشريفات وغير ذلك بالمدرسة المذكورة»<sup>(١)</sup>، ووثيقة المدرسة البروقية: «... ويرتب الناظر شخصاً من الصوفية المذكورين من أهل الخير والدين خازناً لما يكون بهذه المدرسة من الربعات والختمات الشريفة، وكتب الحديث والعلم وغير ذلك من الكتب»<sup>(٢)</sup>.

وقد استخدمت طريقة أخرى في تعيين خازن المكتبة، حيث أصبحت وراثية أحياناً مثل خازن المؤيدية بالقاهرة، حيث عُيِّن البارزي وكان ينتقي بين أرشد ذريته ليكون خازناً من بعده، ويستطيع أن يعيّن الواقف من يشاء على وقفه<sup>(٣)</sup>، وكذلك من حقّ الواقف إذا مات الناظر الذي عينه على كتبه أن يختار ناظراً آخر<sup>(٤)</sup>، وقد عيّن السلطان الأشرف برسباي بنفسه علي بن أحمد القرشي القلقشندي خازناً لمكتبة مدرسته<sup>(٥)</sup>، وهنا يتّضح أهمية منصب خازن الكتب، حيث أنّ السلطان بنفسه كان يختار الخازن، وقد يختار الواقف أحد أقاربه لمنصب خازن الكتب، حيث تذكر وثيقة جمال الدين الإستاذار: «... وقرر الواقف هذه الوظيفة لشقيقه سيدنا الشيخ الإمام العالم شمس الدين أبي عبد الله محمد ولأولاده وأولاد أولاده وذريته...»<sup>(٦)</sup>، وكذلك قد يكون الخازن من أحد العلماء مثل ابي حجر العسقلاني الذي تولى خزانة الكتب في

---

(١) وثيقة صرغتمش: رقم ٣١٩٥ أوقاف، نشر عبد اللطيف إبراهيم، ص ١٥٢، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٤٠.

(٢) الوثائق والعمارة: صالح لمعي مصطفى، ص ٢٩.

(٣) خطط المقريري: المقريري، مج ٣، ص ٣٤٣. الضوء اللامع: السخاوي، ج ٣، ص ١٣٧.

(٤) عدة أرباب الفتوة في مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النمان: عبد الله أسعد، المطبعة الكبرى الأميرية، القاهرة، (١٣٠٣هـ = ١٨٨٦م)، مخطوط المكتبة الوطنية، رقم: ٤٦٢٨، ص ١٢٧.

(٥) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٥، ص ١٦١.

(٦) وثيقة جمال الإستاذار: رقم ١٠٦، محفظة ١٧، نشر عبد الستار عثمان ص ١٦٤، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٤١.



المدرسة المحمودية، وفي بعض الأحيان كان يتم اختياره بموافقة الطلبة حيث تذكر وثيقة الإيشادي: «... ولا يقرر في ذلك إلا أمثل الفقراء بالجامع الأزهر المتصفين بالصفة المذكورة أعلاه بشرط رضاهم أجمعين واتفاقهم عليه...»<sup>(١)</sup>.

وبما أنّ الخازن فقيهاً بالأمر الدينية التي كانت من الأمور المهمة لتوليّ خزانة الكتب، فهذا الأمر ساعده على أن يتولّى التدريس أيضاً، وقد يكون مدرّساً ويتولّى خزانة الكتب، وفي أغلب الأحيان كان معيداً للدرس، أي أنّه جمع مع وظيفة خازن الكتب وظيفاً أخرى، فقد ذكر المقرئ عن البارزي أنّه كان قد تولى الخطابة أيضاً<sup>(٢)</sup>.

وقد يحفظ الواقف مجموعة كتبه طيلة حياته ثمّ يتركها من بعده للخازن العادي، فقد أوقف محمد بن علي بن عبد العزيز الحرّاني كتباً على المدرسة الضيائية، واحتفظ لنفسه بالنظر عليها مدّة حياته، ثمّ بعده لناظر الخزانة<sup>(٣)</sup>، وكذلك اشترط الموصليّ فيما يخصّ الرسالة المحفوظة بالمكتبة الظاهرية، وهي وقف على الضيائية، منح حقّ النظر عليها إلى شخص ما مدّة حياته، ثمّ إلى الخازن بعد وفاته<sup>(٤)</sup>، وكذلك أوقف رمضان العدري، كتاباً على المدرسة الضيائية، واشترط أن يشرف عليه تقي الدين أبو بكر بن شافع قبل أن ينتقل إلى الخازن للإشراف عليه<sup>(٥)</sup>، ونرى هنا أنّه يوكلّ للإشراف عليه ليس صاحب الكتاب فقط، وإتّما قد يوكلّ إلى شخص ثانٍ للإشراف عليه قبل الخازن.

---

(١) وثيقة الإيشادي: رقم ٢٧٨، محفظة ٤٣، دار الوثائق، نشر عبد اللطيف إبراهيم، ص ٥٢، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٤١.

(٢) خطط المقرئ، المقرئ، مج ٤، ج ١، ص ٣٤٣.

(٣) الظاهرية، مجموع ٢٣ (١)، أصول ٩٢، لغة ٣٥، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٣٦٦.

(٤) الظاهرية، مجموع ٩٧ (١٣)، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٣٦٦.

(٥) الظاهرية، الأصول، ٩٠، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٣٦٦.

وقد يكون الوقف ليس على مكتبةٍ عامّة، بل يبقى عند شخصٍ معين، حيث أوقف إبراهيم بن عيسى بن يوسف المرادي كتباً على من ينتفع بها من المسلمين، وجعل نظرها إلى علاء الدين محمد بن عبد القادر المعروف بابن الصائغ<sup>(١)</sup>، وكذلك إبراهيم بن محمد سعيد الجوخعي قام بتعيين محمد بن عبد الرحمن الكزبري ناظراً على وقفه العام<sup>(٢)</sup>، ولما كان مصير هذه الكتب غير محدد بعد وفاة الأمين عليها، فقد اعتقد الورثة أنّ من حقهم أخذها دون إلحاق الضرر بأحدٍ، ونادراً ما كان هذا الوقف يصل إلى المكتبة العامّة عن طيب خاطر<sup>(٣)</sup>.

وعين الموصلية ناظراً على كتابه المحفوظ في المكتبة الظاهرية<sup>(٤)</sup>، المحدث المشار إليه في علم الحديث عيسى بن تعريف، ومع أنّه أوقف على العمريّة الكتاب المحفوظ في الظاهرية فقد عين ناظراً عليه أعلم وأتقى نزلاء المدرسة<sup>(٥)</sup>، وهكذا نلاحظ أنّه يمكن أن يعين خازنان أحدهما عام للمكتبة، وخازنٌ خاصٌّ وهو يشرف على الكتب التي حُدّدت له للإشراف عليها، وقد وجب على خازن الأشرافية في دمشق الاهتمام بترميم الكتب وتجليدها وإعلام الناظر، وعليه الاهتمام بترميم الكتب وإعلام الناظر ونائبه<sup>(٦)</sup>.

وكانت من مزايا الخازن أنّه جميل الخطّ، فقد كان ينسخ الفهرس أحياناً، وربّما كان ينسخ للمكتبة، وكان يشارك مشاركة فعلية في مقابلة النصوص<sup>(٧)</sup>، وكذلك عليه المحافظة على الكتب وصونها من التمزّق والتلف والغبار، ويقوم بتجليدها بإشراف الناظر، ويوزّع الورق والحبر

---

(١) ذيل مرآة الزمان: اليونيني، ج ٢، ص ٤١٢.

(٢) دور الكتب العربية: العشي، ص ٣٦٦.

(٣) دور الكتب العربية: العشي، ٣٣٦ - ٣٦٧.

(٤) الظاهرية: حديث ٣٣٩، انظر دور الكتب العربي: العشي، ص ٣٦٧.

(٥) الظاهرية: تاريخ ٥٩، انظر دور الكتب العربي: العشي، ص ٣٦٧.

(٦) فتاوى السبكي: ج ٢، ص ١٠٩.

(٧) دور الكتب العربية: العشي، ص ٣٧٠.

ويراقب القراء، ويراقب تطبيق شروط الوقف<sup>(١)</sup>، فإن أهمل الخازن هذه الواجبات اعتبر مسؤولاً من حيث المبدأ، وعليه أن يُصلح ما سببه من أضرار، وأن يعيد الكتب المفقودة، لكنّ هذه القاعدة التي قال بها الفقهاء<sup>(٢)</sup> وصاغها بعض الواقفين<sup>(٣)</sup> بقيت ضمن المجال النظري<sup>(٤)</sup>.

أما راتب الخازن فقد كان ينال في دار الحديث الأشرفية ١٨ درهماً<sup>(٥)</sup>، وفي مسجد الناصرية في حلب الذي بني (٨١٣هـ = ١٤١٠م) يتقاضى عشر ليرات<sup>(٦)</sup>، وفي المسجد المؤيدي يتقاضى أربعين نصفاً وأربعة أرطال من الخبز في اليوم<sup>(٧)</sup>، وكان هذا الراتب ضئيلاً، فنجد بعض الخزنة يعملون أعمال أخرى، مثل خازن المدرسة المؤيدية، حيث كان يتولّى الخطابة أيضاً، وكان يُعطي على عمله هذا مئة نصف، وهذا الراتب مضافاً إلى راتبه على وظيفة خازن، يرفعه إلى مرتبة المدرس الثاني في المسجد<sup>(٨)</sup>، فخازن مسجد قايتباي في الصحراء كان يتقاضى مثل راتب القارئ وهو مئتا درهم نحاس، وهو مثل نصف راتب الإمام والخطيب تقريباً<sup>(٩)</sup>.

المناول: وجمعه المناولون: وهو صاحب وظيفة وسط بين وظيفتي الخازن والقرّاش في المكتبة المملوكية، فهو مساعد للخازن ويقوم بإرشاد القراء إلى مواضع الكتب وإحضارها لمن

(١) دور الكتب العربية: العش، ص ٣٧٠ - ٣٧١.

(٢) قانون العدل ١١٢، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٣٧١.

(٣) دور الكتب العربية: العش، ص ٣٧١.

(٤) دور الكتب العربية: العش، ص ٣٧١.

(٥) فتاوى السبكي: السبكي، ج ٢، ١٩٠.

(٦) دائرة الأوقاف، سجل ١/٢٥، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٣٧٣.

(٧) دور الكتب العربية: العش، ص ٣٧٣.

(٨) دائرة الأوقاف، سجل ١/٩١، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٣٧٤.

(٩) دائرة الأوقاف، سجل ١/٧٠، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٣٧٤.

يطلبها، ثمّ يقوم بإرجاعها إلى مكانها بعد الفراغ منها<sup>(١)</sup>، ويقوم المناول بهذا العمل تحت إشراف الخازن، ولكنّ معرفته بالكتب تكون سطحية، مثل معرفة أسمائها وأماكن حفظها، ولا يتجاوز ذلك لمعرفة مضمون الكتب، أي أنّ وظيفته لا تسمو إلى وظيفة الخازن، ولكنها لا تهبط في نفس الوقت إلى مستوى الفرّاشين<sup>(٢)</sup>، وقد كان يُعبّر عنه أحياناً بحامل المصحف أو خادم الربعة الشريفة، تأدّباً وتميّزاً له عمن يقوم بالعمل بين القراء والكتب، ومن يقوم بأعمال النظافة أي ما يسمّى بالخدام<sup>(٣)</sup>.

ونلاحظ أنّ هناك عاملاً آخر ووظيفته هي تنظيف المكتبة كما ذكر، وقد يكون هناك أكثر من مناول حيث تنصّ وثيقة المؤيد شيخ على أنّه: «... يرتب خمسة رجال خدام للربعات الشريفات بالجامع المذكور على أن الخمسة المذكورين يحضرون الربعات الشريفات وقت حضور وظيفة التصوف ويفرقون أجزاءها على الحاضرين، ويقام بالوظيفة المذكورة بعد صلاة العصر في كلّ يوم ليقرأون فيها ما العادة... ويجمع الخمسة المذكورين الأجزاء المذكورة ويضعونها في مواضعها»<sup>(٤)</sup>، وكانوا يُختارون على الأغلب من الصوفية، حيث تذكر وثيقة جمال الدين الإستاذار ما نصّه: «... يرتب أيضا من عدة الصوفية المذكورين أعلاه من المحررين أعلاه ثلاثة أنفس لخدمة الربعات الشريفات..»<sup>(٥)</sup>، وكذلك وثيقة برقوق حيث تنصّ: «يرتب الناظر أربعة أنفس من الصوفية المذكورين يفرقون أجزاءها على الجماعات القائمين بوظيفة التصوف بعد صلاة العصر وعند فراغهم يجمعون الأجزاء المذكورة ويعيدونها إلى أماكنها على العادة في مثل

---

(١) تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٤٥.

(٢) تاريخ التربية الإسلامية: أحمد شلبي، الناشر: مكتبة النهضة المصرية، ط ٣ (١٣٨٥هـ = ١٩٦٦م)، ص ١٧٦.

(٣) تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٤٥.

(٤) وثيقة المؤيد شيخ: رقم ٩٣٨ أوقاف، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٤٦.

(٥) وثيقة جمال الدين الإستاذار: رقم ١٠٦، محفظة ١٧، دار الوثائق، نشر: عبد الستار عثمان، ص ١٥٩ -

١٦٠، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٤٦.

ذلك...»<sup>(١)</sup>، وقد كان الخازن أيضاً يقوم بمناولة الكتب كما ذكرنا سابقاً عند ذكر خازن الكتب مع قيامه بمهامه الأخرى الاعتيادية.

الناظر: وهو بمثابة المدير العام للمكتبة، وليس للخازن ومساعديه امتيازات إلا فيما يتعلّق بالعمل الداخلي في المكتبة، وقد أُعطيت الامتيازات من جهةٍ أخرى إلى ناظر المؤسسة، والناظر من حيث المبدأ النظري والواقع العملي هو الذي يتولى السلطة كلّها، وليس الخازن إلا بديلاً عنه في المكتبة، وفي حال عدم الحاجة للخازن يقوم الناظر بإنجاز عمله<sup>(٢)</sup>، وفي المكتبة الظاهرية علامة وقف على كتاب كان موقوفاً على مدرسة الحنابلة في القدس حيث تقول: «والناظر فيه إمام الحنابلة بالقدس الشريف»<sup>(٣)</sup>، وكان وضع الكتب تحت يد الناظر وإشرافه أكثر أمناً، وأنّ الخازن مجرد موظف يخضع للناظر<sup>(٤)</sup>، وتذكر وثيقة وقفية بدار الحديث الأشرافية: «وعلى الخازن الاهتمام بترميم الكتب وإعلام الناظر أو نائبه ليصرف فيه من فعل الوقف ما يفي بذلك وكذا إذا مسّت الحاجة إلى تصحيح كتاب ومقابلته»، وكذلك «للشيخ الناظر أن يستنسخ للوقف، أو يشتري ما تدعو الحاجة إليه من الكتب والأجزاء، ثمّ يقف ذلك أسوة ما في الدار من كتبها»<sup>(٥)</sup>، وهنا نستدلّ على أمرٍ آخر وهو أنّ للناظر نائباً أي عاملاً آخر في المكتبة.

---

(١) وثيقة السلطان برقوق: رقم ٥١، محفظة ٩ دار الوثائق، انظر تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٤٦.

(٢) دور الكتب العربية: ص ٣٧٥.

(٣) الظاهرية، حديث ٣٧٩، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٣٧٥.

(٤) دور الكتب العربية: العش، ص ٣٧٥.

(٥) فتاوى السبكي: السبكي، ج ٢، ص ١٠٩ - ١١١.

وبما أنّ الناظر هو الرئيس الأول فلا بدّ أنّه يراقب العمل، في المكتبة كما يراقب العاملين فيها، وللواقف الحق في أن يعيّن ناظراً أو أكثر<sup>(١)</sup>، وقد عيّن صلاح الدين لنظارة المدرسة التي أنشأها في موضع دار العلم القديم بالقدس، القاضي بهاء الدين بن شداد، وجمع له معها التدريس أيضاً<sup>(٢)</sup>، وكذلك من حقّ الواقف أن ينظم أمر انتقال هذه الوظيفة بشكل وراثي، وقد ذكر صلاح الدين في المدرسة التي ذُكرت أنّه من حقّ أول ناظر أن يعيّن خلفاً له في وظيفته<sup>(٣)</sup>، وإذا لم يذكر الواقف شروط الانتقال نظمها نائب السلطان أو خليفته، الذي يكون القاضي في معظم الأحيان<sup>(٤)</sup>.

وقد كانت المؤسسات الصغيرة تعطي وظيفة الناظر والتدريس لشخص واحد، كما مرّ معنا في مدرسة صلاح الدين في القدس، أمّا في المؤسسات الكبيرة والعامة وشبه العامة، فقد يعيّن فيها عدد من الناظرين، وقد سمّاهم نائب السلطة في القرن الثامن هجري الرابع عشر ميلادي شهود الأوقاف<sup>(٥)</sup>.

ويقول سبكي: «إذا مسّت الحاجة إلى تصحيح كتاب ومقابلته ويصرف إلى شخص يكون مرتباً ونقيباً ثمانية عشر درهماً، وللشيخ أن يضمّ إليه في بعض ذلك شخصاً من الجماعة ويزيده على ذلك شيئاً على ما يراه»<sup>(٦)</sup>، وهذا يدلّ على وجود موظفين في دار الحديث الأشرافية بدمشق يقومون فقط بتصحيح الكتب ومقابلتها.

---

(١) كوتا ١٦١، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٣٧٦.

(٢) فتاوى السبكي: السبكي، ج ٢، ص ١٢٨.

(٣) كوتا ١٦٢، انظر دور الكتب العربية: العش، ص ٣٧٧.

(٤) دور الكتب العربية: العش، ص ٣٧٧.

(٥) فتاوى السبكي: السبكي، ج ٢، ص ١٥٤.

(٦) فتاوى السبكي: السبكي، ج ٢، ص ١٠٩.

الوارثون: وهي تضمّ النسخ والخطّاطين والمجلّدين وغيرهم ممّن اتّخذوا الوراقة عملاً لهم، والنسخ هم يقومون بتزويد المكتبة بالكتب، وخاصّة أمّهات الكتب، وقد يوجد أكثر من نسخة من الكتاب الواحد في المكتبة، وعليه أن يلتزم بالأمانة في عملية النسخ والدقة، فلا يحذف شيئاً أو يختصر رغبةً في سرعة الإنجاز<sup>(١)</sup>.

وقد ذكرنا النسخ سابقاً في عملية تزويد المكتبة وسوف نذكر بعض الأمثلة عليهم، ومنهم شرف بن أمير السراي (ت ٨٥١هـ = ١٤٤٧م)<sup>(٢)</sup>، وكذلك الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن يوسف المعروف بابن الصائغ (ت ٨٤٥هـ = ١٤٤١م): «الذي صار شيخ الكتاب في عصره، وقد نسخ عدّة مصاحف وغيرها من الكتب والقصائد وقد قرر مكتباً في عدّة مدارس» كما ذكر عنه السخاوي<sup>(٣)</sup>، وخطّاب بن عمر الدنجيهي (ت ٨٩١هـ = ١٤٨٦م)، وقد كتب بخطّه زيادة على خمسين مصحفاً، وتصدّر للتكتيب بالجامع الأزبكي<sup>(٤)</sup>، وكذلك أحمد بن حسن الشهاب الهيتمي<sup>(٥)</sup>، واسماعيل بن عمران بن علي الصحافي وقد عمل بالنساخته<sup>(٦)</sup>، ومحمد بن محمد البليسي الأصل القاهري الذي ارتقى من الكتابة والتعليم<sup>(٧)</sup>، وبعد النسخ لابّد من تجليد الكتاب، وتجميع أوراقه وهذا عمل المجلّد، ولذلك نجد مهنة مجلّد الكتب في المكتبات المملوكية، وخاصّة أنّ فنّ التجليد في مصر المملوكية وصل إلى أرقى مراتب

(١) معيد النعم ومبيد النقم: السبكي، ص ١٠٣ - ١٠٤.

(٢) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٣، ص ٢٩٨ - ٢٩٩.

(٣) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٤، ص ١٦١ - ١٦٢.

(٤) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٣، ص ١٨١.

(٥) الضوء اللامع: السخاوي، ج ١، ص ٢٧٣.

(٦) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٢، ص ٣٠٤.

(٧) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٩، ص ٢٥٢.

التقدّم والازدهار<sup>(١)</sup>، وقد يقوم الخازن بالتجليد كما ذكرنا سابقاً في مهام خازن الكتب، ومن الذين عملوا في هذه المهنة عمر بن محمد بن إبراهيم السراج الشامي الكتبي (ت ٨٤٤هـ = ١٤٤٠م)، وكان يتكسّب بصناعة التجليد<sup>(٢)</sup>، ومظفر الكتبي كانت له خبرةٌ تامّةٌ بترميم المصاحف الرثّة<sup>(٣)</sup>، وأبو العباس محمد بن إبراهيم الحلبي الكتبي الذي توفي حوالي عام (ت ٨٥٢هـ = ١٤٤٨م)، وقد كان بارعاً في التجليد كما ذكر السخاوي<sup>(٤)</sup>، وسالم بن محمد القرشي الحموي ثمّ القاهري الكتبي (ت ٨٧٦هـ = ١٤٧١م) وقد تكسّب بصناعة تجليد الكتب<sup>(٥)</sup>.

وقد يجمع بعضهم بين مهنة النسخ والتجليد والتذهيب والزخرفة في بعض الأحيان، مثل محمد بن أحمد بن علي الأبياري ثمّ القاهري المعروف بابن السدار (ت ٨٨٤هـ = ١٤٧٩م)، حيث يذكر عنه السخاوي: «عمل في الكتابة والتجليد مع صناعة التذهيب وما يتعلّق بها من الزخفر واللازورد»<sup>(٦)</sup>، وكذلك محمد بن محمد بن أحمد أبو الفتح الأزهري الرسّام وقد توفي حوالي سنة (٨٥٧هـ = ١٤٥٣م)، وقد عمل في التجليد والتذهيب والكتابة وعمل المزهّرات وقصّ الورق ولصق الصيني وغير ذلك<sup>(٧)</sup>، وكذلك كان هناك موظفون آخرون مثل البوابين والفراشين والطباخين وغيرهم كما نصّت بعض الوثائق المملوكية<sup>(٨)</sup>.

(١) تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٥٠.

(٢) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٦، ص ١١٥.

(٣) العلوم العملية في العصور الإسلامية: عمر رضا كخّالة، ص ٢٧٨.

(٤) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٦، ص ٢٧٤ - ٢٧٥.

(٥) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٣، ص ٢٤٢.

(٦) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٧، ص ٢٢.

(٧) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٩، ص ٦.

(٨) تاريخ المكتبات: النشار، ص ١٥٠.





## الفصل السادس: تدهور أوضاع المكتبات

هناك مجموعة من العوامل التي أدت تدهور المكتبات وتنقسم هذه العوامل إلى قسمين:  
عوامل طبيعية، وعوامل بشرية.

### أولاً: العوامل الطبيعية

ومنها الحريق، ومن الذين أحرقوا كتبهم جلال الدين محمد بن محمد بن محمد المعروف بجلال الدين القونوي (ت ٦٧٢هـ = ١٢٧٣م)، وقد أُحرق بيته واحترقت معه كتبه<sup>(١)</sup>، وقد أصاب حريق المكتبة السلطانية في سنة (٦٩١هـ = ١٢٩١م) وأُتلف منها الشيء الكثير من الذخائر والنفائس والكتب<sup>(٢)</sup>، وكذلك من الأمور الطبيعية ما يصيب المكتبة من عوامل التعرية كالرطوبة والحرارة والعفن والندى والغبار والحشرات والضوء الزائد والأثرية، ومن ذلك كتب محمد بن محمد بن أحمد المراغي الأصل ثم القاهري (ت ٨١١هـ = ١٤٠٨م) وقد خلف كثيراً من الكتب، تُلف أكثرها بالأرضة وغيرها<sup>(٣)</sup>، وكذلك كتب عماد الدين أحمد بن محمد بن أحمد الأصبهاني (ت ٥٧٦هـ = ١١٨٠م)، وقد كانت عنده خزائن كتب لا يتفرغ للنظر فيها، فعُفنت وتلصقت لنداوة البلد، فكانوا يخلصونها بالفأس فتُلف أكثرها<sup>(٤)</sup>، وهناك أيضاً سوق الكتبيين، وهو بين الصاغة والمدرسة الصالحية، أنشئ في سنة (٧٠٠هـ = ١٣٠٠م)، وقد نُقل من موقعه إلى القيسارية، فيما بين سوق الدجاجيين المجاور للجامع

(١) عقد الجمان: العيني، مج ٢، ١٢٨-١٢٩.

(٢) البداية والنهاية: ابن كثير، ج ١٧، ص ٦٤٦.

(٣) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٩، ص ٢٩-٣٠.

(٤) تذكرة الحفاظ: أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي (ت ٧٤٨ = ١٣٤٨م)، الناشر: دار أحياء التراث

العربي، ج ٤، ص ١٢٩٨-١٣٠٣.

الأقمر وبين سوق الحصريين، وكان يعلو هذه القيسارية ربع فيه مساكن، فتضررت الكتب من نداوة أقبية البيوت<sup>(١)</sup>.

وكذلك من الكوارث الطبيعية التي أتلفت الكتب الزلزال الذي أصاب مصر عام (١٧٠٢هـ = ١٣٠٢م) والذي تبعه فيضان، حيث خربت المساجد والمدارس وغيرها من المؤسسات بما فيها الكتب، وكذلك خربت المنازل والجامع الحاكم والجامع الأزهر<sup>(٢)</sup>.

### ثانياً: العوامل البشرية

ومن فعل البشر الحريق، مثلاً تغري برمش بن يوسف بن المحب (ت ٨٢٣هـ = ١٤٢٩م) وكان حنيفياً متعصباً للسنة، وكان مكثراً الحطّ على ابن عربي ونحوه من متصوّفي الفلاسفة، ومبالغته في ذلك، حيث صار يحرق ما يقدر عليه من كتبه، بل ربط مرّة كتاب «الفصوص» في ذنب كلب<sup>(٣)</sup>.

وقد تتعرض بعض المكتبات للنهب والتخريب في أيام الفتن والمنازعات التي كانت كثيرة في أيام المماليك للسيطرة على السلطة، مثل الذي حصل لمدرستي السلطان حسن والسلطان شعبان في الصراع الذي كان بين ممالك الأمير منطاش وممالك برقوق<sup>(٤)</sup>، وكذلك التي حصلت في سنة (٩٠٢هـ = ١٤٩٦م)، والتي تسمى بفتنة الأمراء بقيادة أقبرد، حيث استخدم المتمردون

---

(١) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٣، ص ٣٣٨ - ٣٣٩. الانتصار لواسطة عقد الأمصار: ابن دقماق، ج ٤، ص ٤٤ - ٦١ - ٩٥.

(٢) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٤، ج ١، ص ١٠٣ - ١١٤. نهاية الأرب: النويري، ج ٣٢، ص ٣٩ - ٤٠. حسن المحاضرة: السيوطي، مج ٢، ص ٢٢٢.

(٣) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٣، ص ٣١.

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي، ج ٣، ق ٢، ص ٦٤٢ - ٦٤٣.

مدرسة السلطان حسن لضرب القلعة، فقام المماليك السلطانية بضرهم بالمكحلة<sup>(١)</sup>، وزحفوا على من كان بها وأحرقوا ما بداخلها<sup>(٢)</sup>.

وقد تؤدي الأزمات الاقتصادية إلى نهب ما في المكتبة وبيعه بأبخس الأثمان، مثل ما حصل في سنة (٦٩٤هـ = ١٢٩٤م) في حكم كتبغا، حيث مسّ الجوع طلاب المكتبة الفاضلية، فنهبوا كتبها، وصاروا يبيعون كلّ مجلد برغيف خبز، حتّى ذهب معظم ما فيها من الكتب<sup>(٣)</sup>.

وقد تكون بعض المكتبات نواةً لمكتباتٍ أخرى، حيث نقلت مكتبة المدرسة الأشرفية شعبان بن حسين بعد أن اشتراها جمال الدين يوسف الإستاذار الكثير من محتوياتها، وذلك بعد هدمها وجعلها نواةً لخزانة مدرسته<sup>(٤)</sup>، واشترى جمال الدين محمود الإستاذار مكتبة القاضي برهان الدين بن جماعة<sup>(٥)</sup>، والعديد من كتب خزانة الأمير يشبك بن مهدي الداودار التي كانت موقوفة على تربته، نقلت إلى خزانة كتب محمود الغزيّ الشافعي الخاصة<sup>(٦)</sup>.

ويذكر الصفدي عن الخواجا نصير الدين الطوسي (ت ٦٧٢هـ = ١٢٧٣م) حيث أنّه بنى بمراغة قبةً ورصداً عظيماً، واتّخذ في ذلك خزانةً عظيمةً فسيحة الأرجاء، ومأها من الكتب

(١) المكحلة: وهي المدافع التي يرمى عنها بالنقط. صبح الأعشى: القلقشندي، ج ٢، ص ١٥٣.

(٢) بدائع الزهور: ابن إياس ج ٣، ص ٣٦٧ - ٣٦٨.

(٣) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٤، ج ٢، ص ٤٦٢.

(٤) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٤، ج ٢، ص ٦٣٦.

(٥) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ج ١، ص ٣٩ - ٤٠. إنباء الغمر بأنباء العمر: ابن حجر العسقلاني، ج ١، ص ٢٩٣.

(٦) الوافي بالوفيات: الصفدي، ج ١، ص ب. تاريخ المكتبات: النشار، ملحق الأوّل، لوحة رقم ١٠، ص ٢٧٢.

التي تُهبّت من بغداد والشام والجزيرة في زمن التتار، حتّى تجمّع فيها ما يزيد على أربعمئة ألف مجلّد<sup>(١)</sup>.

وهناك أسبابٌ أخرى أدّت إلى ضياع الكتب في المكتبات المملوكية، وهو استغلال بعض العلماء والقضاة للمكتبات، وأخذ هذه الكتب ومنع الناس من الاستفادة من هذه الكتب، ومنهم عمر بن عثمان بن محمد المصري الشافعي (ت ٨٠٤هـ = ١٤٠١م) حيث يقول السخاوي عنه: «وعنده من الكتب ما لا يدخل تحت الحصر، منها ما هو ملكه ومنها ما هو من أوقاف المدرسة الفاضلية، ثمّ أنّها احترقت مع أكثر مسوداته في أواخر عمره ففقد أكثرها، وتغير حاله بعدها، فحجبه ولده إلى أن مات، وقال في معجمه أنّه قبل احتراق كتبه كان مستقيم الذهن، قلت وأنشده من نظمه مخاطباً له:

لا يزعجك يا سراج الدين أن لعبت بكتبك ألسن النيران  
لله قد قربتها فتقبلت والنار مسرعة إلى القربان»<sup>(٢)</sup>

وكذلك صالح بن عمر الكناني العسقلاني البلقيني (ت ٨٤٨هـ = ١٤٤٤م)، فقد خلف بعد موته كتباً جمّة من أوقاف المدارس ما يزيد على ألف مجلّد<sup>(٣)</sup>، وأحمد بن بدر الدين بن شعبان القاضي بالديار المصرية ويقول عنه الغزيّ: «وأما الكتب النفيسة فإنّ عنده منها ما ينوف على أربعين ألف مجلّد، وأكثرها من كتب الأوقاف، وضع يده عليها، ومنع أهل العلم من النظر إليها، ومضى عليها أعوام، ونُسيت عنده، وغير شروطها، ومحا ما استدلّ به من كونها وقفاً من أوائلها وأواخرها، وزاد ونقص، وصارت كلّها ملكاً له في الظاهر، ولم يخف الله ولا اليوم

(١) الوافي بالوفيات: الصفدي، ج ١، ص ١٤٧.

(٢) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٦، ص ١٠٠ - ١٠٥. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: الشوكاني، ص ٥٠٩ - ٥١١.

(٣) الذيل على رفع الأصر: السخاوي، ص ١٨٠.

الآخر»<sup>(١)</sup>، وقد ذكر المقرئ عن الفاضلية: «ثم تداولت أيدي الفقهاء عليها بالعارية فتفرقت».

ولابد من الذكر أنّ هناك من أساء في إعاره الكتب، حيث أنّ هناك كتاباً موقوفاً في المدرسة العمريّة في دمشق مكتوباً عليه: «هذا الكتاب عند الفقير عبده تعالى رمضان بن موسى الحنفي عارية من الكتب الموقوفة بمدرسة أبي عمر»<sup>(٢)</sup>، وهذا يدلّ على أنّ الكتاب كان عنده، ولم يكن يرغب في إعادته إلى المكتبة، ولولا ذلك لما كتب عليه أنّه عنده، وكأنّه يرغب بالاحتفاظ به مؤبداً، وكذلك القاضي محيي الدين أبو الفضل بن الشحنة (٨٠٤ - ٨٩٠هـ) = (١٤٠١ - ١٤٨٥م)، فقد استبدّ بالمدرسة الصرغتمسية والبيبرسية والمحمودية، وقد حصل له من المحمودية ما ينيف على مئة مجلّد وأكثر<sup>(٣)</sup>، وكان أمر هذا القاضي عظيم، حيث يذكر عنه السخاوي أيضاً: «عظيم العناية في تحصيل كتب العلوم، حيث اجتمع عنده من نفائس كلّ فن، ما قل أن يجتمع لغيره، وربّما اغتصبها من هي عنده، كان يستعيرها ثم لا يعيدها، حتّى أنّ أبا ذر ابن شيخه البرهان الحلبي منع العارية لكتب أبيه أصلاً إلا في النادر خوفاً منه كما صرح لي به»<sup>(٤)</sup>، وقد كان هذا من أسوأ أساليب تدهور الكتب المتّسم بالأثر والأناية.

وكذلك كان لبعض المشرفين على المكتبات دوراً مهماً في تدهور هذه المكتبات، وذلك من خلال عدم إدارة هذه المكتبات وفق الشكل المطلوب، أو من خلال نهب ما في هذه

---

(١) الطبقات السنية في تراجم الحنفية: تقي الدين بن عبد القادر التميمي الداري الغزيّ المصري الحنفي (١٠٠٥هـ = ١٥٩٦م)، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: دار الرفاعي، الرياض، ط ١ (١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م)، ج ١، ص ٣١٩.

(٢) دور لكتب العربية: العرش، ص ٤٠٦.

(٣) الذيل على رفع الأصر: السخاوي، ص ٣٨٢ - ٣٨٣.

(٤) ذيل رفع الأصر: السخاوي، ص ٣٨٤.

المكتبات من الكتب أو تسهيل نهبها، أو إعارتها لبعض ممن لا يعيدونها بدون ضمانات، مثل أن يعيرها لبعض أكابر الدولة ووجهائها وغيرهم، ومن هؤلاء خازن المكتبة المحمودية السراج عمر الذي عزل بسبب تفريطه بالكتب، حيث فرط بمئة وثلاثين مجلداً، وعين بدلاً منه عثمان فخر الدين البكري التلاوي (ت ٨٢٨هـ = ١٤٢٥م)، وكذلك عُزل لتفريطه، فقد اختبرت الكتب والفهرست فنقصت أربعمئة فألزم بقيمتها<sup>(١)</sup>، وذكر السخاوي عن سالم العبّادي أنه استلم خزان الكتب المحمودية بعد أحمد بن محمد بن علي حافظ الدين الجلاي المعروف بابن الجلاي، ويذكر أنه في عهد سالم العبّادي قد: «فسد أمرها»<sup>(٢)</sup>، ومحمد بن عمر بن عبد الله بن محمد بن غازي (ت ٨٤٥هـ = ١٤٤١م) وقد كان خازناً، وذكر عنه السخاوي أنه كان: «خفيف ذات اليد»<sup>(٣)</sup>، ومحمد بن إبراهيم بن خلف الشمس القمني ثمّ القاهري خازن كتب المؤيّد (ت ٨٨٣هـ - ١٤٤٠م)، وقد نسب إليه تفريط بعض كتب المؤيّدية<sup>(٤)</sup>.

وكذلك من الأمور التي ساعدت على تدهور المكتبات، هو تدهور أوضاع الوقف واغتصابه، ولأنّ المكتبة كان موردها الاساسي على هذا الوقف من بساتين وأراض وغيرها، فإن سلب هذا الوقف يؤدي إلى فقدان مردود المكتبة، مما يساعد على دمار هذه المكتبات، وقد كانت تصرف من الأوقاف لطلبة العلم ولكنها: «تلاشت في زمننا هذا، وعمّا قليل إن دام ما نحن فيه لن يبقى لها أثر البتة» كما ذكر المقرئزي<sup>(١)</sup>، وقد يكون هذا بسبب الاستبدال<sup>(٢)</sup>، الذي قام به بعض السلاطين والأمراء، وهو شراء عين أخرى تكون بدل الوقف الأوّل، ومن

(١) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٥، ص ١٤٣ - ١٤٤.

(٢) الضوء اللامع: السخاوي: ج ٢، ص ١٥٤.

(٣) التبر المسبوك: السخاوي، ص ٣٣.

(٤) الضوء اللامع: السخاوي، ج ٦، ص ٢٥٢.

(١) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٤، ج ١، ص ١٧٧.

(٢) السلوك لمعرفة دور الملوك: المقرئزي، ج ٣، ق ١، ص ٢٦٩، ج ٤، ق ١، ص ١٧٥.



القضاة الذين أفتوا بالاستدلال ابن العديم في مدرسة جمال الدين الإستاذار<sup>(١)</sup>، وكذلك صالح صالح بن عمر بن رسلان البلقيني وقد تسلط في تحصيل الأموال من التركات، وكذلك أموال الأوقاف ويقول عنه ابن حجر: «وأما المدارس ومتحصّلها فلم يصرف للطلبة إلا اليسير»<sup>(٢)</sup>، اليسير»<sup>(٢)</sup>، وكذلك وليّ الدين السفطي وقد سجن وذكر ابن تغري بردى أنه لما كان في سجن سجن المقشري دخل عليه بعض الناس وقال له رجل: يا قاضي القضاة فقال له بأعلى صوته: «تقول لي قاضي القضاة أما تقول يا لصّ يا حرامي يا مقشراوي، فقال له الرجل: يا لصّ يا حرامي يا مقشراوي»<sup>(٣)</sup>، والقاضي عبد البرّ بن الشحنة وقد كان يحرمّ الحلال، وقد نهب هو وأعوانه الكثير من الأوقاف، وقد هجاه جمال الدين السلموني بقصيدة يقول في مطلعها:

«فشا الزور في مصر وفي جنباتها      ولم لا وعبد البرّ قاضي قضاتها  
أجاز أموراً لا تحلّ بملةٍ      بحلّ وبرمٍ مظهرًا منكراتها»<sup>(٤)</sup>.

وقد تباع كتب العالم بعد وفاته، خاصّةً إذا كان أولاده ليسوا من أهل العلم، أو لا يجنون جمعها، أو إذا لم يكن له ذريّة من الذكور، فقد بيعت كتب محمد بن علي بن محمد بن غانم (ت ٧٤١هـ = ١٣٤٠م)، حيث يقول ابن حجر عنه: «كان يجب جمع الكتب وخلف منها شيئاً بيع بثلاثين ألف درهم وقد كان لا يكتب إلا ما وافق الشريعة»<sup>(١)</sup>.

ومحمد بن أبي بكر بن أيّوب الدمشقي المعروف بابن القيم الجوزي (ت ٧٥١هـ = ١٣٥٠م)، وقد كان محباً لجمع الكتب، حتّى أنّه بعد وفاته بقي أولاده يبيعون من كتبه دهرًا

(١) خطط المقرئزي: المقرئزي، مج ٤، ج ٢، ص ٦٤٤.

(٢) رفع الإصر عن قضاة مصر: احمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت ٨٥٢هـ = ١٤٤٨م)، تحقيق: علي محمد عمر، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ١ (١٤١٨هـ = ١٩٩٨م) ص ١٦٩-١٧١.

(٣) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج ١٥، ص ١٣٧-١٣٨.

(٤) بدائع الزهور: ابن إياس، ج ٤، ص ١١٣.

(١) الدرر الكامنة: ابن حجر، ج ٤، ص ٢٠٣-٢٠٤.



### ثالثاً: الدولة العثمانية و تأثيرها على تدهور أوضاع المكتبات في العصر المملوكي

بعد دخول العثمانيين بلاد الشام بعد معركة مرج دابق (٩٢٢هـ = ١٥١٦م)، ودخول السلطان العثماني سليم الأول دمشق، أخذ علماء التجليد إلى عاصمته استانبول<sup>(١)</sup>، وبعد دخولهم مصر بعد معركة الريدانية (٩٢٣هـ = ١٥١٧م)، تُهبت الكثير من المكتبات، يقول ابن إياس الذي كان معاصراً لتلك الفترة عن الوزراء: «نهبوا الكتب الموجودة في مدارس المحمودية والمؤيدية والصرغتمشية وغيرها ونقلوها، ولم يعرفوا الحلال من الحرام في ذلك، وهذا غير الذي أخذه السلطان سليم الأول والأمراء والولاة الأتراك»<sup>(٢)</sup>.

وكان من ضمن ما قُدم مع السلطان سليم الأول نخبة من أرباب العلم، الذين اندهشوا مما شاهدوه من الكتب النفسية والمخطوطات، وكذلك مرونة الخدمة ودقة التنظيم، فلما علم بذلك السلطان، أمرهم بنقل خيارها ونفائسها إلى استانبول، وكان ذلك بواسطة ألف جمل<sup>(٣)</sup>، ومن الأدلة على ذلك وجود حوالي مائة ألف مخطوطة عربية في اثنتين وأربعين مكتبة في تركيا<sup>(١)</sup>، كما هاجم العثمانيون الجامع الأزهر وجامع الحاكم وجامع ابن طولون وغير ذلك من الجوامع والمدارس، بحجة البحث عن المماليك، وقد نهبوا الكتب منها<sup>(٢)</sup>، وكذلك تعرّضت

(١) المخطوطات الدمشقية: طباع، ص ١٦٤.

(٢) بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس، ج ٥، ص ١٧٩.

(٣) خزائن الكتب العربية في الحافقين: فيليب دل طرازي، الناشر: دار الكتب اللبنانية، مج ١، ص ١٨٨.

(١) فهارس المخطوطات العربية في العالم: كوركيس عواد، الناشر: معهد المخطوطات العربية، الكويت ١٤٠٥هـ = ١٩٨٤م)، ج ١، ص ٢٨١ - ٣٤٤. المخطوطات العربية في الأناضول: أحمد آتشي، مجلة

معهد المخطوطات العربية (١٣٧٧هـ = ١٩٥٨م)، مج ٤، ص ٣ - ٤٢.

(٢) بدائع الزهور: ابن إياس، ج ٥، ص ١٥٥.

المنازل والبيوت للنهب من قبل العثمانيين والعوام الذين انتهزوا هذه الفرصة، فنهبوا المدارس  
وخزائن الطعام والمكتبات الخاصة<sup>(١)</sup>.

---

(١) بدائع الزهور: ابن إياس، ج ٥، ص ١٤٧ - ١٤٨.

## الخاتمة

من خلال ما تقدّم نتوصل إلى تأكيد أهميّة دور المكتبات في الحياة العلمية في عصر المماليك، فمن خلال عمل المؤسسات العلمية في نشر العلم، قامت المكتبات التي تكون تابعة لها على تنشيط عملها العلمي بشكل كبير، وسوف نذكر أهم ما توصل إليه البحث من نتائج، والتي يمكن تلخيصها بما يلي:

١. أظهر البحث مدى انتشار المكتبات في مصر وبلاد الشام الذي وصل إلى درجة انتشار المكتبات حتّى في المقابر.

٢. بيّن دور هذه المكتبات في تحقيق الازدهار العلمي في عصر المماليك، وهو دور جوهري وفعال لتوفير ما يحتاجه طلاب العلم من مادة علمية.

٣. أظهر دور سلاطين وأمراء المماليك والعلماء في تنشيط الحركة العلمية، والعمل بشكل كبير على دعمها.

٤. أظهر أنّ هذه المكتبات لم تكن تسير عشوائياً، وإتّما وفق نظام دقيق محدّد، فمن خلال عملية تزويد المكتبة، والإجراءات الفنية، وإيرادات المكتبة، يظهر دقت العمل الذي كانت تقوم عليه هذه المكتبات.

٥. وبيّن البحث فعالية نظام الأوقاف وأثره الهام جدّاً في النهضة العلمية، وأنّه الممّول الرئيسي للمكتبات وللمؤسسات العلمية الأخرى.

٦. استنتج البحث أن عصر المماليك كان عصر ازدهار ونهضة علمية، من خلال النشاط الواسع والفعال للمكتبات، بالإضافة إلى العوامل الأخرى التي تتعلق بانتشار المؤسسات العلمية بكافة أنواعها وبشكلٍ واسع.

٧. لذلك تصب هذه الرسالة في إطار تصحيح التزوير التاريخي الذي أصاب عصر المماليك، لتؤكد رؤية جديدة عنه تصحح الأفكار التي حاول بعض الكتّاب على إظهار هذا العصر بأنه عصر إنحطاط وتأخر.

وبذلك تمّ إنهاء البحث، وأسأل الله أن يكون خالصاً لوجهه الكريم خالياً من الرياء والكبر، وأن ينتفع به كافة الناس، وأسأل الله أن يفرّج عن بلدنا الحبيب سورية لما أصابها من دمارٍ، وقتلٍ، وتشردٍ، فلم يصب في العصور الحديثة والمعاصرة أي من بلدان العالم ما أصابه، وعن جميع بلاد المسلمين.

فما كان من صواب فمن الله، وما كان من خطأ فمني ومن الشيطان، وصلى الله على نبينا وحبينا وسيّدنا محمّداً وعلى آله وصحبه وسلّم، سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

## قائمة المصادر والمراجع

### أولاً: قائمة المصادر

- ١- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء: أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ (٧٦٦-٨٤٥هـ) = (١٣٦٥-١٤٤٢م)، تحقيق: جمال الدين الشيال، الناشر: وزارة الاوقاف، مصر، ط٢ (١٤١٦هـ = ١٩٩٦م).
- ٢- إحياء علوم الدين: محمد بن محمد الغزالي، الناشر: دار المعارف، بيروت.
- ٣- إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد: محمد بن ساعد الأنصاري المعروف بابن الأكفاني (ت ٧٤٩هـ = ١٣٤٨م)، تحقيق: حسن عبيد، الناشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية، المملكة العربية السعودية، جدة، ط١ (١٤١٤هـ = ١٩٩٤م).
- ٤- أعيان العصر وأعوان النصر: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ = ١٣٦٣م)، تحقيق: علي ابو زيد- نبيل أبو عمشة- محمد موعد- محمود سالم محمد، الناشر: دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١ (١٤١٨هـ = ١٩٩٨م).
- ٥- الأعلام الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة: عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي إبراهيم ابن شداد (ت ٦٨٤هـ = ١٢٨٥م)، تحقيق: دومينيك سورديل، الناشر: المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية (١٣٧٢هـ = ١٩٥٣م).
- ٦- الأعلام للزركلي: خير الدين الزركلي، الناشر: دار العلم للملايين، ط١٠ (١٤١٢هـ = ١٩٩٢م).
- ٧- إغاثة الأمة بكشف الغمة: المقرئ، الناشر: لجنة التأليف والترجمة، القاهرة (١٣٥٩هـ = ١٩٤٠م).

- ٨- إنباء الغمر بأنباء العمر: ابن حجر، تحقيق: محمد أحمد دهمان، الناشر: مكتبة الدراسات الإسلامية، دمشق (١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م) عدة محققين.
- ٩- أنباء المصمر بابناء العصر: ابن الصيرفي علي بن داوود الجوهري الصيرفي ، تحقيق: حسن حبشي، الناشر: دار الفكر العربي، (١٣٩٠هـ = ١٩٧٠م).
- ١٠- الانتصار لواسطة عقد الأمصار: إبراهيم بن محمد بن أيذر العلاني الشهير بابن دقماق، الناشر: المكتبة التجارية ، بيروت.
- ١١- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل: مجير الدين أبو اليمن القاضي الحنبلي، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباته، الناشر: مكتبة دنديس، عمان (١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م).
- ١٢- بدائع الزهور في وقائع الدهور: محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، تحقيق: محمد مصطفى، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٣ (١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م).
- ١٣- البداية والنهاية: ابن كثير، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار عالم الكتب للطباعة، الرياض، ط٢ (١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م).
- ١٤- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ = ١٨٣٤م)، تحقيق: حسين بن عبد الهادي العمري، الناشر: دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١ (١٤١٩هـ = ١٩٩٨م).
- ١٥- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ) = (١٤٤٥-١٥٠٥م)، تحقيق: محمد ابو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العصرية، لبنان، صيدا.
- ١٦- تاج المفرق في تحلية علماء المشرق: خالد بن عيسى البلوى، تحقيق: الحسن بن محمد السائح، الناشر: صندوق إحياء التراث الإسلامي، الرباط.



- ١٧- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام: شمس الدين أبي عبد الله أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ = ١٣٧٤م) تحقيق: بشار عماد معروف- شعيب الأرنؤوط- صالح مهدي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١ (١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م).
- ١٨- تاريخ ابن الفرت: قاصد الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات، تحقيق: قسطنطين زريق، الناشر: المطبعة الأمريكية، بيروت (١٣٦١هـ = ١٩٤٢م).
- ١٩- تاريخ ابن الوردي: زين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن الوردي (ت ٧٤٩هـ = ١٣٤٨م)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (١٤١٧هـ = ١٩٩٦م).
- ٢٠- التبر المسبوك في ذيل السلوك: السخاوي، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية.
- ٢١- تبين كذب المفتري: علي بن هبة الله ابن عساكر الدمشقي (ت ٥٧١هـ = ١١٧٥م)، الناشر: دار الكتب العربية، بيروت، ط٣ (١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م).
- ٢٢- تحفة الأحياء وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات: نور الدين علي بن أحمد بن عمر بن خلف بن محمود السخاوي الحنفي، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، ط٢ (١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م).
- ٢٣- تذكرة الحفاظ: أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ = ١٣٤٨م)، الناشر: دار أحياء التراث العربي.
- ٢٤- تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم: بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله ابن جماعة (٦٦٩- ٧٣٣هـ) = (١٢٧٠-١٣٣٢م)، تحقيق: محمد بن مهدي العجمي، الناشر: دار البشائر الإسلامية، ط١ (١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م).
- ٢٥- تذكرة النبيه في ايام المنصور وبنيه: الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب (ت ٧٧٩هـ = ١٣٧٧م)، تحقيق: محمد محمد أمين، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م).

- ٢٦- تقييد العلم: أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي أبو بكر، تحقيق: يوسف العث، الناشر: دار إحياء السنة النبوية، ط٢ (١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م).
- ٢٧- التكملة لكتاب الصلاة: أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي، تحقيق: عبد السلام الهراس، الناشر: دار الفكر، بيروت (١٤١٥هـ = ١٩٩٥م).
- ٢٨- ثمرات الأوراق: تقي الدين أبي بكر بن علي بن محمد بن حجة الحموي (٧٧٧هـ - ٨٣٧هـ) = (١٣٧٥ - ١٤٣٣م) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: مكتبة الخانجي، مصر، ط١.
- ٢٩- الجامع لأحلاق الراوي وآداب السامع: أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي أبو بكر (٣٩٢ - ٤٦٣هـ) = (١٠٠٢ - ١٠٧١م)، تحقيق: محمود الطحان، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض (١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م).
- ٣٠- الجواهر المضية في طبقات الحنفية: عبد القادر بن أبي الوفاء محمد بن أبي الفداء القرشي أبو محمد، (٦٩٦ - ٧٧٥هـ) = (١٢٩٧ - ١٣٧٣م)، الناشر: مير محمد كتب خانة، كراتشي.
- ٣١- حاشية إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين لشرح قرّة العين بمهمات الدين: محمد شطا الدمياطي (ت ٩٧٨هـ = ١٥٧٠م)، الناشر: دار الفكر، بيروت.
- ٣٢- حسن المحاضرة: السيوطي تحقيق: خليل المنصور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١ (١٤١٧هـ = ١٩٩٧م).
- ٣٣- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة: كمال الدين أبي الفضل عبد الرزاق بن الفوطي البغدادي: الناشر: دار الفكر الحديث، بيروت.
- ٣٤- خطط المقرئزي: المقرئزي، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، الناشر: مؤسّسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، (١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م).

- ٣٥- الدارس في تاريخ المدارس: عبد القادر بن محمد النعيمي، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، ط١ (١٤١٠هـ = ١٩٩٠م).
- ٣٦- درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة: المقرئ، تحقيق: عدنان درويش- محمد المصري- الناشر: وزارة الثقافة، دمشق (١٤١٥هـ = ١٩٩٥م).
- ٣٧- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ = ١٤٤٨م)، تحقيق: محمد سيد جار الحق، الناشر: مطبعة المدني.
- ٣٨- الذيل على رفع الإصر أو بغية العلماء والرواة: تأليف الأمام محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ = ١٤٩٦م)، تحقيق: جوده هلال- محمد محمود صبح، الناشر: الدار المصرية.
- ٣٩- الذيل على الروضتين: شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي (٦٦٥هـ = ١٢٦٧م)، تحقيق: عزت العطار الحسيني، الناشر: دار الجيل، بيروت، ط٢ (١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م).
- ٤٠- الذيل على طبقات الحنابلة: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب (٧٣٦-٧٩٥هـ) = (١٣٣٥-١٣٩٣م)، تحقيق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الناشر: مكتبة العبيكان، الرياض، ط١ (١٤٢٥هـ = ٢٠٠٥م).
- ٤١- ذيل مرآة الزمان: الشيخ قطب الدين موسى بن محمد اليونيني (ت ٧٢٦هـ = ١٣٢٦م)، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢ (١٤١٣هـ = ١٩٩٢م).
- ٤٢- رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار: شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، تحقيق: عبد الهادي التازي، الناشر: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية (١٤١٧هـ = ١٩٩٧م).

- ٤٣- رفع الإصر عن قضاة مصر: أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت ٨٥٢هـ = ١٤٤٨م)، تحقيق: علي محمد عمر، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١ (١٤١٨هـ = ١٩٩٨م).
- ٤٤- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بابي شامة (٥٩٩هـ - ٦٦٥هـ) = (١٢٠٢- ١٢٦٧م)، تحقيق: إبراهيم الزبيق، الناشر: مؤسّسة الرسالة، بيروت (١٤١٨هـ = ١٩٩٧م).
- ٤٥- رياض الصالحين: أبي زكرية يحيى بن شرف النووي الدمشقي (٦٣١- ٦٧٦هـ) = (١٢٣٤- ١٢٧٧م)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسّسة الرسالة، لبنان، ط٢ (١٤١٨هـ = ١٩٩٧م).
- ٤٦- السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئزي: تحقيق: محمد مصطفى زيادة، الناشر: مطبعة التآليف والترجمة والنشر، مصر، ط٢ (١٣٧٦هـ = ١٩٥٧م)، عدة محققين.
- ٤٧- سير اعلام النبلاء: الذهبي، تحقيق: شعيب أرنؤوط، الناشر: مؤسّسة الرسالة.
- ٤٨- سيرة أحمد بن طولون: عبد الله بن محمد المدني البلوي، حققه: محمد كرد علي، الناشر: مطبعة الترقى، دمشق.
- ٤٩- السيف المهند في سيرة الملك المؤيد: المؤلف بدر الدين العيني، تحقيق: فهميم محمد شلتوت، محمد مصطفى زيادة، الناشر: دار الكتاب العربي، القاهرة، (١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م).
- ٥٠- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي، تحقيق: محمود الأرنؤوط، الناشر: دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١ (١٤١٤هـ = ١٩٩٣م).
- ٥١- صبح الأعشى في صناعة الإنشا: أحمد بن علي القلقشندي، تحقيق: نبيل خالد الخطيب، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ (١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م).

- ٥٢- صحيح مسلم: للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦-٢٦١هـ) = (٨٢١-٨٧٥م)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار عالم الكتب، الرياض، ط١ (١٤١٧ = ١٩٩٦م).
- ٥٣- صيد الخاطر: جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ = ١٢٠١م)، تحقيق: حسن المساحي سويدان، الناشر: دار القلم، دمشق، ط١ (١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م).
- ٥٤- الضوء اللامع: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الناشر: دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.
- ٥٥- حسن المحاضرة: السيوطي، تحقيق: خليل منصور، الناشر: دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان، ط١ (١٤١٨هـ = ١٩٩٧م).
- ٥٦- الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد: لكامل الدين أبي الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر الإدفوي الشافعي (ت ٧٤٨هـ = ١٣٤٧م)، الناشر: المطبعة الجمالية، مصر، ط١ (١٣٣٣هـ = ١٩١٤م).
- ٥٧- الطبقات السنية في تراجم الحنفية: تقي الدين بن عبد القادر التميمي الداري الغزيّ المصري الحنفي (١٠٠٥هـ = ١٥٩٦م)، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: دار الرفاعي، الرياض، ط١ (١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م).
- ٥٨- طبقات الشافعية: أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة، الناشر: عالم الكتب، بيروت، ط١ (١٤٠٧هـ = ١٩٨٦م).
- ٥٩- طبقات الشافعية الكبرى: تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي، تحقيق: محمود محمد الطناحي- عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢ (١٤١٣هـ = ١٩٩٢م).

- ٦٠- العبر في خبر من غبر: الحافظ محمد أحمد بن عثمان الذهبي (ت٧٤٨هـ= ١٣٤٧م)، تحقيق: صلاح الدين المنجد، الناشر: مطبعة حكومة الكويت (١٣٨٦هـ= ١٩٦٦م).
- ٦١- عقد الجمان في تاريخ أهل الذمان: بدر الدين محمود العيني (ت٨٥٥هـ= ١٤٥١م)، تحقيق: محمد محمد امين، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٤٠٨هـ= ١٩٨٨م).
- ٦٢- عيون الأنباء في طبقات الأطباء: موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة (ت٦٦٨هـ= ١٢٦٩م)، تحقيق: نزار رضا، الناشر: دار مكتبة الحياة، بيروت.
- ٦٣- الفتاوى الحديثة: أحمد شهاب الدين ابن حجر الهيتمي المكي، الناشر: دار الفكر.
- ٦٤- فتاوى السبكي: الإمام أبي الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي (٦٨٣- ٧٥٦هـ= ١٢٨٤- ١٣٥٥م)، تحقيق: حسام الدين القدسي، الناشر، دار الجيل، بيروت، ط١ (١٤١٢هـ= ١٩٩٢م).
- ٦٥- فوات الوفيات: محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر، بيروت، ط١.
- ٦٦- القلائد الجوهريّة: محمد بن طولون الصالحي (ت٩٥٣هـ= ١٥٤٦م)، تحقيق: محمد أحمد دهمان، الناشر: مجمع اللغة العربية، دمشق.
- ٦٧- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: المولى مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي الشهير بالملا كاتب الجلي والمعروف بجاجي خليفة (١٠١٧هـ- ١٠٦٧هـ= ١٦٠٨- ١٦٥٧م)، الناشر: دار الفكر (١٤٠٢هـ= ١٩٨٢م).

- ٦٨- كنوز الذهب في تاريخ حلب: سبط ابن العجمي الحلبي (ت ٨٨٤هـ = ١٤٧٩م)، تحقيق: شوقي شعث- فالح البكور، الناشر: دار القلم العربي، حلب، ط١ (١٤١٧هـ = ١٩٩٦م).
- ٦٩- الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة: نجم الدين الغزي، تحقيق: جبرائيل سليمان جبور، الناشر: دار الأفق الجديدة، بيروت، ط٢ (١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م).
- ٧٠- لسان العرب: أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفرقي المصري، الناشر: دار صادر، بيروت، ط٦ (١٤١٧هـ = ١٩٩٧م).
- ٧١- مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمدارس: عبد الباسط العلمي، تحقيق: صلاح الدين المنجد، الناشر: مطبعة الترقى، دمشق (١٣٦٦هـ = ١٩٤٧م).
- ٧٢- المختصر في أخبار البشر: أبو الفداء اسماعيل بن علي (٦٧٢- ٧٣٢هـ) = (١٢٧٣- ١٣٣٢م)، الناشر: دار الكتاب اللبناني، بيروت.
- ٧٣- المدخل: محمد بن محمد البغدادي الفاسي الشهير بابن الحاج (ت ٧٣٧هـ = ١٣٣٦م)، الناشر: دار الفكر (١٤٠١هـ = ١٩٨١م).
- ٧٤- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان: الأمام أبي محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي اليمني الكندي (ت ٧٦٨هـ = ١٣٦٦م)، تحقيق: خليل منصور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ (١٤١٧هـ = ١٩٩٧م).
- ٧٥- مسالك الأبصار في ممالك الأبصار: شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ = ١٣٤٨م)، تحقيق: أحمد عبد الله الشاذلي، الناشر: الجمع الثقافي، أبو ظبي (١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م).

- ٧٦- معالم القرية في طلب الحسبة: محمد بن محمد بن أحمد القرشي (٦٤٨-٧٢٩هـ) = (١٢٥٠-١٣٢٩م)، تحقيق: محمد محمود شعبان- صديق أحمد عيسى المطيعي، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م).
- ٧٧- معجم الأدباء: ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، تحقيق: عمر فاروق الطباع، الناشر: مؤسّسة المعارف، بيروت، ط١ (١٤٢٠ = ١٩٩٩م).
- ٧٨- معجم الشيوخ: عمر بن فهد الهاشمي المكي (٨١٢-٨٨٥هـ) = (١٤٠٩-١٤٨٠هـ)، تحقيق: محمد الزاهي، الناشر: المطبعة الأهلية للأوفست، الرياض.
- ٧٩- المعيد في أدب المفيد والمستفيد: عبد الباسط بن موسى بن محمد العلموي (ت ٩٨١هـ = ١٥٧٣م)، الناشر: المكتبة العربية، دمشق، ط١.
- ٨٠- معيد النعم ومبيد النقم: تاج الدين عبد الوهاب السبكي (ت ٧٧١هـ = ١٣٦٩م)، تحقيق: محمد علي النجار- وأبو زيد شلبي، الناشر: دار الكتاب العربي، مصر، ط١ (١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م).
- ٨١- مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم: أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبري زاده، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٨٢- مفرج الكروب في اخبار بني أيّوب: جمال الدين محمد بن سالم بن واصل (ت ٦١٧هـ = ١٢٢٠م)، تحقيق: حسين محمد ربيع، الناشر: دار الكتب، القاهرة (١٣٧٢هـ = ١٩٥٣م).
- ٨٣- مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ) = (١٣٣٢-١٤٠٦م)، تحقيق: خليل شحادة، الناشر: دار الفكر، ط٢ (١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م).



٨٤- منادمة الأطلال ومسامرة الخيال: عبد القادر بدران، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتبة الإسلامية، بيروت، ط٢ (١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م).

٨٥- المنتقى من درة الأسلاك في دولة الأتراك في تاريخ حلب الشهباء: الحسن بن عمر بن حبيب الحلبي الدمشقي (ت ٧٧٩هـ = ١٣٧٧م)، انتقاه مؤلف مجهول من مخضرمي رجال القرنين الثامن والتاسع للهجرة، تحقيق: عبد الجبار زكار، الناشر: دار الملاح، ط١ (١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م).

٨٦- من ذيول العبر: الذهبي ولمحمد بن علي الحسيني، تحقيق: محمد رشاد عبد المطلب، الناشر: مطبعة حكومة الكويت.

٨٧- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي: يوسف بن تغري بردي الأتابكي جمال الدين أبو المحاسن، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٨٨- النجوم الزاهر في ملوك مصر والقاهرة: جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (٨٧٤هـ = ١٤٦٩م)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١ (١٤١٣هـ = ١٩٩٢م).

٨٩- نزهة النفوس في تواريخ الزمان: علي بن داوود الجوهري الصيرفي، تحقيق: حسن حبشي، الناشر: مطبعة دار الكتب (١٣٩١هـ = ١٩٧١م).

٩٠- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب: أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر، بيروت (١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م).

- ٩١- نقد الطالب لزغل المناصب: شمس الدين محمد بن طولون (٨٨٠-٩٥٣هـ)=  
(١٤٧٥-١٥٤٦م)، تحقيق: محمد أحمد دهمان- خالد محمد دهمان، الناشر: دار الفكر  
المعاصر، بيروت.
- ٩٢- نهاية الأرب في فنون الأدب: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري،  
تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ (١٤٢٤هـ = ٢٠٠٤م).
- ٩٣- الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط  
- تركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث، بيروت (١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م).
- ٩٤- وجيز الكلام في الذيل على دولة الإسلام: السخاوي، تحقيق: بشار عواد  
معروف- عصام فارس الحرساني- أحمد الخطيمي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت،  
ط١ (١٤١٥هـ = ١٩٩٥م).
- ٩٥- وفيات الأعيان وابناء الزمان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر  
بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر، بيروت، عدة طبعات.

## ثانياً: قائمة المراجع

- ١- أحمد بن طولون: سيده اسماعيل، الناشر: الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- ٢- الأدب في بلاد الشام في عصر الزنكيين والأيوبيين والمماليك: موسى باشا عمر، الناشر: المكتبة العباسية، دمشق، ط٢ (١٣٩١هـ = ١٩٧٢م).
- ٣- الإسلام والحضارة العربية: محمد كورد علي، الناشر: مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ط٢ (١٣٦٩هـ = ١٩٥٠م).
- ٤- الألفاظ الفارسية المعربة: السيدادي شيد، الناشر: مطبعة الكاثوليك للأباء اليسوعيين، بيروت (١٣٢٦هـ = ١٩٠٨م).
- ٥- الأوقاف والحياة الاجتماعية: محمد أمين، الناشر: دار العربية بالقاهرة، ط١ (١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م).
- ٦- الأيوبيين والمماليك في مصر والشام: سعيد عبد الفتاح عاشور، الناشر دار النهضة العربية، القاهرة (١٤١٦هـ = ١٩٩٦م).
- ٧- تاريخ البيمارستان في الإسلام: أحمد عيسى بك، الناشر: الطبعة الهاشمية، دمشق.
- ٨- تاريخ التربية الإسلامية: أحمد شلبي، الناشر: مكتبة النهضة المصرية، ط٣ (١٣٨٥هـ = ١٩٦٦م).
- ٩- تاريخ الجامعات الإسلامية: محمد عبد الرحيم غنيمه، الناشر: دار الطباعة المغربية، تطوان (١٣٧٢هـ = ١٩٥٣م).
- ١٠- تاريخ حماة، أحمد الصابوني، المطبعة الأهلية، حماة.

- ١١- تاريخ الكتب والمكتبات: هايل نوفل، الناشر: مطبعة خالد بن الوليد.
- ١٢- تاريخ المساجد الأثرية: حسن عبد الوهاب، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢ (١٤١٤هـ = ١٩٩٤م).
- ١٣- تاريخ المكتبات: الفرد هيسيل، ترجمة: شعبان عبد العزيز خليفة، الناشر: دار المريخ، ط٢ (١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م).
- ١٤- تاريخ المكتبات: السيّد السيّد النشار، الناشر: الدار المصرية اللبنانية، ط١ (١٤١٣هـ = ١٩٩٣م).
- ١٥- تاريخ المماليك: عمار محمد النهار، الناشر: جامعة دمشق (١٤٣٤-١٤٣٥هـ) = (٢٠١٣-٢٠١٤م).
- ١٦- تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام: محمد سهيل طقوش، الناشر: دار النفائس، بيروت، ط٣ (١٤٣١هـ = ٢٠١٠م).
- ١٧- تراث القاهرة العلمي والفني في العصر الإسلامي: عبد الرحمن زكي، الناشر: مكتبة الانجلو، القاهرة (١٣٨٩هـ = ١٩٦٩م).
- ١٨- تزويد المكتبات بالمطبوعات: شعبان عبد العزيز خليفة، الناشر: دار الثقافة، القاهرة، ط٢.
- ١٩- التصوف في مصر ابان العصر العثماني: توفيق الطويل، الناشر: مكتبة الآداب بالجماميز مطبعة الاعتماد، مصر.

- ٢٠- جوانب من حركة التأليف التاريخي في العصر المملوكي: خليل الأحمد الحسين،  
أشراف: محمود زعرور، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة دمشق (١٤٢٨ - ١٤٢٩هـ) =  
(٢٠٠٧ - ٢٠٠٨م).
- ٢١- حلب في العصر المملوكي الأول: بدور كمال، أشرف: سهيل زكار، رسالة  
دكتوراة، دمشق (١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م).
- ٢٢- الحياة الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي: عامر نجيب موسى ناصر الناشر:  
دار الشروق، عمان، ط١ (١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م).
- ٢٣- خزائن الكتب في دمشق وضواحيها: حبيب الزيات، الناشر: مطبعة المعارف،  
مصر.
- ٢٤- خزائن الكتب العربية في الخافقين: فيليب دل طرازي، الناشر: دار الكتب  
البنانية.
- ٢٥- الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة: علي  
باشا مبارك، الناشر: مطبعة بولاق، ط٢ (١٣٠٥هـ = ١٨٨٧م).
- ٢٦- خطط الشام: محمد كرد علي، الناشر: دار العلم، بيروت، ط٢ (١٣٩١هـ =  
١٩٧١م).
- ٢٧- تاريخ الكتب والمكتبات: خيال الجواهري، هاشم حمادي، الناشر: جامعة دمشق  
مطبعة الداودي.

٢٨- دور الكتب العربية العامّة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط: يوسف العث، ترجمة عن الفرنسية، نزار أباطة- محمد صباغ، الناشر: دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط١ (١٤١١هـ = ١٩٩١م).

٢٩- ظهر الإسلام: أحمد أمين، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط٥.

٣٠- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي: محمود رزق سليم، الناشر: مكتبة الأداب بالجماميز، القاهرة، ط٢ (١٣٨٠هـ = ١٩٦٢).

٣١- العصر المملوكي في مصر والشام: سعيد عبد الفتاح عاشور، الناشر: دار النهضة العربية، القاهرة، ط٢ (١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م).

٣٢- العصر المماليكي في مصر والشام: سعيد عبد الفتاح عاشور، الناشر: دار النهضة العربية، القاهرة، ط٢ (١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م).

٣٣- العلاقات الاقتصادية بين المشرق والغرب في العصور الوسطى: عادل زيتون، الناشر: دار دمشق للطباعة والنشر، دمشق، ط١ (١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م).

٣٤- العلوم العملية في العصور الإسلامية: عمر رضا كحالة، الناشر: المطبعة التعاونية، دمشق (١٣٩٢هـ = ١٩٧٢م).

٣٥- الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية: حسن باشا، الناشر: دار النهضة العربية.

٣٦- فهارس المخطوطات العربية في العالم: كوركيس عواد، الناشر: معهد المخطوطات العربية، الكويت، ط١ (١٤٠٥هـ = ١٩٨٤م).

- ٣٧- فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، التاريخ ملحقاته: يوسف العشي، الناشر: مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق (١٣٦٦هـ = ١٩٤٧م).
- ٣٨- فهرس مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى: خضر إبراهيم سلامة، الناشر: المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت.
- ٣٩- الفهرسة الوصفية للمكتبات: شعبان عبد العزيز خليفة، الناشر: دار المريخ، الرياض، ط٢ (١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م).
- ٤٠- قصة الحضارة: ول ديورانت، ترجمة: زكي نجيب محمود، الناشر: مطابع الرجوى، عابدين، القاهرة، ط. ٥.
- ٤١- الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات: أيمن فؤاد سيد، الناشر: الدار المصرية اللبنانية.
- ٤٢- لمحات من تاريخ الكتاب والمكتبات: عبد اللطيف الصوفي، الناشر: دار طلاس، ط١ (١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م).
- ٤٣- لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات: عبد الستار الحلوجي، الناشر: دار الثقافة، ط٣ (١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م).
- ٤٤- مجالس السلطان الغوري صفحات في تاريخ مصر في القرن العاشر الهجري: عبد الوهاب عزام، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، ط١ (١٤٣١هـ = ٢٠١٠م).
- ٤٥- المجمع المصري في عصر سلاطين المماليك: سعيد عبد الفتاح عاشور، الناشر: دار النهضة العربية، القاهرة (١٤١٢هـ = ١٩٩٢م).

٤٦- المخطوطات الدمشقية: إيداد خالد طباع، الناشر: الهيئة العامة السورية للكتاب (١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م).

٤٧- المخطوط العربية: عبد الستار الحلوجي، الناشر: مكتبة مصباح، السعودية، جدّة، ط٢ (١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م).

٤٨- المخطوطات العربية في الأناضول: أحمد آتشي، مجلّة معهد المخطوطات العربية (١٣٧٧هـ = ١٩٥٨م).

٤٩- المدارس ونظم التعليم في بلاد الشام في العصر المملوكي: أحمد خالد جوده، الناشر: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

٥٠- مدن الشام في العصر المملوكي: ايرامرفين لايدوس، ترجمة: سهيل زكار، الناشر، دار حسان، دمشق، ط١ (١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م).

٥١- مصر في عصر دولة المماليك البحرية: سعيد عبد الفتاح عاشور، الناشر: دار النهضة المصرية.

٥٢- مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة: إبراهيم علي طرخان. الناشر: مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (١٣٧٩هـ = ١٩٦٠م).

٥٣- معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي: محمد أحمد دهمان، الناشر: دار الفكر المعاصر: بيروت، لبنان، ط١ (١٤١٠هـ = ١٩٩٠م).

٥٤- مقدمة في علم المكتبات والمعلومات: رجي مصطفى عليان- أمين البغدادي، الناشر: دار الفكر.



- ٥٥- مقدمة في تاريخ الكتب والمكتبات: محمد ماهر حمادة، الناشر: مؤسّسة الرسالة.
- ٥٦- المكتبات في الإسلام نشئتها وتطورها ومصائرهما: محمد ماهر حمادة، الناشر: مؤسّسة الرسالة، بيروت، ط٣ (١٤٠١هـ = ١٩٨١م).
- ٥٧- المكتبات في العالم: محمد ماهر حمادة، الناشر: دار العلوم.
- ٥٨- من تاريخ المكتبات في البلدان العربية: خيال محمد مهدي الجواهري، الناشر: وزارة الثقافة، دمشق (١٤١٢هـ = ١٩٩٢).
- ٥٩- من روائع حضارتنا: مصطفى السباعي، الناشر: دار الوراق، بيروت، لبنان، ط١ (١٤١٩هـ = ١٩٩٩م).
- ٦٠- موسوعة دول العالم الإسلامي: شاكر مصطفى، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت، ط١ (١٤١٣هـ = ١٩٩٣م).
- ٦١- نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك: علي سالم الشاهين، الناشر: دار الفكر العربي، ط١ (١٤٠١هـ = ١٩٨١م).
- ٦٢- نيابة حماة في العصر المملوكي: إبراهيم شريف الأحمد، أشراف: وفاء جوني، رسالة دكتوراه في تاريخ العرب والإسلام، جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم تاريخ (٢٠١١ - ٢٠١٢م) = (١٤٣٢ - ١٤٣٣م).
- ٦٣- نيابة صفد في العصر المملوكي: هاني صالح الموعد، أشراف: عمار محمد النهار، رسالة ماجستير، جامعة دمشق (١٤٣١ - ١٤٣٢هـ) = (٢٠١٠ - ٢٠١١م).

- ٦٤- الوثائق والعمارة، دراسة في العمارة الإسلامية في العصر المملوكي الجامع الأبيض بالحوش السلطانية بقلعة القاهرة: مهندس صالح لمعي مصطفى، الناشر: دار النهضة العربية.
- ٦٥- الوقف وبنية المكتبة العربية: يحيى محمود ساعاتي، الناشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط٢ (١٤١٦هـ = ١٩٩٦م).

### ثالثاً: قائمة الوثائق والمجلات والمخطوطات

- ١- بذل المجهود في خراطة محمود: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ) = (١٤٤٥-١٥٠٥م)، كتبة المصطفى الألكترونية: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com).
- ٢- دور الكتب في حلب قديماً وحديثاً: محمد راغب الطباخ، مجلّة المجمع العلمي العربي، دمشق (١٣٤٥هـ = ١٩٢٧م).
- ٣- عدة أرباب الفتوة في مذهب الأمام الأعظم أبي حنيفة النمان: عبد الله أسعد، المطبعة الكبرى الأميرية، القاهرة، (١٣٠٣هـ = ١٨٨٦م)، مخطوط المكتبة الوطنية، رقم: ٤٦٢٨ ن.
- ٤- فهرست كتب ابن عبد الهادي: يوسف بن حسن بن عبد الهادي ابن المررد، المكتبة الوطنية، رقم ٣١٩٠.
- ٥- حديث الحامض المروزي: عبد الغني جمال الدين أبي موسى المقدسي: المكتبة الوطنية، وثيقة، رقم ٣٨٢٨ ت.

الملاحق

كتاب بذل المجهود في خزانة محمود: جلال الدين السيوطي

هذا كتاب بذل المجهود في خزانة محمود  
تصنيف شيخ الاسلام الحافظ  
جلال الدين السيوطي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى اما بعد فقد وقف  
محمود الاستعداد اذ كتبنا وجعل مرقها يد برسته وشرط  
ان لا يخرج من المدرسة وقد رايت شيخنا شيخ الاسلام  
شرف الدين المناوي و شيخنا شيخ الاسلام علم الدين البلقيني  
يستقران سنها و يخرجان منها المكتب الي منزلها وتكث عندهما  
الايام الكثيرة وبها الاما تان يقتدي بهما فانما كانا من  
الفئة بالحل الا على بحيث بلغا رتبة الاجتهاد في الخذهب  
وكان المناوي صوفيا له احوال وكرامات فلو لا رايا ذلك  
جانزا تا فعلا ه فان قيل ما وجه الجواز مع مخالفة شرط  
الواقف قلنا له اربعة اوجه وجهان ضعيفان ووجه  
حسن ووجه قوي صحيح الوجه الاول ان هذا الشرط  
باطل جنيح اليه بعضهم لكن رده السبكي وقال انه شرط صحيح  
لان للواقف فيه غرضا صحيحا لان اخراجها نطفة ضياء عسا  
الوجه

الوجه الثاني ان يحل قول الواقف لا يخرج لا يخرج على نقلها  
 من مقرها بالمدرسة الى محل اخر يجعل مقرها فيه فينتفع وان  
 راي الناظر ذلك لا يخرج مستعير منتفع به ثم يعسد  
 وهذا التاويل وان كان بعيدا لانه قد يقربه ان عبارة  
 الواقف وشرط ان لا يخرج ذلك ولا شئ منه من المدرسة  
 المنذورة فيجعل نفي الاخراج منه باطلا على مجموع الكتب لهذا  
 يقرب ان المراد بالاجراج نقل الكتب باسرها من هذا الموضع  
 الى مقر اخر لا يخرج مستعير فانه لم يخرج العادة في احيان  
 بائنة جميع ما فيها دفعة واحدة وباجملة فهذا الوجه والذي  
 قبله ضعيفان الوجه الثالث ان يعنى الالة جوز  
 مخالفة شرط الواقف اذا اقتضت المصلحة ذلك ويعزى  
 هذا المذهب الامام احمد فان كان هو المشهور عنهم  
 فهو وجه حسن يصلح الاستناد اليه الوجه الرابع  
 وهو القوي ان من قواعد الشرع انه يجوز ان يستنبط  
 من النص معنى تخصصه وذلك معلوم فاذا كان هذا  
 في نص الشارع فني نفي الواقف اولى فيقال ان مقصود  
 لواقف تمام النفع وتام الحفظ فاذا وجد من يحتاج  
 الى الاستغناء بها في تصريفه ذلك لا يمكنه على الوجه الاثم

في المدرسة ووثق بتمام حفظه وصونه جاز الاخراج له وليستني  
 من المنع وتخصر عموم لفظ الوقت بهذا المعنى المستفيض كما خص  
 عموم قوله تعالى اولا ستم النساء واستثنى منه الحارم بالمعنى  
 المستفيض وهو الشهرة ولا دليل لاستثنا الحارم من ايتنا و  
 حديث نسوي هذه الاستنباط فكذا نك هذا وقد ذكر الحافظ  
 عماد الدين بن كثير في تاريخه ان في بعض السنين بغداد شنع  
 حملوا الاطفال من تعليمهم في المساجد الا رجلا واحدا كان  
 موصوفا بالحرف فاستثنى من المنع والضم استثنوا الماوردي  
 صاحب الحاوي من ايتنا والقديري من ائمة الحنفية وغيرها  
 فاقوا بايتنا واستدلوا بانهم صلى الله عليه وسلم امر بسيد  
 كل خوخة في المسجد الا خوخة ابن بكر فاستثنوا هم لهذا  
 الرجل على استثنائهم خوخة ابن بكر وهذا استنباط دقيق لا  
 يدركه الا الائمة المحمديه وان كان الماوردي والقديري وغيرهما  
 وقد استندت الي قولهم لهذا فاما حتى استثنيت  
 ائمة القرافة فاقبت بعدها كما هو المتفق الا انهم هذا الحارم  
 فاستندت في هذا الاستثنا الي ما صنع الماوردي والقديري  
 ثم ان من مسلك مسلكنا سنن لا بد من التنبه عليهما  
 احدهما انه ينبغي ان لا يستعار من هذه الخزانة الا ما لا يتيسر  
 وجوده

وجوده في غيرها والثاني انه لا يمكن عند المستقيم الا  
 بقدر ما يقضى حاجته منه في العادة ومعرفة الامر ان  
 ان ما جاز للضرورة يتعد بقدرها تم الكتاب على يد  
 العبد الفقير ما لكم عبد الله النوشي

الملحق (٢)

نماذج عن المؤسسات التعليمية في العصر المملوكي



المسجد الأقصى





الجامع الأموي في دمشق



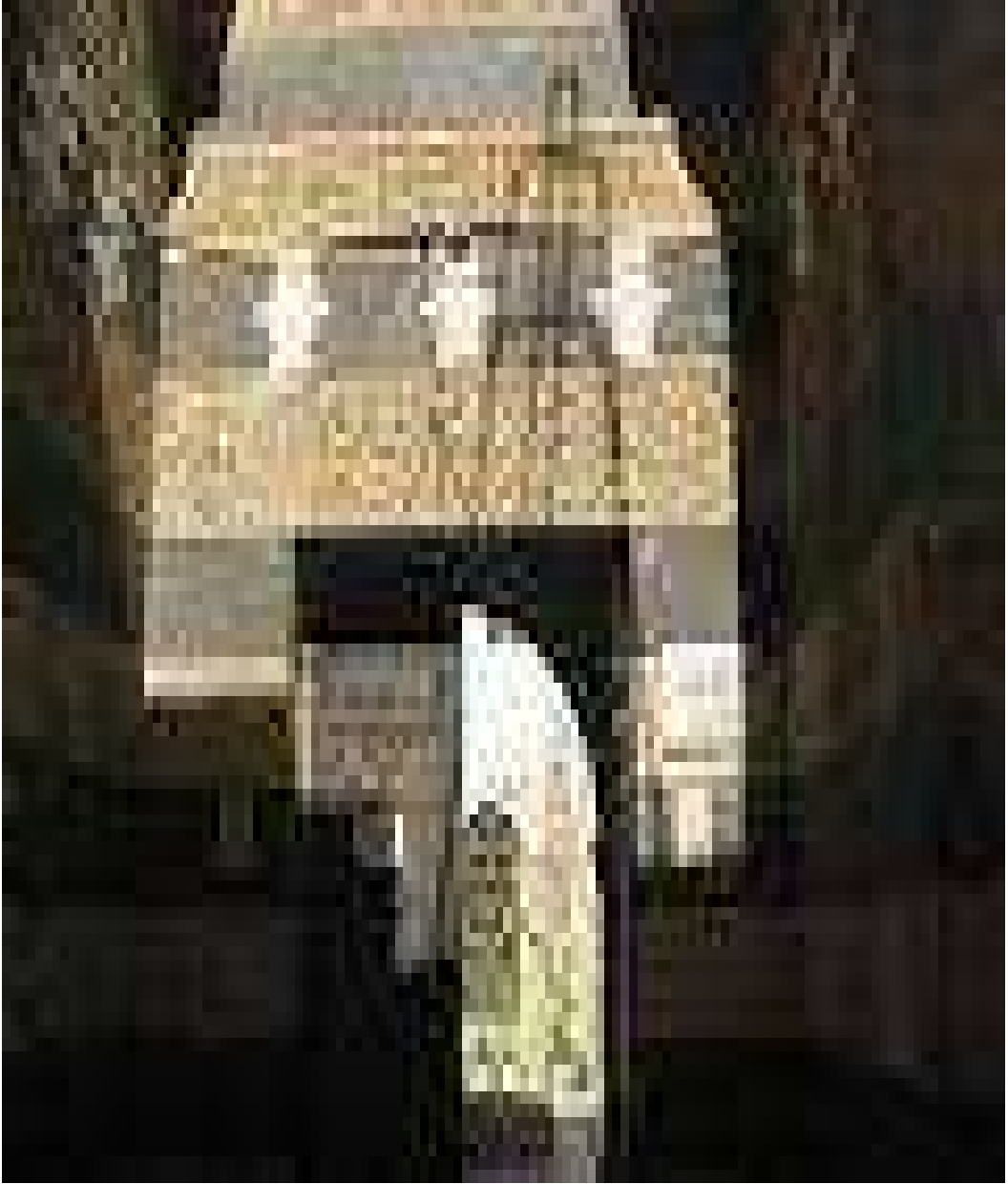
الجامع الأموي في حلب



جامع الدهشة في حماة



المدرسة العادلية في دمشق



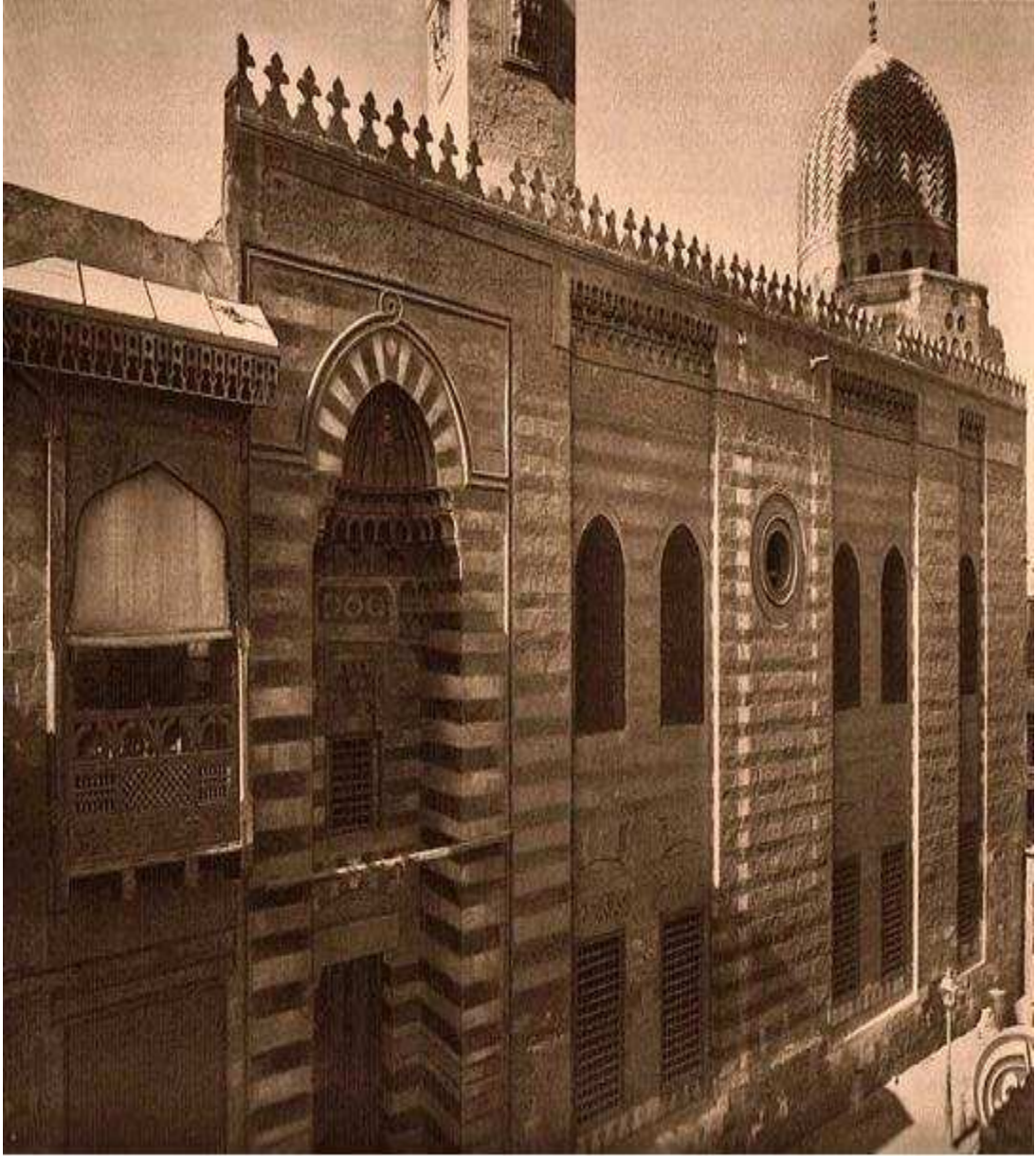
الخانقاه السيمساطية في دمشق



الجامع الأزهر



القبة المنصورية في مصر



مسجد ومدرسة برسباي في مصر





مدرسة أم السلطان شعبان في مصر



المدرسة المنصورية في مصر

